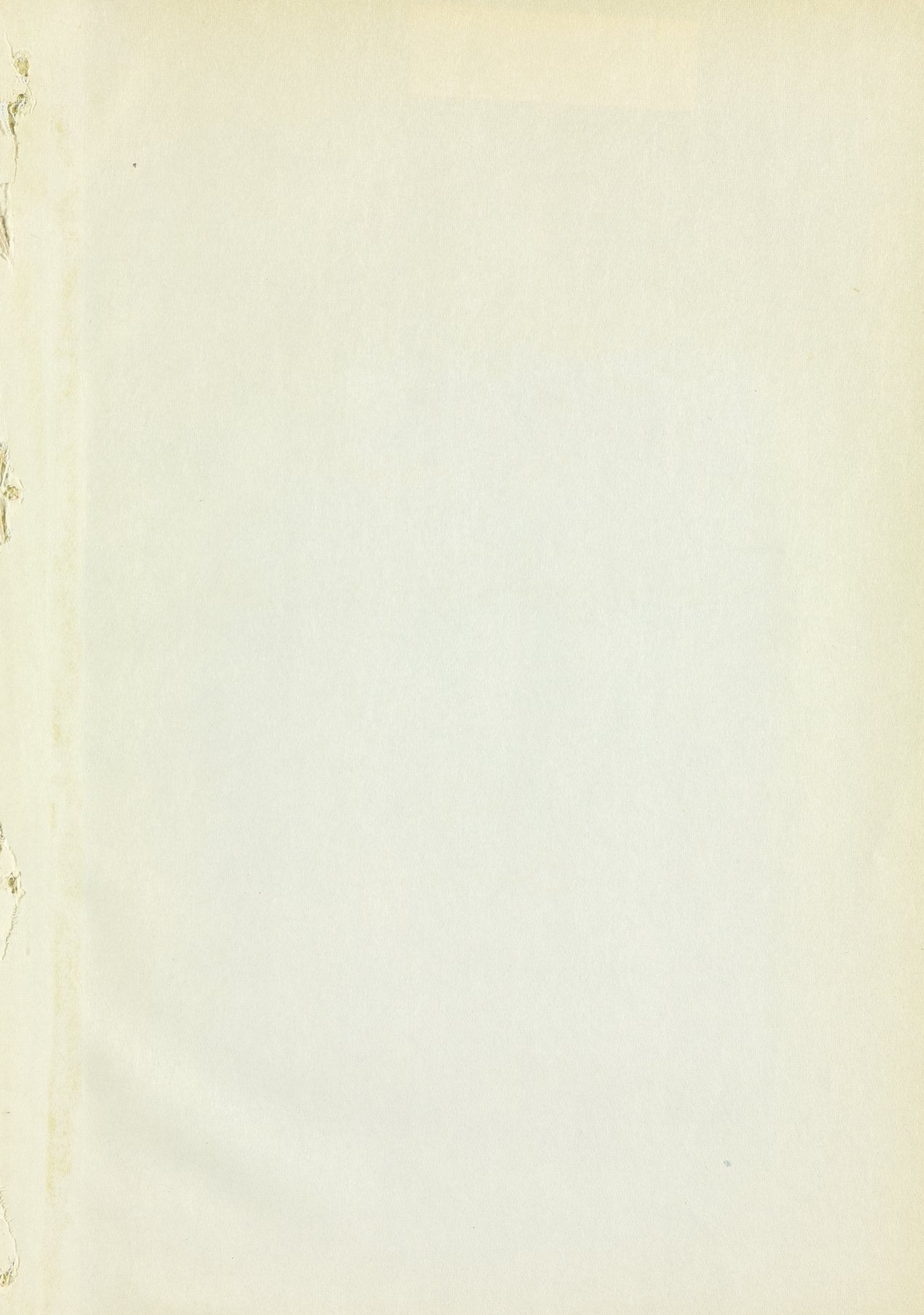



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
DUPL>
32101 038161152



بريطانيا والعراق

حتى عام ١٩١٤

دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري

تأليف

الدكتور زكي صالح

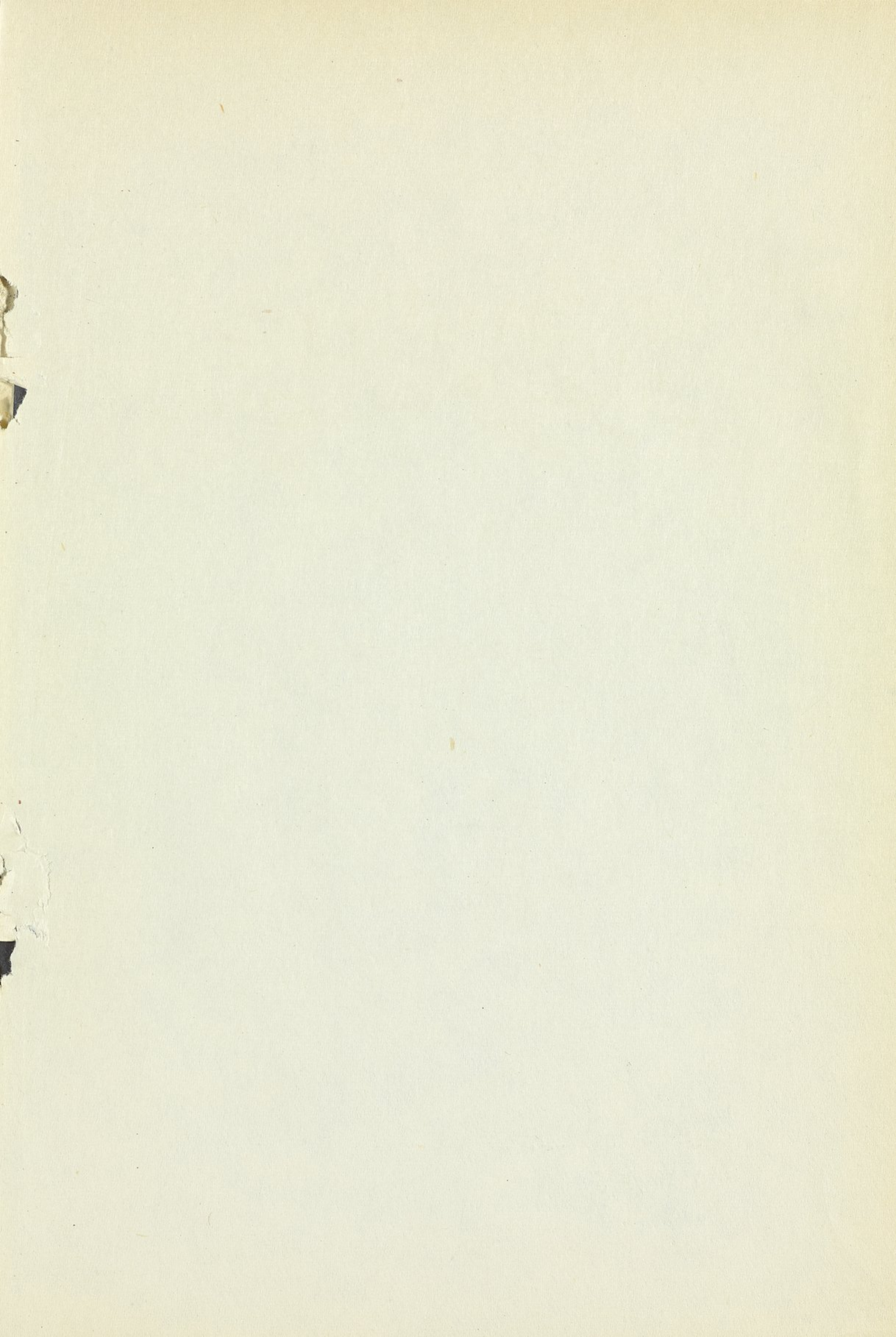
B.A., A.M., Ph.D.

ساعدت جامعة بغداد على نشره



بريطانيا والعراق

حتى عام ١٩١٤



بريطانيا والعراق

حتى عام ١٩١٤

دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري

تأليف

الدكتور زكى صالح

B.A., A.M., Ph.D.

استاذ في جامعة بغداد ، ورئيس دائرة التاريخ فيها سابقا

زميل بحاثة (١٩٥٤ – ٥٥) في جامعة كولمبيا بمدينة نيويورك

استاذ زائر (١٩٦٠ – ٦١) في جامعتى اوكسفورد ، وكمبردج ، بانكلترا

ساعدت جامعة بغداد على نشره

مطبعة العانى – بغداد – ١٩٦٨

محتويات الكتاب

الباب الاول

السبل المؤدية الى العراق

الفصل الاول

تمهيد

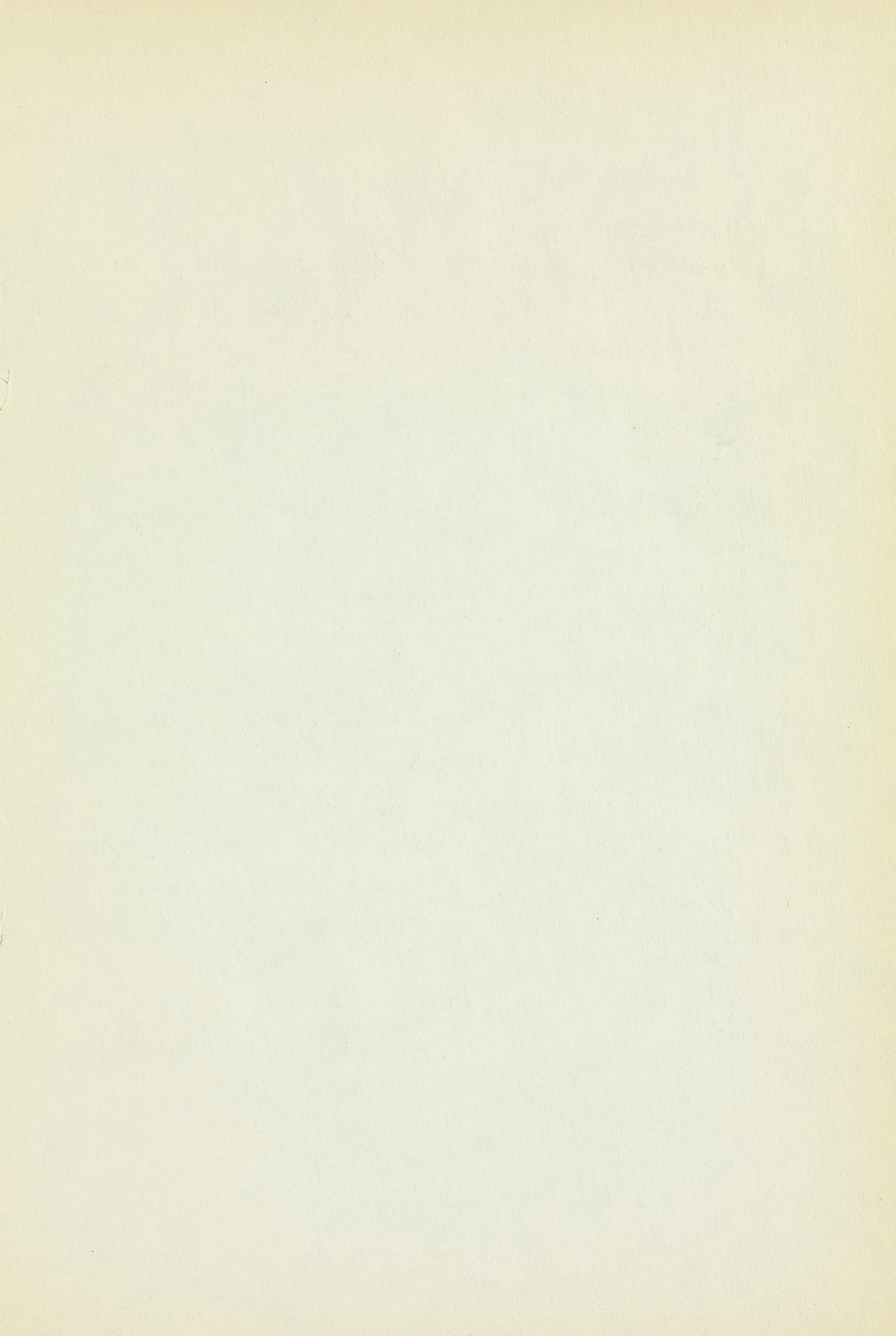
يجدر بنا ان نتذكر اولا بان العراق لم يكن معروفا بهذا الاسم على ايام الدولة العثمانية ، وانما كان معروفا باسم (ايالة بغداد ، الى ان انقسمت هذه الايالة تدريجا خلال القرن التاسع عشر الى ثلاث ولايات (اى محافظات) تعرف بولايات الموصل ، وبغداد ، والبصرة ٠

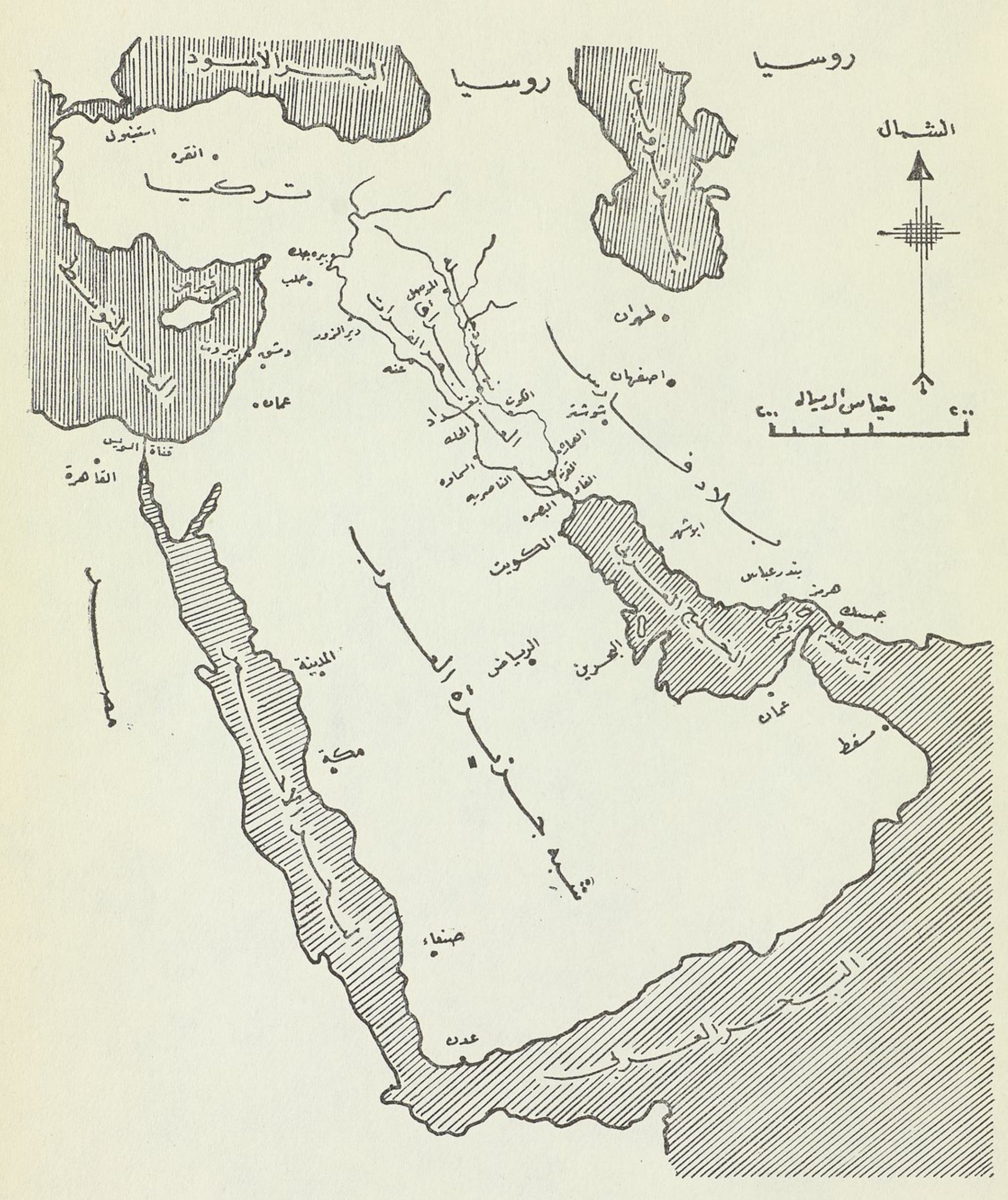
اما فى الميدان الدولى فقد كانت هذه الولايات الثلاث تعرف مجتمعة بالاصطلاح بلاد ما بين النهرين (Mesopotamia) ٠ وبهذا المعنى نفسه يعرف العراق اليوم ، من حيث احتوائه على مناطق تلك المدن الثلاث ، وشموله معظم وادى الرافدين ٠

غير أن البحث أوسع نطاقا ، وابعد مآلا ، مما قد يوحيه الاصطلاح الجغرافى ٠ فالعراق كأى بلد عربى آخر يمكن ان يكون موضوعا علميا لدراسة التوسع الاوروبى (European expansion) وما يعنيه من الامبريالية والاستعمار ٠ وعلى هذا الاساس جرى البحث الذى بين ايدينا فى دراسة التوسع البريطانى منذ بدايته فى الشرق الاوسط اجمالا ، واستقراره بعدئذ فى بلاد الرافدين حتى الحرب العالمية الاولى - وليس ذلك بمختلف جوهريا عما قامت به بعض دول الغرب فى بلادنا العربية الاخرى ، من المحيط الى الخليج ٠

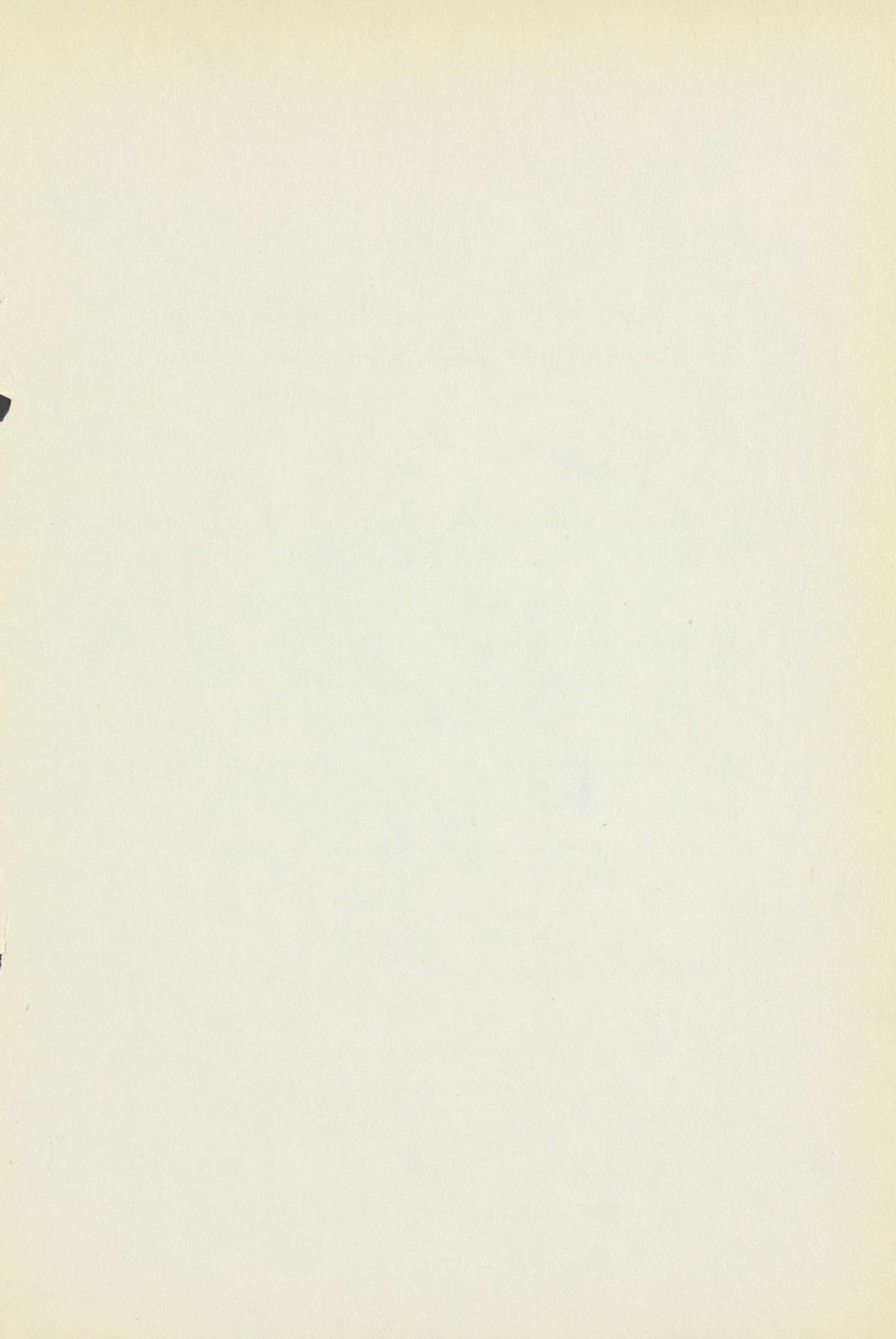
ولا غرابة فى ان يشار الى العراق باسم « قلب الشرق الاوسط » كما فعل ريتشارد كوك R. Coke فى عنوان كتابه عن العراق(*) ٠ (فالخارطة) التالية تبين موقع هذا « القلب » جغرافيا ٠ (والمقدمة) من بعدها تذهب فى الايضاح والتعليل الى ابعد من ذلك بكثير ٠

(*) Richard Coke, *The Heart of the Middle East* (London, 1925).





العراق : « قلب الشرق الاوسط »



خواطـر

ولقد تتوارد الخواطر على البال عند انجاز مثل بحثنا الذى تناول منها فى (مقدمته) جزء غير يسير ٠ ولذا سنكتفى هنا باشارة عابرة الى بعض المصطلحات المألوفة ، وما هى عليه من تباين بين مختلف الكتّاب ٠

ومثلا على ذلك (نابوليون بونابارت) المكتوب اسمه على هذه الشاكلة نفسها فى قاموس المنجد (الطبعة الخامسة عشرة سنة ١٩٥٦) ٠ غير ان هذا الاسم الشهير يبدو فى كثير من الاحيان مكتوبا على شاكلة أخرى مثل (نابوليون بونابرت) أو (نابليون بونابرت) ٠ وكذلك خذ كلمة (أوروبا) وهذه هى الصواب حسب القاموس نفسه ، ولكنها كثيرا ما تكتب (أوربا) ٠ ويقال الان مثلا أن عبارة (فهرست الكتاب) يجب ان تستبدل بعبارة (ثبت المحتويات) ٠ أما كلمة الرومانسية المهمة جدا فى التاريخ الحديث ، فلدينا عليها نوع من التعقيب فى هامش (ص ١٧٢) ٠ واذا ما التزمنا بهذه الكلمة (الرومانسية) فاننا لم نلتزم بما هو أقل منها أهمية ، مما لا يؤثر فى وضوح المعنى ، ولا يقدم أو يؤخر فى فوضى المصطلحات ٠

وكذلك الالقاب العسكرية المختلفة اليوم فى لغة الضاد (ما بين المحيط والخليج) ٠ فلقد تبدلت ثلاثة منها عندنا فى العراق فاصبحت على غرار ما هى عليه فى الجمهورية العربية المتحدة ، كما يلى : نقيب (بدلا من رئيس) ورائد (بدلا من رئيس اول) وعميد (بدلا من زعيم) ٠ وقد يبدو غريبا ان يذكر القاموس العصرى ، الانكليزى ــ العربى ، فى طبعته الثانية عشرة سنة ١٩٦١ ، مقابل كلمة (major) التعريب التالى : رائد ، ومقدم ، و [صاغ] ٠ والقاموس نفسه لا يذكر كلمة مفردة تقابل (Captain) ــ التى اخالها تعنى (رائد) ٠ ومهما يكن من امر فانه لم يرد شىء من هذا فى كتابنا الا نادرا ، حيث ذكرنا مرادفه الاجنبى ايضا ، مثـل مقـدم major وعقيد Colonel ، أو مجرد كلمة ضابط حيث لا يتأثر المعنى المقصود ٠

اما اسماء الشهور فقد جرى ذكرها عندنا حسب اسمائها العربيـة (واحيانا مع مرادفاتها المستعملة فى مصر مثلا) ٠ وهذه هى لمن يفيده الرجوع اليها فى اثناء قراءة الكتاب :

١ ـ كانون الثانى	(يناير	(January
٢ ـ شباط	(فبراير	(February
٣ ـ آذار	(مارت ، مارس	(March
٤ ـ نيسان	(أبريل	(April
٥ ـ أيار	(مايس ، مايو	(May
٦ ـ حزيران	(يونيو	(June
٧ ـ تموز	(يوليو	(July
٨ ـ آب	(أغسطس	(August
٩ ـ أيلول	(سبتمبر	(September
١٠ـ تشرين الاول	(اكتوبر	(October
١١ـ تشرين الثانى	(نوفمبر	(November
١٢ـ كانون الاول	(دسمبر	(December

وكذلك استعمال كلمة (مراجع) أو (مصادر) أو (منابع) ، فقد اخترنا كلمة (مصادر) التى تفى هى ايضا بالمرام ٠ وليس هناك ، على ما يبدو ، فى القواميس العربية ما يرجح الواحدة على الاخرى ٠ فهى قضية (اصطلاح) غير متفق عليه ٠

وهنالك مصطلحات الهوامش ٠ فياليتها توحدت ، وعرف عمال المطابع كيفية ترتيبها عندما تختلط بعبارات أجنبية ٠ غير ان الهوامش فى كتابنا هذا لا تهدف الى اكثر من ارشاد القارىء الى ما يراد بها ، وما يبتغيه هو منها٠

وختاما نقدم كلمة اعتذار الى القارىء الكريم عن اخطاء مطبعية معظمها لا يؤثر على المعنى ، وبعضها يحتاج الى تصحيح مثل رقم 349 الـذى يجب ان يكون 369 (س ٢٢ ، ص ١١٠) ٠ وكلمة يجد ، صحيحها يجدر (س ١ ، ص ١٥٧) ٠ ونمرورد ، صحيحها نمرود (س ١٤ ، ص ١٧٨) ٠ و Caira صحيحها Cairo (س ٢٤ ، ص ١٨١) ٠ ثم العضويين يجب ان تكون الاعضاء (س ١٣ ، ص ٢١٦) ٠ وعن هذه ، وغيرها مما لا يكاد يؤبه له ، نكرر تقديم الاعتذار ٠

مقدمه

٣ ـ منزلة الكتاب	٢ ـ مغزى الكتاب	١ ـ سيرة الكتاب
في التاريخ الدبلوماسى	المغزى الاستعمارى	فى ربع قرن
بعض الآراء	المغزى الدولى	مراحل الموضوع

١ ـ سيرة الكتاب

في ربع قرن (١٩٤١ ـ ١٩٦٦) :

منذ أواسط عام ١٩٤١ ظهرت الفصول الخمسة الاولى من هذا الكتاب مستقلة تحت عنوان « منشأ النفوذ البريطاني في بلاد ما بين النهرين » ، وكانت في اللغة الانكليزية على هيئة اطروحة لشهادة الدكتوراه ، بأشراف رئيس قسم التاريخ في جامعة كولمبيا ، الاستاذ كارلتون هيز (C.J.H. Hayes) فلما تسلم هذا المؤرخ المعروف نسخة من البحث مهداة اليه بعد تخرجي من الجامعة بزمن يسير ، كتب يقول : « وما أن أعدت قراءته وهو في وضعه الحاضر الكامل حتى ازددت يقينا بما له من صفة علمية دقيقة . فلك التهنئة الصميمة على قيامك بعمل من الطراز الاول في تاريخ العراق »[١] .

ومن ثم عادت تساورني فكرة التوسع في البحث والتقدم به من « منشأ » النفوذ البريطاني الى تطوره بعد ذلك حتى الحرب العالمية الاولى . ولكن تحقيق هذه الفكرة تأجل سنين عديدة ، كنت خلالها بعيدا عن أمهات المكتبات ودور السجلات . والى تلك السنين العديدة نلتفت قليلا

---

(١) "As I re-read it in its present finished state, I am more convinced than ever of its fine, scholarly quality. You are to be congratulated warmly on making a first rate contribution to the history of Iraq," letter dated 10 September, 1941.

لكي نضع بين يدي القارىء طرفا من (سيرة المؤلف) الى جانب سيرة الكتاب٠

فلقد اشتغلت معظم العقدين (١٩٤١ - ١٩٦١) اسـتاذا للتاريخ الحديث ورئيسا لقسم العلوم الاجتماعية في دار المعلمين العالية في بغداد ٠ ثم رئيسا لقسم التاريخ بعد انفصاله عن باقي العلوم الاجتماعية ٠ وبقيت كذلك حتى أصبحت دار المعلمين العالية تدعى بكلية التربية ، على اعتبارها واحدة من كليات جامعة بغداد المؤسسة حديثا ٠ فلما توحدت أقسام التاريخ فـي كليات الجامعة اختارني زملائي رئيسا للقسم الموحد (الذي أصبح يدعى بدائرة التاريخ) ٠ واخيرا قدمت استقالتي من رئاسة القسم في الكلية أولا ، ومن القسم الموحد في الجامعة ثانيا ، فقبلت الاولى في صيف ١٩٦٠ ، والثانية في صيف ١٩٦١ ، وبقيت بعدئذ استاذا للتاريخ الحديث ٠

وفي تلك الحقبة اسهمت في تأليف كتب التاريخ للمدارس الابتدائية ، والمتوسطة ، والثانوية ٠ وكتبت رسالة عن « فلسطين والتقرير الانجليزي - الامريكي لعام ١٩٤٦ » قصدت بها نقد التقرير والتعريف بالقضية الفلسطينية اجمالا ٠ وكتابا عن رحلتي الى الهند في منتصف القرن ، وما لاحظته من شؤون ٠ وبحثا وجيزا عن « اليونسكو وتدريس التاريخ » قامت مؤسسة اليونسكو بترجمته من العربية الى الفرنسية ٠ وكتابا تحت عنوان « مقدمة في دراسة العراق المعاصر » ما بين عام ١٩١٤ وتاريخ صدور الـكتاب فـي سنة ١٩٥٣ ٠ ورسالة في اللغة الانكليزية كتبتها دفاعا عن المؤرخ العلامة آرنولد توينبي في وجه حملة قلمية عنيفة شنّها عليه (تريفور - روبر) استاذ التاريخ الحديث في جامعة أوكسفورد[٢] ٠

---

(٢) فكانت الرسالة بعنوان : *Trevor-Roper's Critique of Arnold Toynbee a symptom of intellectual chaos* ٠ وكان الرد عليها بقلم الاستاذ تريفور - روبر في جريدة الصنداى تايمس اللندنية (قسم المجلة ، ص ١٦) بتاريخ ٢٠-٩-١٩٥٩ ٠ فلما اوضحت زيغ هذا الرد ، وارسلته الى الجريدة نفسها ، رفضت نشر التعقيب بحجة وروده اليها متأخرا بضعة اسابيع (بينما هى التى نشرت الرد على كتابي بعد صدوره باكثر من عام) ٠ ولكنني بعثت بنسخة من هذا التعقيب الى الاستاذ توينبي ليطلع على أواخر القضية كما اطلع على اوائلها ٠ وما كان ابلغ كلماته التى تسلمتها منه اولا واخيرا ٠

وكان صدور الكتاب الذي بين ايدينا (بهيئته الحاضرة) بعد تلك البداية بما يناهز الخمسة عشر عاما • فلقد استطعت التفرغ للبحث سنة كاملة في سبيل جمع المادة من المكتبات ودور السجلات الانكليزية أولا ، والامريكية ثانيا ، حيث قضيت سنة (١٩٥٤ - ١٩٥٥) زميل بحاثه (Research Associate) في جامعة كولمبيا بولاية نيويورك • ثم قمت بتنيسق المادة وكتابتها في اللغة الانكليزية بعد عودتي الى العراق ، حيث صدرت طبعة الكتاب الاولى سنة ١٩٥٧ ، وطبعته الثانية بعد ذلك بتسع سنين •

وهو اليوم يظهر لاول مرة (كاملا) في اللغة العربية ، بعد صدوره (مجملا) على هيئة محاضرات القيتها في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة سنة ١٩٦٦ ، تحت عنوان « مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني » • ولا ننسى بأن السياسة البريطانية كانت في ذلك المجمل ، كما في هذا المفصل ، هي محور الموضوع •

مراحل الموضوع :

١ - تبدأ الفصول التالية منذ بداية التوسع الاوربي في أرجاء العالم ، وذلك في أعقاب الاكتشافات الجغرافية ، وما نجم عنها خلال القرن السادس عشر من ثورة تجارية دفعت بطلاّب الثروة والنفوذ الى مشارق الارض ومغاربها • فانشأوا فيما وراء البحار مراكز تجارية ومستعمرات في ظل حكوماتهم التي أخذت ترعى هذه المكاسب النائية ، كما أخذت تعنى عناية خاصة بسلامة الطرق المؤدية لها •

فلقد حدث منذ حوالي سنة ١٥٨٠ أن حصلت الملكة اليزابيث على تعهد الباب العالي بحماية التجار البريطانيين ومعاملتهم بالحسنى في أثناء مرورهم أو اقامتهم في الاراضي العثمانية وعندئذ كانت بداية مرور التجار البريطانيين في العراق الى بلاد الهند •

وكان على أثر ذلك ان تغلب البريطانيون في حوض الخليج العربي

على البرتغاليين أولا ، وعلى الهولنديين ثانيا - والخليج العربي هو المنفذ الوحيد للعراق ، وهو بمثابة حجر الزاوية لنفوذ بريطانيا في بلاد الشرق الاوسط على وجه الاجمال • ثم حدث عند اضمحلال المنافسة البريطانية - الهولندية ان ترعرعت في أرجاء المحيط الهندي منافسة بريطانية - فرنسية أصبح معها مدخل الخليج العربي من أهم مراكز الصراع بين الدولتين • فتلك هي الحركات البريطانية الاولى التي تناولها الفصل الاول والثاني من هذا الكتاب •

٢ - على ان مصلحة بريطانيا في شؤون الامبراطورية العثمانية لم تبلغ حدا خطيرا حتى سنة **١٧٩٨** ، السنة التي أقدم فيها نابليون بونابرت على غزو مصر ، فكانت البداية لما ندعوه بالعصر النابوليوني في بلاد الشرق • ولقد كان لهذا العصر النابوليوني ابلغ الاثر في العلاقات البريطانية بالبلاد المترامية ما بين القسطنطينية وكلكتا ، حتى ان المدة ما بين سنة **١٧٩٨و١٨٠٩** أصبحت في الواقع هي المدة التي استقر خلالها نفوذ بريطانيا في الدولة العثمانية وفي دولة فارس وكذلك في أرجاء الهند • فكانت هذه الحوادث المذكورة في الفصل الثاني والثالث تمهيدا واسع النطاق لتأسيس نفوذ بريطانيا في العراق •

ثم تلت ذلك فترة دامت عشرين عاما (١٨١٠-١٨٣٠) تقوّي في أوائلها النفوذ البريطاني في بلاد فارس ، وتأسس في الخليج العربي • وحدث في أواخرها انتهاء دور المماليك في العراق ، وأمتداد سيطرة السلطان الفعلية الى هذه الربوع ، كما يشير الفصل الرابع الذي أصبح فيه النفوذ البريطاني على أبواب وادي الرافدين •

فكان خلال المدة (١٨٣٠ - ١٨٦٠) أن تأسس نفوذ بريطانيا في العراق ، نظرا لما قام به البريطانيون هاهنا من أعمال خطيرة كانت بالدرجة الاولى مدفوعة بعامل التخوّف من امتداد نفوذ روسيا الى هذه الربوع ومنها الى الخليج العربي • وهذا هو موضوع الفصل الخامس الذي كانت سنة **١٨٧٨** حدا لنهايته ، نظرا للسبب المشار اليه في خاتمة الفصل •

٣ - ولقد اخذت المصالح البريطانية في العراق تنمو وتتفرع خلال المدة (١٨٧٨ - ١٩١٤) • فالمصلحة الستراتيجية ظلت تحتل المنزلة الاولى في نظر البريطانيين ، الى جانب علاقات فكرية « رومانسية » ، ومصالح اقتصادية متوقعة وأخرى واقعية • وهذا ما احاط به الفصل السادس الذي جاء مفسرا لارتياب البريطانيين واستيائهم من نشأة المصالح الالمانية الى جانب مصالحهم النامية في الدولة العثمانية •

غير ان المصالح الالمانية في الدولة العثمانية لم تتبين خطورتها ، على الرغم من بوادرها المبكرة ، الا منذ قيام القيصر وليم الثاني بزيارته الشهيرة للسلطان عبدالحميد سنة ١٨٩٨ • فمنذ هذا الحين أخذت نزعة الالمان التوسعية تتضح وتشتد حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى • وعلى هذا فقد حفلت المدة (١٨٩٨ - ١٩١٤) بأعمال المانية وأخرى بريطانية ، يدعم بها كل جانب مسعاه ، مثيراً بذلك حفيظة الجانب الآخر • وهذا ما تناوله الفصل السابع بالايضاح ، موجها في ذلك كله انتباها خاصا لما تعلق منه بالعراق •

وفي نطاق تلك المصالح الالمانية - البريطانية المتعارضة بلغت المنافسة بين الطرفين ذروتها خلال المدة (١٩٠٣ - ١٩١٤) فكان ذلك نتيجة لما حدث من اتصالات ودية بين المانيا وتركيا ، وحصول المانيا على امتياز سكة حديد بغداد ، وقيامها بتنفيذ الامتياز ، وشعور بريطانيا منذ عام ١٩٠٣ بالخطر على مصالحها الحيوية من جراء ذلك • وهذه هي الحوادث الاخيرة التي تناولها الفصل الثامن بما لها من علاقة وثيقة بالعراق ، وما صحبها من مراوغات دبلوماسية ، وانحدار الى أتون الحرب العالمية الاولى •

٤ - فاذا مالاحظ القارىء بأن قسما كبيرا من البحث متعلق بشؤون هندية ، وباخرى عثمانية ، فان السبب في ذلك يعود الى أن العراق كان طوال تلك الاجيال جزء من الامبراطورية العثمانية ، كما وان الهند كانت ذات أثر بليغ في تعلق بريطانيا بربوع هذا الوادي •

واذا ما كان نصيب بلاد فارس ، والخليج العربي ، كبيرا في القصة

التي بين ايدينا فذلك لانهما (بالاضافة الى العراق) كانا يؤلفان منطقة نفوذ واحدة ظلت تعتبر كذلك حتى الحرب العالمية الاولى • فلم يكن هنالك بد من استقصاء منشأ النفوذ البريطاني في أرجاء الشرق الاوسط اجمالا ، كما تناولته فصول (الباب الاول) ، تمهيدا لنشأة ذلك النفوذ واستقراره بعدئذ في العراق •

ثم بعد ان تركز الموضوع في العراق نفسه ، ظهرت للقصة نواحي أخرى لا تقل عن سابقاتها سعة وتعقيدا • فظهرت المنافسة البريطانية ـ الروسية ، ثم تلتها المنافسة البريطانية ـ الالمانية بما فيها من نزعات فكرية ، ومصالح اقتصادية واستراتيجية ، وما نجم عن ذلك كله من مشاكل دولية واسعة النطاق • وفي هذا الدور الاخير اتضحت خطورة موقع العراق في المواصلات النهرية والبرية ، كما يبدو في (الباب الثاني) الذي بدأت فصوله باستعمال البواخر في مياه الرافدين وانتهت بمشروع سكة حديد بغداد •

٢ ـ مغزى الكتاب

المغزى الاستعماري :

يشغل الاستعمار الغربي أوسع ناحية وأخطرها في تاريخ العصور الحديثة ، فلا نكاد نجد شعبا من شعوب المعمورة لم يتأثر به سلبا أو ايجابا خلال هذه العصور • ولقد تعددت قصص الاستعمار بتعدد الدول المستعمرة ، فكان نصيب بريطانيا في هذا الميدان أكثر تنوعا وشمولا من غيره ، حتى ليكاد يعطي بمفرده صورة كاملة عن طبيعة الاستعمار الحديث • غير انه قد يتعذر على المرء أن يلم الماما دقيقا بما لبريطانيا في هذا المضمار ، وهي التي مارست الاستعمار زمنا طويلا كما وان الشمس لم تكن لتغرب عن مستعمراتها ومناطق نفوذها •

ولكنه في الاستطاعة ادراك حقيقة الموضوع عن طريق استيعاب مثل نموذجي من أمثلته • وانه لمثل نموذجي هذا الذي يخص العراق • فهاهنا نجد صورة واضحة لطبيعة العلاقات وتطورها بين الدول القوية من جهة

والشعوب المستضعفة من جهة أخرى ، وما نجم عن ذلك بين الدول القويه من منافسات في شتى أدوار التاريخ الحديث ٠

كما وانه لدينا في هذا الموضوع النموذجي معالم واضحة من معالم الاستعمار البريطاني ٠ فهنا تظهر بعض الشركات المهمة ، والمغامرين من « بناة الامبراطورية » وما شملهم من رعاية حكومية ، وما صحب ذلك أحيانا من تقدم اعتباطي ''muddling through'' عرفت به الاساليب البريطانية[٣] ٠ وما الى ذلك من مصالح بدائية طارئة أصبحت بمرور الزمن تعتبر مصالح حيوية ٠ ومن معاهدات يتمثل فيها استغلال القوي للضعيف ٠ كما ويتضح الى جانب ذلك مظهر من اخطر مظاهر الاستعمار ، متمثلا في منافسات دولية متسلسلة ربطت ما بين القرن السادس عشر واوائل القرن العشرين ٠

أما بالنسبة للعراق خاصة ، والشرق الاوسط عامة ، فان الموضوع رغم تقادم عهده ، لايزال ذا مغزى معاصر خطير ٠ والى مثل هذا المعنى اشارت جريدة التايمس اللندنية بتاريخ ١٩ كانون الثاني يناير سنة ١٩٤٩ ، تعليقا على تصريح مهم لوزير خارجية بريطانيا المستر بفن ٠ فذكرت الجريدة في ذلك التعليق « ان المصالح البريطانية في الشرق الاوسط لم تتبدل طوال المئتي سنة الماضية ، وانها لثابتة الآن ثبوتها على زمن نابوليون ٠ وهي اليوم أيضا تمثّل الى حد بعيد مصالح العالم الغربي برمته ٠ فالشرق الاوسط جسر يربط آسيا بأفريقيا ، وطريق يصل ما بين البحر المتوسط والمحيط الهندي ٠ وحتى انه لولم يظهر النفط في ربوع ايران والبلاد العربية ، لظل الشرق الاوسط ذا أهمية ممتازة ٠ فلقد اسبغ النفط عليه أهمية جديدة ذات خطر ، ولكن الارجحية لا تزال لمكانته الجغرافية » ٠

وذلك ما اتضح أخيرا في المعاهدات البريطانية - العراقية التي برزت من بينها معاهدة ١٩٣٠ واستمرت زهاء ربع قرن ، حتى كان استبدالها سنة

---

(٣) لاحظ مثلا الاسلوب الاعتباطي فى قيام شركة بيت اللنج بالملاحة في نهر دجلة : ادناه ، القسم الثالث من الفصل الخامس ٠

١٩٥٥ باتفاقية ثنائية خاصة (Cmd 9429) ضمنت لبريطانيا مصالحها المعهودة منذ اجيال • واتضح ذلك فيما كان يعرف بحلف بغداد لعام ١٩٥٥ ، وفيما حدث في السنة التالية على أثر تأميم قناة السويس من تصادم دولي مسلح ، وما أوشك أن يحدث على هذا الغرار من جراء ثورة العراق سنة ١٩٥٨ • وما كان للموقع الجغرافي في ذلك كله من أثر بليغ •

ولم تزل للقصة التي بين ايدينا أهمية خاصة بالنسبة لفهم استراتيجية الغرب في الشرق الاوسط اجمالا ، كما يبدو على سبيل المقارنة بين ما نجده عندنا (في الفصل الخامس مثلا) وما تقول به اليوم (أوراق أدلفي) الصادرة عن معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن ، برقم ٢٦ وتاريخ آذار ـ مارس ١٩٦٦[٤] •

المغزى الدولي :

لقد وردت في غضون الكتاب اشارة الى ان المعاهدة التي انعقدت سنة ١٨٠١ بين بريطانيا ودولة فارس كانت من أقدم الامثلة على تحول الدبلوماسية الحديثة الى (فن) معقّد ، مستند الى القواعد التالية : الحصول على أكثر ما يمكن ، والتنازل عن أقل ما يمكن ، تحت ستار الصداقة أو غير ذلك[٥] •فهذه هي قواعد الانانية المطلقة في العلاقات الدولية • فاذا ما تهذبت الانانية في شؤون الامم الداخلية فانها على العكس من ذلك في الميدان الدولي ، حيث أخذت تشتد وتترعرع في عالمنا الحديث ، مستخدمة في سبيل غاياتها شتى الحيل والاسباب ومستندة الى رصيد متعاظم من وسائل الفتك والدمار •

وعلى هذا الاساس جرى التعامل الدولي تحت ستار كثيف من التقاليد

---

(٤) راجع التعقيب على هذه الوثيقة في ملحق الاهرام الاسبوعى بتاريخ ١٧ـ٦ـ١٩٦٦ •

(٥) ادناه ، القسم الاول من الفصل الثالث ، تحت عنوان خسارة بريطانيا لثقة الفرس •

الدبلوماسية وفيض من الدراسات المنافية للنظرة الانسانية • ولقد أطلق الغرب صفة الخير على موقفه من الشعوب المستضعفة ، واعتبر نفسه مسؤولا عن قيادتها وتمدينها على النحو الذي يراه • وكانت بريطانيا المثال المحتذى به في هذا الميدان ، وأصبحت عبارة شاعرها كبلنك (Kipling) عن « عبء الرجل الابيض » مضرب الامثال • والى تبرير تلك النزعة في الميدان الدولي اجمالا قصد الاميرفون بيلو (von Bülow) حيث قال : « انه لمن السخف تلخيص السياسة البريطانية بما تلوكه الالسن من عبارة (بريطانيا الغادرة) • فليس هذا الغدر المزعوم في الواقع سوى أنانية صحيحة ومعقولة • وهي الى جانب غيرها من صفات الشعب الانكليزي العظيمة ، جديرة بأن تحتذى بها الشعوب الاخرى »(٦) • نعم ، لقد احتذت بها شعوب أخرى ، فكان حصادها حربين عالميتين ، والتهديد بثالثة لا تبقي ولا تذر •

فالقوة الضاربة أصبحت هي المقياس الرسمي للمكانة الدولية ، وعليها وحدها يعتمد مفهوم « الدولة العظمى » • وعلى هذا الاساس احتلت اليابان مثلا هذه المنزلة يوما ما • فلقد اذهلت العالم (كما يقول ونستون شرشل) بانتصارها الحربي على روسيا عام ١٩٠٥ « وعندئذ احتلت مكانها بين الدول العظمى » • غير ان اليابانيين التفتوا بهذه المناسبة الى نظرائهم في بلاد الغرب وقالوا لهم بشيء من التأنيب : « لقد ضحكتم علينا واحتقرتمونا عندما كنا نبعث اليكم بانتاجنا الجميل في ميدان الثقافة والفن القديم • فلما أصبح لدينا اسطول وجيش من الطراز الاول مزودين باسلحة جيدة اصبحنا نعتبر شعبا متقدما في مضمار المدنية »(٧) •

لقد عرفت الانانية والركون الى القوة في التعامل بين الامم والشعوب منذ قديم الزمان ، حتى اذا ما أصبحت السيطرة العالمية في يد الغرب ارتفع شأن هذا المظهر البدائي الى أقصى ما يستطيع ان يرفعه اليه العقل البشري•

---

(٦) Bülow, Prince Bernhard von, *Imperial Germany* (1914): English version by Marie Lewenz (New York, 1915), p. 27.

(٧) Churchill, Winston, *The Second World War: The Grand Alliance* (Boston, 1951), p. 580.

فكان طبيعيا ان يتحدى العالم تلك السيطرة الغربية ، وأن يبلغ سباق التسلح حدا لا يكاد يدركه الخيال ، ولا سيما بين الولايات المتحـدة الامريكية والاتحاد السوفيتي « زعيم المقاومة العالمية تجاه عدوان الغرب في ارجـاء العالم »[٨] . وبهذا الاعتبار فان الغرب ، على مايبدو ، عرض للخطر الماحق جميع ما قدمه للبشرية من خدمات جلّى في شتى الميادين .

فذلك هو المغزى الذي يتضح للمتأمل في مختلف القضايا الدولية والاستعمارية ، ومن بينها القضايا المتسلسلة في هذا الكتاب .

٣ ـ منزلة الكتاب

في التاريخ الدبلوماسى :

والكتاب يقع بطبيعة الحال ضمن ما يعرف بالتاريخ الدولي ، أو التاريخ الدبلوماسي ، حيث التأكيد في هذا الاصطلاح على كلمة (التاريخ). فلقد جرى التفريق في الدراسـات الاختصاصية بين موضوع العلاقات الدولية من جهة ، وبين تاريخها من جهة أخرى . فالواحد من الموضوعين يعالج قضايا أصبحت في عداد الماضي ، بينما يتناول الثاني قضايا لا تزال معلقة المصير . هذا مع العلم بأن الصلة وثيقة بين السياسة الدولية وتأريخها ، كما هي الصلة بين المقدمات والنتائج أو بين الاصول والفروع .

وعلى سبيل المثال نذكر ما كتبته في حينه تحت عنوان (فلسطين والتقرير الانجليزي ـ الامريكي لعام ١٩٤٦) ، فكان ذلك في السياسة الدولية وملابساتها الآنية ، غير انه أصبح في عداد (التاريخ) بعد انتقال قضيتنا الفلسطينية الى مراحلها الاخرى .

ولقد أعارت بعض الامم عناية كبيرة الى ما يدعى بالتاريخ الدولي ،

---

(٨) راجع الايضاح في كتاب آرنولد توينبي ، دراسه في التاريخ ، المجلد الثانى عشر ، ص ٥٣٧ :
Arnold J. Toynbee, *A Study of History* (O.U.P., 1964), Vol. XII, p. 537.

أو الاممي International history • ففي لندن مثلا يوجد المعهد الملكي للابحاث الدولية المعروف عالميا في هذا الميدان • وكذلك في جامعة لندن حيث ترعرع القسم الخاص بالتاريخ الدولي تحت اشراف مالا يقل عن العشرة من أعضاء هيئته التدريسية • وعلى هذا الغرار نجد النزعة العلمية في كل من الاتحاد السوفيتي وجيكوسلوفاكيا مثلا ، أو الولايات المتحدة الامريكية والهند •

ولعل الهند في مقدمة الدول الشرقية اهتماما بالموضوع ، حيث افتتح نائب رئيس الدولة حينذاك الدكتور رادا كرشنان (معهد الدراسات الدولية) سنة ١٩٥٥ في نيودلهي ، فتوجهت العناية فيه الى نواحي (التاريخ) الدبلوماسي كما توجهت الى نواحي الدبلوماسية الآنية • وفي البلاد العربية سبقت الجمهورية العربية المتحدة غيرها منذ قرار وزير خارجيتها سنة ١٩٦٥ انشاء معهد للدراسات الدبلوماسية الذي نأمل ان يفيد من تجارب أمثاله من المعاهد المتقدمة في هذا المضمار[٩] •

ولا ننسى أن تاريخ توسع الدول الكبرى (وهو المعروف بالاستعمار ، والامبريالية) يقع موقع الاساس في التاريخ الدولي • « فالامبريالية كانت هي الجوهر ، والدبلوماسية هي العرض » على حدّ قول باركر مون في مقدمة كتابه الممتاز عن الامبريالية والسياسة العالمية[١٠] • ولا أدل على ذلك بالنسبة لبلادنا العربية والاسلامية من الجزء الاول (الصادر سنة ١٩٢٧) في سلسلة المعهد الملكي للابحاث الدولية ، تحت عنوان « البلاد الاسلامية منذ

---

(٩) وفيما يلي عنوان المعهد الهندى : *Indian School of International Studies*, Sapru House-Barakhamba Road, New Delhi 1, India.

أما بالنسبة للمعهد العربى ، فقد ورد الخبر فى جريدة الاهرام بتاريخ ١٦-٢-١٩٦٥ تحت عنوان : « وزير الخارجية يقرر انشاء معهد للدراسات الدبلوماسية » •

(١٠) "Imperialism was the reality, diplomacy its superficial expression," according to Parker T. Moon's *Imperialism and World Politics* (The Macmillan Co., New York, 1936 and other reprints), Preface, P. VIII.

تسوية السلم » في نهاية الحرب العالمية الاولى ، بقلم رئيس المعهد آنذاك الاستاذ آرنولد توينبي[11] • ومن ثم كان بحثنا الحاضر (كما ورد في عنوانه) : دراسة في التاريخ الدولي ـ الدبلوماسي ـ المنطوي على الامبريالية والاستعمار •

ولقد ارتأى بعض مفكرينا ضرورة تدريس موضوع الاستعمار ، كما ذكر مثلا الاستاذ عجاج نويهض في جريدة الزمان (البغدادية) بتاريخ ١٩٦٢/٦/٢ مختتما بقوله : « ويجب تدريس الاستعمار علما مستقلا ، أو فرعا من علم مستقل ، وله امتحاناته وعلاماته ، واسئلته واجوبته وقضاياه ، ومسائله وحواره ومناقشته واسبابه ، ومحله من المناهج والبرامج » •

غير ان مثل هذا المنحى يقتضي ان تعنى به معاهدنا العليا (باساتذتها ، وطلابها في أقسام الماجستير والدكتوراه) عناية جدية ، على غرار المعاهد التي اشرنا الى بعضها الآن • وذلك لكي تتوفر لدينا المادة العلمية اللازمة للافادة منها في اعداد المناهج والبحوث العامة حسب مقتضى الحال •

ومهما كانت هنالك من تعاريف لموضوع التاريخ الدولي ، فانه يشمل في نظرنا ما يعنيه واقع الحال : من العناية بماضي العلاقات بين الدول ، أو بين الدول والشعوب التي تعوزها مقومات الدولة ، سواء أكانت تلك العلاقات ثنائية أم متعددة الاطراف •

ولا يفوتنا الانتباه الى ثلاث قضايا قد تكون متباينة علميا ، الا أنها مهمة عمليا حسب طبيعة كل منها : وهي الدعاية ، والدبلوماسية ، والتاريخ بمعناه الصحيح • فالعلم الصحيح يعني غير الدعاية التي قد تفيد منه وتستند اليه أحيانا • ويعنى غير الدبلوماسية التي قد تفيد منه أو تستند اليه • ولكل

---

(١١) Toynbee, Arnold J., Survey of International Affairs (1925): Volume I *The Islamic World Since the Peace Settlement* (London, 1927).
ويجدر بنا ان نعلم بان معظم هذا الكتاب (البالغ ٦١١ صفحة من القطع الكبير) متعلق بشؤون البلاد العربية اجمالا • أما باقى ارجاء العالم فى تلك الفترة (١٩٢٥) فقد تناوله الجزء الاول ايضا : أى ان الجزء الاول صدر بمجلدين ، استحق العالم الاسلامى (ودعامته البلاد العربية) واحدا منهما لكي يستوعب أهم قضاياه •

من هذه الاطراف الثلاثة قدره واسلوبه وضروراته • غير ان التاريخ يجب أن يرتفع الى منزلة (قل الحق ولو على نفسك) ليكون حريا للاهتداء بهديه ، وأهلاً لاحرازه مكانة عالمية •

ولابد لانتاجنا الفكري الحديث ، فى مستوياته الراقية ، من أن يرتفع الى مثل هذه المكانة • ولعل شيئا من هذا قصدته اللجنة الثقافية الدائمة في جامعة الدول العربية فيما ارادته من « تشجيع البحث العلمي في المستويات العربية المحلية حتى تساير المستويات العالمية » كما ذكرت الاهرام بتاريخ ١٦/٣/١٩٦٥ •

بعض الآراء :

غير ان تشجيع البحث العلمي لا يقتصر على التقدير المادي (لو أنه حصل) وانما يتعدى ذلك الى ما يبدو من تقدير معنوي في آراء بعض المفكرين • ولدينا شيىء من هذا القبيل فيما نذكره الآن تعريبا (وننقله على الهامش بلغة اصحابه) نظرا لعلاقته بطبيعة الكتاب •

فلدينا رسالة المؤرخ المعروف كارلتون هيز ، التي اشار فيها الى البحث بقوله : « انه اضافة حقيقية ومهمة للعلم »[١٢] • ورسالة الاستاذ البرت حوراني ، رئيس قسم دراسات الشرق الادنى والاوسط في جامعة اوكسفورد ، حيث أشار الى منزلة البحث الفذة في تاريخ العراق الحديث[١٣] •

وكانت الناحية الانسانية هي التى جلبت انتباه المؤرخ العلامة آرنولد توينبي ، حيث قال « ان الانطباع الذى تركه الكتاب في نفسي هو ان العراق لم يكن خلال تلك القرون الثلاثة في وضع مريح أو طبيعي • فلقد كان

---

(١٢) "It is a real and important contribution to scholarship, and to a proper understanding of your country," letter dated May 18th, 1957.

(١٣) "May I congratulate you on a piece of scholarly research well done and well expounded? There is so little on this subject, for all its importance, and your book will certainly meet the need of all students of modern Iraq," letter dated July 3, 1957.

موضع منافسات بين دول نائية دون أن يكون له من الامر شيء يذكر • وهذه هي الحال التي كانت عليها معظم ارجاء العالم آنذاك • وانني لأستطيع النفاذ الى شعور الذين يريدون الانطلاق من كل ذلك »[١٤] •

وفي الحولية الشهيرة التي تصدر في المانيا الغربية تحت عنوان : الحولية العالمية لدراسة التاريخ ، كتب الدكتور فريتز شتپات في المجلد السابع (سنة ١٩٥٩ - ١٩٦٠) تعقيبا مسهبا ورد فيه ما معناه : ان ما اتصف به الكتاب من حياد علمي ودقة في البحث جعلته بعيد الاثر فيما ذهب اليه[١٥] • وعلى هذا الغرار (ولو انها ليست من مؤرخ) كانت ملاحظة المستر كنجزلي مارتن ، المحرر الاقدم لمجلة نيوستيتسمان البريطانية • فقد اعتبر البحث معالجة كاملة لموضوع معقد جدا ، كما اعتبره مرجعا لمعرفة تاريخ الامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط[١٦] •

ومن أهم الرسائل في هذا الصدد واحدة من الاستاذ و•ن• مدليكوت، استاذ التاريخ الدولي في جامعة لندن (وخليفة آرنولد توينبي في هذا المنصب العلمي) • فلقد توثقت الصلة العلمية بيننا بعد رسالته المؤرخة في

---

(١٤) "The impression left on me by the book is that it was pretty unpleasant and unnatural for Iraq to be as she was for those three centuries a more or less passive object of rivalry between distant powers. This was the situation of the greater part of the world in that age. I can enter into the feelings of people who want to cut clear of all that," letter dated 21 February 1957.

(١٥) "Aber vor allem verdient das Geschichtsbild des Verfasser Aufmerksamkeit. An seiner sachlichkeit, seinem — weitgehend erfolgreichen — Bemühen, die Hintergründe zu verstehen, ist klar zu erkennen, dass ihm nichts daran liegt, als oriantalischer Nationalist eine Attacke gegen den abendländischen Imperialismus zu reiten. Um so stärker wirken die Schluss-folgerungen, zu denen er gelangt." Vide: *Internationales Jahrbuch für Geschichts Unterricht,* Band VII, p. 388.

(١٦) "I particularly admired the thorough treatment of a most complex subject in your book on Mesopotamia and I shall treasure it on my book shelves as a reliable reference book whenever I wish to know any of the details of British imperialist intervention in the Middle East," letter dated 12/3/62.

١٩٥٨/٤/٢ ، والتي أشار فيها الى ان الكتاب بحث علمي في موضوع كبير(١٧) . فلما ظهرت طبعة الكتاب الثانية سنة ١٩٦٦ ، ظهرت معززة بالمقدمة الرصينة التي كتبها هو فأجمل رأيه في ختامها حيث قال :

« ان البحث اسهام مرموق في التاريخ الدبلوماسي ، وانه دراسة في سياسة بريطانيا الخارجية ، وليس هو تاريخ لبلاد ما بين النهرين . وان سعة اطلاع المؤلف وضبطه الممتاز لشتى أنواع المصادر ، الى جانب ما تحلى به من قوة المحاكمة طيلة البحث ، جعلت الكتاب رائدا ممتازا في موضوع مهم . فاذا ما احتوت نتائجه بعض المآخذ على السياسة البريطانية فان تلك النتائج ليست غير عادلة . وانها على وجه التأكيد لم تصدر عن غرض . وفي الكتاب مادة غزيرة للمناقشة والمناظرة العلمية ، يؤمل منها ان تدفع بالمؤرخين البريطانيين والعراقيين الى الاستمرار في الدراسة . فالى الطبعة الثانية من هذا الكتاب الممتع والمهم نقدم وافر الترحيب »(١٨) .

---

(١٧) "It is a scholarly and thorough study of a big subject," letter dated 2 April 1958.

(١٨) Dr. Saleh "has made a notable contribution to diplomatic history. His book is a study of British foreign policy and not a history of Mesopotamia, and the wide range and excellent grasp of diversified source material, together with the sturdy good sense of his judgments throughout, made this an excellent pioneer study in a not unimportant field. If his conclusions are critical of British policy at some points they are not unfair, certainly not in intention, and there is much material in it for discussion and scholarly debate which it is hoped will lead to further studies from both British and Iraqi historians. In the meantime a second edition of this interesting and important book is very welcome".

ولكن هذه هى الطبعة العربية الاولى. وهذه هى مقدمتها المسهبة التي آن لنا الخروج منها الى رحاب القصة وتسلسل الاخبار . فالتاريخ قصّة تجمع بين العلم والأدب ، ولكل امرىء ان يستمتع بها أدبا ، وان يفيد منها علما ، والله ولي التوفيق .

الباب الأول

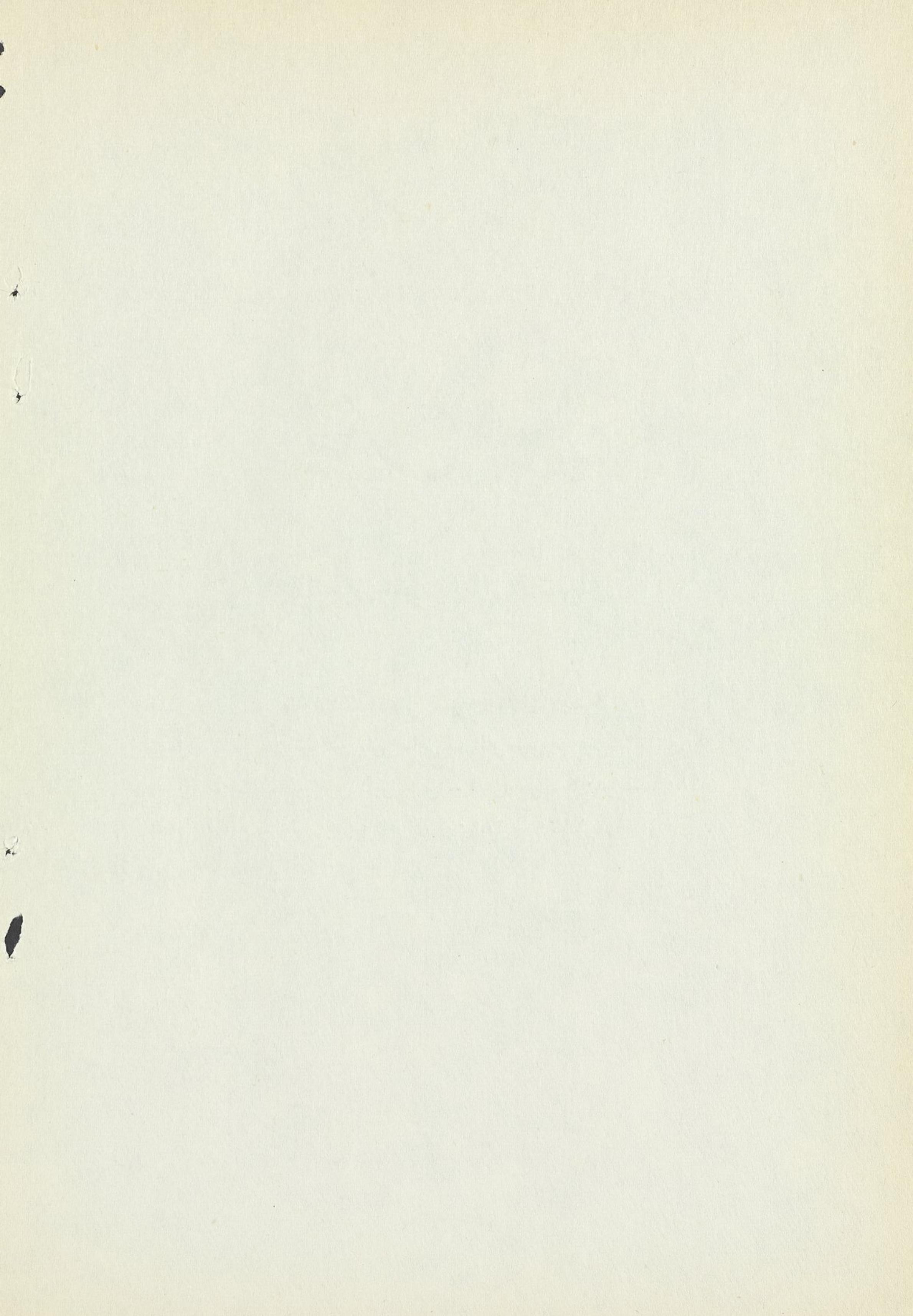
السبل المؤدية الى العـراق

الفصل الاول ـ ظهور الانكليز على مسرح الشرق الاوسط

الفصل الثانى ـ التنافس البريطانى ـ الفرنسى ، حتى عام ١٨٠٢

الفصل الثالث ـ التنافس البريطانى ـ الفرنسى (١٨٠٢ ـ ١٨٠٩)

الفصل الرابع ـ على ابواب العراق (١٨١٠ ـ ١٨٣٠)



الفصل الأول

ظهور الانكليز على مسرح الشرق الاوسط

لقد كان التجار الانكليز منذ بداية اتصالهم ببلاد الشرق يمرون بالامبراطورية العثمانية ، فكان لابد لهم من نيل عهود عثمانية تضمن لهم الحماية والمعاملة الحسنة • وهم عندما اخذوا باستعمال الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح ، اتصلوا بموانىء الخليج العربي واستطاعوا بمرور الزمن انشاء مراكز لهم هناك • وعلى هذا كانت القسطنطينية من جهة ، والخليج العربى من جهة أخرى أقدم مركزين أمتد منهما النفوذ البريطاني في وادي الرافدين •

١ ـ منشأ الامتيازات البريطانية في الدولة العثمانية

طلائع الانكليز

لقد كان انطوني جنكنسون (Anthony Jenkinson) على ما يظهر أول تاجر انكليزي وطأت قدمه الاراضي العثمانية في العصور الحديثة • فهو عندما كان في حلب سنة ١٥٥٣ حصل على اذن من السلطان سليمان القانوني بالتجارة في تركيا على قدم المساواة مع التجار الفرنسيين والبندقيين ، فلم يكن ليدفع أكثر من الرسوم المعتادة[1] • غير ان هذا الحادث الاول في بابه لم يفتتح لانكلترة عهدا تجاريا مهما « على الرغم من الامتيازات الواسعة التي

---

(1) Epstein, M., *The Early History of the Levant Company* (London, 1908), 7-8;

وللاطلاع على معلومات قيمة واسعة راجع كتاب وليم فوستر Sir William Foster, *England's Quest for Eastern Trade* (London, 1933).

منحها العاهل الكبير للمستر انطوني جنكنسون سنة ١٥٥٣ »[٢] .

ولم يحدث ما نستطيع اعتباره فاتحة العلاقات التجارية الانكليزية بتركيا الى ما بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما . ذلك ان السر أدوارد أوزبورن (Sir Edward Osborne) وزميله ريتشارد ستابر (Richard Staper) وهمـــا مديرا الشركة التـي اصبحت تدعـى بشـركة الشـرق الادنى (Levant Company) ، بعثا رســولين الى القسطنطينية سنة ١٥٧٥ ليمهدا السبيل للشخص المدعو وليم هاربورن (عامل السر ادوارد أوزبورن) . فلما انجز الرسولان المهمة توجه هاربورن الى القسطنطينية خفية عن طريق البر ، فوصلها في شهر تشرين الثاني سنة ١٥٧٨[٣] .

وللبعثة هذه أهمية تأريخية كبيرة لانها وضعت الحجر الاساسي للتجارة البريطانية في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية ، بما فيها ربوع دجلة والفرات . فلقد استطاع هاربورن ان يحصل من السلطان مراد الثالث على كتاب موجه الى الملكة اليزابث بتاريخ ١٥ آذار سنة ١٥٧٩ ، ورد فيه أن البلاد العثمانية ستبقى « دائما » مفتوحة للتجار الانكليز . « ونحن » كما ورد في ذلك الكتاب « سوف لا نتقاعس عن تقديم المساعدة والمعونة لأي فرد منهم يبتغي تقدير صداقتنا واحساننا ، ومساعدتنا . لا بل وسنعتبر ارضاهم جزءا من واجبنا »[٤] .

غير ان ذلك الكتاب السلطاني ، على الرغم من رقة اسلوبه وجزيل

---

(2) Hakluyt, Richard, *The principal Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation* (Glasgow, 1903), V, 168; Lardner, Dionysius (ed.), *The History of Maritime and Inland Discovery* (London, 1830), II, 187-190; Birdwood, Sir G. C. M., *Report on miscellaneous old records at the India office* (London, 1890), 195.

(3) Miles, S.B., *The Countries and Tribes of the Persian Gulf.* (London, 1919), I, 205.

خفية السفر كانت خوفا من ان يعلم البندقيون بالامر فيعملوا لدى السلطان على احباط المشروع الانكليزى في الوقت الملائم . راجع Epstein ٩ الحاشية .

(4) Hakluyt, *op. cit.*, V. 170:

نص الرسالة في الكتاب نفسه ، ١٦٩ ـ ١٧١ .

عهوده ، لم يكن كافيا في نظر الحكومة الانكليزية • فالكتاب لم يأت عن طريق رسمي ، ولم يكن مقيدا بموضوع ، هذا فضلا عن اطلاقه المعنى وجزافه في التعبير • فالسلطان مثلا لم يشأ ان تمر تلك الفرصة دون ان يشعر الملكة بما هو عليه من عظيم الشهامة والانسانية • فلما كانت بلاده على حد تعبيره مفتوحة لجميع التجار « الاعداء والاصدقاء » فان رغبته كانت أكيدة في ان يصبح صديقا ومساعدا لرعايا الملكة التي « حفلت جلالتهـا الملـكية العظمى بالتمنيات الحسنة ، والرأفة ، وشتى أنواع المحبة » تجاهه •

الامتيازات الاولى

ولئن لم يكن ذلك الكتاب الطريف مقنعا في نظر الملكة المحنكة ، فانه كان كافيا في ان يثير في نفسها رغبة في الحصول على وثيقة تكون اوفى بالغرض تخصيصا وشمولا • فارسلت بهذا المعنى كتابا الى السلطان ، كان من جملة ما ورد فيه انها تمنح التجار العثمانيين بالمقابلة امتيازات مماثلة داخل بلادها[٥] • وما أن تسلم السلطان الرسالة حتى اصدر سنة ١٥٨٠ براءة تضمن للتجار الانكليز امتيازات واسعة النطاق • فكانت هذه أقدم وثيقة رسمية بين الدولتين ، وكانت الفقرة التالية من ابرز ما ورد فيها على لسان السلطان :

> وعلى هذا فاننا نمنح جميع أفراد شعبها وتجارها حرية المجيء الى امبراطوريتنا بأمن وسلام ، مع كل ما لديهم من متجر وبضاعة دون أي تعرض ، وحرية السير في سبلهم التجارية ، واتباع تقاليدهم الخاصة ، والبيع والشراء على نمط ماهو متعارف في بلادهم[٦] •

غير انه لم يكد يتم منح البراءة الانكليزية حتى أخذ سفير فرنسا ،

---

(٥) نص الرسالة في كتاب Hakluyt المذكور آنفا ، ١٧٥ ـ ١٧٨ •

(6) Hakluyt, *op. cit.*, V, 185.

ونص البراءة في الكتاب نفسه ، ١٨٣ ـ ١٨٩ • راجع ايضا :
Epstein, *op. cit.*, app. VIII, No. I.

المسيو دى جرميني (M. de Germigny) يعمل على نقضها لدى السلطان.
فكان للسفير ما أراد واصبحت الوثيقة في عداد المهملات ، ولكن الى أمد قصير[٧] . فالنجاح الذي احرزه المسيو دي جرميني لم يثن من عزم هاربورن على اثبات الامتيازات الانكليزية ، وهو في سبيل المساعدة بهذا الشأن سافر الى لندن مرتين . وفي زيارته الثانية عينته الملكة اليزابث سفيرا الى القسطنطينية ، ومنحته سلطة على جميع من هم في الدولة العثمانية من التجار الانكليز . ومنحته فضلا عن ذلك صلاحية تعيين القناصل واصدار الانظمة لادارة شؤون الرعايا الانكليز في البلاد العثمانية[٨] .

فلما رجع هاربورن الى تركيا رجع بصفة دبلوماسية ، بيده توصيات ، وهدايا الى السلطان . وما أن وصل القسطنطينية حتى قدم الهدايا مع أوراق الاعتماد ، وسرعان ما عادت البراءة الى ما أراده لها من الاعتراف والتقدير. وهكذا أصبحت البعثة التجارية دبلوماسية أيضا . وأصبح هاربورن سفيرا الى جانب كونه عاملا للشركة التي كان يتقاضى رواتبه منها . فشركة الشرق الادنى هى التى كانت ترشح سفراء بريطانيا الى القسطنطينية حتى عام ١٨٠٣ ، وهي التي كانت تدفع لهم رواتبهم الى ذلك الحين[٩] .

وعلى هذه الشاكلة كان منشأ الامتيازات البريطانية في الدولة العثمانية، هذه الامتيازات التي لم تدرس بعد على ما يظهر دراسة تامة[١٠] . ونحن

---

(7) Epstein, *op. cit.*, 11-12.

(٨) نص الوثيقة الخاصة بهذا التعيين موجود في كتاب Hakluyt الجزء الخامس ، ٢٢٢ ـ ٢٢٤ .

(9) Miller, William, The Ottoman Empire and its successors, 1801-1922 (London, 1936), 13; Epstein op. cit., 74.

(١٠) « ان أول سفير لبريطانيا في تركية هو ادوارد برتون (Edward Burton) الذى ارسل الى القسطنطينية سنة ١٥٩٣ (راجع : Hammer, J. de, Histoire de L'Empire Ottoman, XVII. 134 غير ان السير ادوين بيرز يشير الى ان وليم هاربورن كان اول سفير لانكلترة عند السلطان ، وكان وصوله القسطنطينية سنة ١٥٨٣ (راجع : (Pears, Turkey and its Peoples, 338). » هذا هو كل ما نجده مذكورا في اطروحة للدكتوراه عن « عهد الامتيازات في تركية : تأريخه =

اذا ما تطرقنا الى شيء من هذه الاصول فاننا بطبيعة الحال نفعل ذلك بمقدار ماله علاقة بموضوع البحث الذي بين أيدينا .

فالامتيازات التي نحن بصددها ظهرت لاول مرة سنة ١٥٨٠ ، وثبتت بعد ذلك بثلاث سنين . ثم في القرنين التاليين ، وخاصة في القرن السابع عشر ، حصلت بريطانيا على شيء من الامتيازات الجديدة ، وحورت ، أو أكدت على القديم منها في ازمنة مختلفة . غير ان ذلك كله لم يستقر وتثبت فائدته العملية حتى مفتتح القرن التاسع عشر . وان مجاميع الوثائق المتعلقة بذلك تبدأ عادة بذكر امتيازات سنة ١٨٠٩ ، مشيرة على سبيل التمهيد الى امتيازات عام ١٦٧٥ ، ومنوهة بصورة عرضية وغامضة الى ما قبل ذلك[١١]. ومع هذا فان الامتيازات القديمة (أي التي منحت قبل مفتتح القرن التاسع عشر) كانت ذات أهمية لا يستهان بها . فاذا ما أهملها السلطان يوما ما ، فان ذلك لم يمنع رعايته لها في يوم آخر .

مضامين الامتيازات الاولى

ولقد كانت مضامين تلك الامتيازات القديمة متماثلة فيما بينها من حيث الاساس ذلك لان أقدمها ، وهو ما حصل عليه الانكليز خلال المدة

= ومنشأه وطبيعته » ، نجده فيها على هامش صفحة ٦٠ راجع :
Susa, Nasim, The Capitulary Regime of Turkey; its history, origin and nature (Baltimore, 1933), 60 n.

أما عن الادوار الاولى للامتيازات ، ففى ذلك السفر المختص بالموضوع ملاحظة واحدة ، وهى على هامش صفحة ٦٠ أيضا ، تشير الى المادة الرابعة من صفحة ٣٧٥ (الصواب ٣٧٣) من كتاب : Hertslet, Commercial Treaties, II, article IV. غير ان المادة الرابعة المشار اليها لا تحوى اشارة صريحة الا الى امتيازات سنة ١٦٧٥ و١٨٠٩ .

وعرضا نذكر ان ادوارد برتون المشار اليه في صدر الكلام المنقول اعلاه كان خلف وليم هاربورن راجع ما يلى :
Purchas, Samuel, His Piligrimes (London 1625) II, lib VIII, 1337; Miller, *op. cit.*, 13; Epstein, op. cit., 75.

(11) *British and Foreign State papers*, I, 747; Hertslet, *Commercial Treaties*, II, 346; 373; Farley, J. Lewis, *Tureky* (London, 1866), 280.

١٥٨٠ - ١٥٨٣ ، كان في صالحهم الى حد جعلهم يتخذونه أساسا لما بعده من امتيازات خلال قرنين كاملين • ففي عام ١٦٠٤ حصلوا على تأييد ما كان لسفنهم من اذن بالمتاجرة داخل الموانى العثمانية تحت اعلامها الانكليزية ، هذا بينما كانت السفن الاجنبية (باستثناء الخاصة بالبندقية) مضطرة لرفع العلم الفرنسي[١٢] • وفي عام ١٦٤١ عقد شارل الاول معاهدة مع السلطان ابراهيم الاول ضمنت حرية التجارة لشركة الشرق الادنى (Levant Company) في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية[١٣] • أما امتيازات عام ١٦٦١ فقد اعيد النظر فيها وصودق عليها سنة ١٦٧٥ ، وهذه هي المرحلة المهمة الثانية في سبيل الامتيازات البريطانية داخل الامبراطورية العثمانية • ولم يحدث بعد ذلك شيء يذكر حتى عام ١٨٠٩ •

أما الهدف الذى كانت ترمي اليه تلك الامتيازات القديمة فانه يتلخص في نيل التاجر الانكليزي حرية التجارة داخل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه منها على سبيل الترانسيت ، والتمتع بما يكفي من حماية نفسه وماله • ولقد ضمنت الامتيازات اسميا مثل ذلك للتاجر العثماني في البلاد الانكليزية • غير ان الجانب العثماني لم يستفد في الواقع سوى مايأخذه السلطان او الباشوات من رسوم على البضائع الانكليزية تبلغ عادة ٣ بالمائة من ثمن البضاعة • فهذه هي حدود تلك الامتيازات القديمة كما تظهر لنا على الورق ، ولكنها لم تكن كذلك في حيز التنفيذ ، اذ كانت تخرق في كثير من الاحيان • ولئن روعيت من قبل السلطان مثلا ، فانها عرضة للتجاوز عليها من قبل الباشوات الذين لم تكن للسلطان عليهم سيطرة فعلية • وفي مقدمتهم الباشوات الذين كانوا يحكمون فيما بين النهرين • ففي هذه المنطقة النائية من الامبراطورية العثمانية كان نصيب التاجر الانكليزي يعتمد على الحكمة في سلوكه ، وعلى ما بيده من توصيات ، وما يقدمه من هدايا ، أكثر من

---

(12) Miller, *op. cit.*, 2.

(13) Bruce, John, *Annals of the Honorable East India Company* (London, 1810), I, 67.

اعتماد على تلك الوثائق والسجلات[١٤] .

٢ ـ بدء تجارة المرور (الترانسيت)

شركة تركيا والشرق الادنى

لقد كانت الامتيازات الاولى في الدولة العثمانية تهدف أولا وبالذات الى مساعدة (شركة تركيا والشرق الادنى) التي كان عمالها أقدم من دخل وادي الرافدين من البريطانيين في العصور الحديثة . تألفت الشركة هذه في لندن سنة ١٥٨١ بعد مداولات استغرقت بضع سنين ، فوضعت نصب عينيها المتاجرة مع الهند عن طريق تركيا والخليج العربي . وكان بدء دخول تجارتها فيما بين النهرين عن طريق حلب فبغداد[١٥] .

(١) البعثة الاولى سنة ١٥٨٣ :

ولقد ذكر بورجاز ان جون نيوبرى (John Newbery) كان أول من قام بمثل تلك الرحلة من الانكليز ، وكان قيامه بها سنة ١٥٨١[١٦] . غير ان هذه الرحلة لم تكن الا عملا منفردا استطلاعيا ، اعقبه بعد سنتين أول حادث خطير في هذا الباب . ذلك ان تسعة أو عشرة من تجار شركة الشرق الادنى خرجوا من لندن سنة ١٥٨٣ في رحلتهم الطويلة الى الهند « لغرض توسيع التجارة التي حصل عليها الانكليز حديثا في الشرق الادنى » . وكان من بين هؤلاء التجار المغامرين جون نيوبرى المذكور آنفا ، ورالف فيج ،

---

(14) Longrigg, S. H., *Four Centuries of Modern Iraq* (London, 1925), 108.

(15) Birdwood, *op. cit.*, 195-196.

(16) Purchas, op. cit., II, lib IX 1410-1413: ibid, V, 579.

فيما يخص علاقات بريطانيا التجارية ببلاد الهند راجع الجزء الخامس من الكتاب نفسه ، ٤٨٤ ـ ٤٨٧ ، حيث تجد ما كان يراه ذلك المؤلف الانكليزى المعاصر من دواعى التوسع البريطانى فى الشرق ، وهى : الثروة والدين والمنافسة . وفيما يتعلق برحلة نيوبرى راجع :

Foster, *op. cit.*, Chapter VII.

وجون الدرد ، ووليم ليدز وجيمس ستوري (Ralph Fitch, John Eldred, William Leads, James Storie) [١٧] • وقد اجتازوا المسافة ما بين البحر المتوسط والخليج العربي عن طريق طرابلس وحلب وبيرهجك وبغداد والبصرة وهرمز • ثم لما عاد رالف فيج الى لندن منفردا مر ببغداد وبثلاث مدن أخرى هي الموصل وماردين وارفة • وقام بما يستحق الذكر من تدوين قصة رحلته الممتعة[١٨] •

(٢) ملاحظات رالف فيج (Fitch) :

وكان من بين ما ذكره رالف فيج ان بغداد كانت مركزا مهما لتجارة الترانسيت ، اذ كانت تمر بها القوافل المتجهة الى تركيا ، وبلاد فارس ، وبلاد العرب ، «وغير ذلك من الاصقاع»[١٩]• وكانت البصرة مركزا مهما لتجارة التوابل والعقاقير المستوردة من الهند عن طريق جزيرة هرمز •

---

(17) Foster, *op. cit*, Chapter VIII; Lardner, op. cit., II, 191; Pinkerton, John, *General Collection of the best and most interesting voyages, and travels in all parts of the world; many of which are now first transated into English*, 17 vols. (London, 1808-1814), IX 406; Miles, *op. cit.*, I, 205; Curzon, G. N., *Persia and the Persian Question* (London, 1892), II, 416.

تشير هذه المصادر الى ان اربعة تجار هم الذين قاموا بتلك الرحلة • غير ان جون الدرد وهو شخص خامس كان معهم يقول : « لقد سافرت من لندن فى السفينة المسماة النمر ، مع جون نيوبرى ، ورالف فيج ، وستة او سبعة من التجار الامناء ، فى يوم الاثنين ، سنة ١٥٨٣ » •

راجع : Hakluyt, *op. cit.*, VI, 1. وللاطلاع على تفاصيل رحلة هؤلاء التجار راجع المصدر نفسه ، الجزء الخامس ، ٤٥٢ ــ ٥١٥ ، والجزء السادس، ١ ــ ١٧ •

(١٨) « رحلة المستر رالف فيج التاجر اللندنى ، ١٥٨٣ ــ ١٥٩١ » المذكورة فى كتاب : Pinkerton, *op. cit.*, IX, 406-425; Purchas, *op. cit.*, II, lib X, 1730-1744.

(١٩) الى البصرة فالخليج العربى ومن ثم الى بلاد الهند ، او على العكس في اتجاه بغداد حيث يباع جزء من البضائع ، ويمر معظمها على سبيل الترانسيت •

وكانت هرمز حسب ما ذكره فيج هي المركز التجاري الممتاز . فلقد بلغت هذه الجزيرة الجرداء القاحلة مبلغا كبيرا من الرخاء بفضل موقعها الملائم (في الجنوب الشرقي من الخليج العربي) عند ملتقى الخطوط التجارية ما بين الهند وفارس والرافدين . فهنالك كنت تجد البضائع على اختلاف أنواعها : « التوابل ، والعقاقير ، والحـرير ، والانسـجة الحريرية ، والمطرزات الفارسية الانيقة ، وذخيرة كبيرة من لؤلؤ جزر البحرين ، وهو أجود أنواع اللؤلؤ ، وكثيرا من الخيول الفارسية »[٢٠] .

(٣) أهمية البعثة :

تلك هى الرحلة التى افتتحت بها شركة الشرق الادنى اعمالها فى اتجاه بلاد الهند ، وهى حادث لا يكاد يقـل شـأنا عما حصلت عليـه الملكة اليزابث من امتيازات فى الدولة العثمانية . فلاول مرة فى تاريخ بريطانيا وصل تجارها الهند وما وراءها من جزر الهند الشرقية عن طريق وادى الرافدين ، فالخليج العربى ، فالمحيط الهندى . ثم ان الرحلة كانت ناجحة تجاريا ، مما كان يدعو للقيام بأمثالها من المغامرات التجارية . يضاف الى ذلك ما كتبه كل من فيج ، ونيوبرى ، والدرد عن رحلته من ملاحظات ممتعة توضح ناحية مهمة من احوال البلاد التى مروا بها . اما انطونى شرلى (Anthony Shirley) الذى ذهب الى بلاد فارس في أواخر القرن السادس عشر ، عن طريق وادى الرافدين ، فانه لم يدرك هاهنا ما ادركه رالف فيج من خبرة وتجارة[٢١] .

---

(20) *Pinkerton, op. cit.*, IX, 407; *ibid*, 406; Purchas, *op. cit.*, II, lib. X, 1730-1744.

للاطلاع على وصف هرمز وبعض موانىء الخليج الاخرى ، راجع : Purchas, أيضا المجلد الثانى ، الباب العاشر ، ١٧٨٥ — ١٧٨٧ .

(٢١) للاطـلاع على بحث قيـم عن رحلة الاخـوة الثلاثـة من عائلة Shirley ، وهم توماس ، وانطونى وروبرت (Thomas, Anthoney and Robert) ، رجع المقال الخاص بهم في مجلة *The Asciatic Quarterly Review*, IV, 118-141.

هذا مع العلم بان رحلتهم تتعلق ببلاد فارس اولا وبالذات . كانت بداية مغامرات انطونى سنة ١٥٩٩ . وفى المرجع التالى اشارات قيمة لرحلة روبرت: *Acts of the Privy Council*, 1625-1626 (London, 1934), 440, 468-469.

رحلة السر وليم هجز سنة ١٦٨٦

ولم يمر بوادى الرافدين من التجار الانكليز خلال القرن السابع عشر سوى تاجر واحد على ما يظهر(٢٢) • ذلك هو السر وليم هجز (Sir William Hedges) الذي كان اولا في القسطنطينية يعمل ضمن نطاق شركة الشرق الادنى • ثم في نيسان سنة **١٦٨١** اصبح عضوا في مجلس ادارة شركة الهند الشرقية (البالغ عدد اعضائه اربعة وعشرين) • ولم تمض على ذلك اربعة اشهر حتى كان تعيينه « عاملا وحاكما لادارة مصالح الشركة فى خليج البنغال »(٢٣) • ففي اثناء عودته الى لندن وصل بغداد في الحادى والعشرين من شهر شباط سنة **١٦٨٦** ، وكان معه عدد من البغال المحملة بالبضائع الثمينة • وكان محتفظا بمكاتيب توصيات من السلطان يراد منها كما ذكر هو عن نفسه « معاملتى بالاحترام والعطف ، وألا تؤخذ منى رسوم اكثر مما تسمح به امتيازتنا السلطانية »(٢٤) • ولقد عومل هذا التاجر بالحسنى ، غير انه لم يستطع التخلص من دفع رسوم باهضة على ما كان له من بضاعة • فلقد دفع اكثر من الرسم « المسموح » به في الامتيازات ، اي اكثر من ٣٪ من ثمن البضاعة ، وعلى اساس تقدير الثمن عاليا ايضا • وفي سبيل دفع ما بذمته من رسوم اضطر الى بيع مقادير كبيرة من المنسوجات الهندية وغيرها• فهو لم يشأ ان يدفع من الذهب الذى جاء به من اصفهان ، لان الاطلاع على وجود هذا المعدن الثمين عنده كان حسب رأيه يعرض حياته للخطر طوال

---

(٢٢) هذا الحادث الفريد في بابه غير موجود في الملحق الاول من كتاب لونكرك **أربعة قرون في تاريخ العراق** ، حيث توجد قائمة تكاد تكون كاملة بأسماء الرحالة الذين مروا فيما بين النهرين فى العصور الحديثة راجع :
Longrigg, op. cit., appendix I

(23) The Dictionary of National Biography, IX, 363-364.

(24) Hedges, Sir William, *Diary*, 1681-1687 (Hakluyt Society ed., London 1887), 218-219.

مدة السفر ما بين بغداد وحلب على الاقل[٢٥] •

رحلات القرن الثامن عشر

فالمصالح البريطانية فيما بين النهرين كانت أمرا عرضيا ، وتجاريا بحتا حتى مفتتح القرن التاسع عشر • وان تزايد مرور المسافرين البريطانيين فيما بين النهرين خلال القرن الثامن عشر لم يكن الا نتيجة لتزايد مصالحهم فى الهند[٢٦] • ولم يكن منتظرا ان يكون احد من هؤلاء المسافرين لاقى في ربوع الرافدين من الاحوال الداخلية ما يختلف جوهريا عما لاقاه غيرهم من المسافرين الاولين[٢٧] • ولقد امسى اهتمام البريطانيين بوادي الرافدين خلال القرن الثامن عشر اقل من اهتمامهم به قبلا على ايام الملكة اليزابيث ، وذلك بسبب نجاح الطريق البحري بين الغرب والشرق •

تبديل الطريق التجارى

فالامور التي انجزتها الملكة اليزابث وبعض المغامرين امثال هاربورن وغيره من تجار شركة الشرق الادنى في الدولةالعثمانية أعقبها بعد قليل تحول التجارة البريطانية عن طريق الشرق الادنى الى طريق رأس الرجاءالصالح•

---

(٢٥) يتضح مما ذكره السر وليم هجز ما كان يتمتع به الباشا من استقلال عن سيطرة القسطنطينية ، وما كان هنالك من اضطراب حبل الامن، وما كان لتجارة الترانسيت من الارجحية علىالتجارة المحلية• وعلىهذا المنوال كان الوضع بوجه عام حتى سنة ١٨٣١ عندما خلع على رضا باشا آخر الباشوات المطلقين واستقر في منصبه بأمر من السلطان • راجع :
Longrigg, *op. cit.*, 277 ff.

(٢٦) توجد قائمة باسماء هؤلاء الرحالة في الملحق الاول من كتاب Longrigg المذكور آنفا ، صفحة ٣٣٣ ـ ٣٣٥ • وهم باستثناء ثلاثة منهم (اى باستثناء Griffiths, Franklin and Howell) مذكورون فى المجموعة الشهيرة *Dictionary of National Biography* مع نبذ عنهم ، واشارات الى المصادر •

(٢٧) حدثت حروب بين فارس والعراق خلال المدة ١٧٢٤ ـ ١٧٤٧ ، والمدة ١٧٧٤ ـ ١٧٧٩ ، مما كان له بطبيعة الحال اثر بليغ في عدم تحسن أحوال القطر الداخلية •

وكان من جراء هذا التحول الخطير ان ابتعدت التجارةالانكليزية عن وادي الرافدين من جهة ، واتصلت من الجهة الاخرى اتصالا وثيقا بحوض الخليج العربي ، فنجمت عن ذلك منافسات دولية عنيفة استمرت زهاء قرنين كاملين كانت نتيجتها نجاح بريطانيا وتأسيس نفوذها في ربوع الخليج •

٣ – بدء التفوق البريطاني في الخليج العربى

الطريق البحرى الى الهند

النجاح الاول الذي احرزته تجارة انكلترة مع الهند عن طريق وادي الرافدين أدى (على خلاف ما هو منتظر) الى تحول التجارةالانكليزية عن طريق هذ الوادي • فنجاح رالف فيج واصحابه ، وما قاموا به من نشر اخبارهم المغرية ، ولد في نفس شركةالشرق الادنى رغبة في المتاجرة مع بلاد الهند على نطاق اوسع بكثير مما كان يمكن القيام به بواسطة الطرق البرية • ولم يلبث ان استقر رأي الشركة على اتباع الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح ، على الرغم من شدة اخطار البحر في ذلك الزمن ، وعلى الرغم من عنف المنافسة البرتغالية في عرض البحار • وعلى هذا ارسلت سنة ١٥٩١ ثلاثا من سفنها الى بلاد الهند في ذلك الاتجاه[٢٨] • فكانت هذه اقدم بعثة تجارية انكليزية تصل الهند عن طريق البحر رأسا • غير أن هذا الحادث لم يفتتح لبريطانيا عهدا تجاريا مهما ، اذ ان البداية المهمة كانت على يد شركة اخرى ، وبعد ذلك بعشر سنين •

ففي سنة ١٦٠١ ، اي بعد مرور عام واحد على مصادقة الملكة اليزابث على تأسيس شركة الهند الشرقية ، ارسلت الشركة هذه بعثتها التجارية الاولى الى الهند بقيادة جيمس لانكاستر (James Lancaster) ، فكانت بعثة رابحة ، وكان من جملة بضائعها المستوردة « ما زنته مليون باون من الفلفل »[٢٩] • ثم بعد ذلك بسنتين ابحرت بعثتها الثانية • وفي هذا الصدد

(28) Miles *op. cit.*, I, 205; Birdwood, *op. cit.*, 196.

(29) Sykes, Sir Percy, *A History of Persia* (2nd ed., London, 1921), II, 188.

يروي لنا بروس Bruce « مؤرخ شركة الهند الشرقية » ان الربح الصافي لتينك البعثتين بلغ ٩٥٪[٣٠] • فلا غرابة ان تكون تلك التجارة الرابحة قد دفعت بشركة الهند الشرقية الى الاستمرار في سبيلها على الرغم من شدة الاخطار ، وفي مقدمتها الاخطار الناجمة عن منافسة البرتغال في ذلك السبيل •

المنافسة الانكليزية ـ البرتغالية

لقد كانت البرتغال ، وهي الدولة البحرية ، قد اعتزمت القضاء على اية منافسة تجارية في ربوع الشرق • وكان قد مر على اتصالها ببلاد الشرق زهاء مائة عام قبل ان تدخل انكلترة الميدان[٣١] ، فكانت لها موانىء في تلك الربوع ، وكانت لها بطبيعة الحال ارجحية على المنافس الجديد • ولم يكن في وسع الانكليز على ما يظهر احراز النصر في تلك المنافسة لو لم يحصلوا في الوقت الملائم على مؤازرة أعداء البرتغاليين من فرس ومن هولنديين • اما ميدان الصراع فانه كان ما بين سواحل افريقيا وسواحل الهند ، غير ان حوض الخليج الخليج العربي كان المنطقة المثلى في ذلك الميدان •

ولقد حدثت لحسن حظ الانكليز حوادث سيئة لاعدائهم البرتغاليين[٣٢]،

---

(30) Bruce, *op. cit*, I, 153.

أما الكتاب الحديث العمدة في هذا الموضوع فهو المجلد الرابع من سلسلة كمبردج في تاريخ الامبراطورية البريطانية :
Dodwell, H. H. (ed.) *The Cambridge History of the British Empire* vol. IV: British India 1497-1858 (Cambridge, 1929).

(٣١) من الاخبار الطريفة عن بداية اتصال البرتغاليين بالشرق على ايام فاسكوداغاما ، هو ما نجده في كتاب بورجاز المذكور آنفا :
Purchas, *op. cit.*, vol. V, lib V, 483.

(٣٢) للاطلاع على بحث موجز في السيطرة البرتغالية في الهند والخليج العربي ، بما في ذلك من انتصارات البوكرك ، راجع :
Lardner, *op. cit., II,* Chapter VIII.

وللاطلاع تفصيلا على مشاريع البرتغال فى الشرق راجع الكتاب التالى :
Strandes, J. *Die Portugiesenzeit von Deutsch-und Englisch-Ostafrica* (Berlin, 1899).

اذ أصبحت بلادهم جزءا من الدولة الاسبانية طوال المدة (١٥٨٠ – ١٦٤٠) مما ادى الى ضعف المدد للوحدات البرتغالية في الشرق • هذا في الوقت الذي اخذت تشتد فيه عداوة الشعوب الشرقية للبرتغاليين على سياستهم المزمنة الخرقاء • يضاف الى ذلك ما ابداه لهم شاه الفرس ، الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ – ١٦٢٩) من عداوة فعالة • فهو الذي اخرجهم من جزر البحرين سنة ١٦٠٢ ، واسترجع منهم غومبرون(٣٣) (Gombroon) سنة ١٦١٤ بعدما سيطروا عليها مدة عامين • ولقد كان موقف الشاه حسنا تجاه البريطانيين لما كان يأمله من مساعدتهم في التغلب على الاعداء •

(١) ضعف البرتغال :

وكان من حسن الصدف للانكليز ايضا ان بداية ظهورهم على السواحل الفارسية حدثت في وقت اشتداد النزاع بين الشاه والبرتغال • ففي سنة ١٦١٤ ارسلت شركة الهند الشرقية رسولين من سوراط (Surat) الى اصفهان لاجل تمهيد سبل المتاجرة مع المملكة الفارسية • وبمساعدة السر روبرت شرلى (Sir Robert Shirley) سفير انكلترة لدى الشاه ، استطاع الرسولان الحصول على ثلاثة فرامين متماثلة ، وهي وثائق رسمية موجهة من قبل الشاه الى مختلف حكامه لاسداء المساعدة لجميع السفن الانكليزية فى المياه الفارسية • ثم بعد ذلك بسنتين استطاع بعض تجار شركة الهند الشرقية الحصول على فرمان آخر فيه عهود بتقديم المساعدة ، وضمان لحرية التجارة(٣٤) •

ولم تلبث بعد هذه الحوادث المغرية ان قدمت سفن التجارة الانكليزية من سوراط الى جسك (Jask) عند مدخل الخليج العربى ، وذلك سنة ١٦١٨ • وقد اعقب نجاح هذه الخطوة الاولى ، خطوات ناجحة الى بعض موانىء الخليج الاخرى • وفى ١٩ آذار سنة ١٦٢٠ ارسل الملك جيمس الاول

---

(٣٣) اصبحت تدعى بندر عباس منذ سنة ١٦٢٢ •

(34) Sykes, *op. cit.*, II, 189.

كتابا الى الشاه عباس يشكره فيه على ما تفضل به على التجار الانكليز من امتيازات ، ويرجوه السماح لشركة الهند الشرقية بتأسيس مصنع للحرير فى ميناء جسك[٣٥] . وبهذا سمح الشاه بعد ذلك بزمن يسير ، عندما اخذت العلاقات تتوثق بين الفرس والانكليز في سبيل نضالهم المشترك ضد البرتغاليين .

على ان الاصطدام بين الانكليز والبرتغاليين (بقطع النظر عن الفرس) كان امرا لابد منه ، اذ ان الانكليز انما كانوا يعملون على طرد البرتغاليين من مناطق نفوذهم . ولقد حدث الاصطدام الاول بين الطرفين سنة ١٦٢٠ ، وهو ما يدعى بمعركة جسك البحرية التي لم يلبث ان انتصر الانكليز فيها حتى « عادوا الى اعمالهم ، فشحنوا خمسمائة وعشرين رزمة من الحرير وقفلوا راجعين الى سوراط »[٣٦] . وعلى هذا اصبح الانكليز كزملائهم الفرس اعداء البرتغاليين في ميدان القتال ، وأدركوا بداهة ما في التعاون مع الفرس من فائدة للطرفين في احراز النصر على العدو المشترك ، الا انهم ارادوا بطبيعة الحال ان يظهروا تعاونهم مع الفرس بمظهر مساعدة يقدمونها لقاء ما يأملونه من امتيازات جديدة . ولكن مثل هذا الزعم لم يكن لينطلي على الشاه .

فلقد اعتبر الفرس تقديم الشركة لهم مساعدات فعلية امرا لازما نظرا لما قدموه لها من امتيازات مهمة . وكان السبب فى عطفهم على التجار الانكليز ، ومنحهم الامتيازات بتلك السهولة ، يرجع بصورة واضحة الى حاجة الفرس للمؤازرة الفعلية . وعلى سبيل المثال نذكر ما حدث للتجار الانكليز عند وصولهم ميناء جسك في شهر كانون الاول سنة ١٦٢١ ، اذ لم يسمح لهم الحاكم الفارسي بتفريغ حمولة سفنهم الا بعد أن وافقوا على تقديم المساعدة في صد عادية البرتغاليين[٣٧] . ومهما يكن من امر فان التعاون بين

---

(35) Low, C. R., *History of the Indian Navy* (London, 1877), I, 30.

(36) Sykes, *op. cit.*, II, 190-191.

(37) Bruce *op. cit.*, I, 230.

الانكليز والفرس كان امرا لا غنى لكل منهما عنه • وكان الطـرفان فى الحقيقة على وشك القيام بأهم اعمالهما المشتركة ، ذلك العمل الذى كانت نتيجته انتزاع جزيرة هرمز من ايدى البرتغال •

(٢) احتلال الانكليز جزيرة هرمز :

وما كان اهم جزيرة هرمز واشهرها ! فالى « خزائن هرمز » اللامعة اشار جون ملتون في مقطوعة من اروع الشعر[٣٨] • والى تجارتها الوافرة أشار من قبله رالف فيج في حديثه الممتع عنها • وهي على حد قول بورجاز « الجزيرة العروس في تلك المنطقة ، وعماد تجارة ما حولها من البلاد »[٣٩] • وان « حصن هرمز الشهير » هو الذي جعل في استطاعة البرتغاليين « أن يسيطروا على ما يجتاز الخليج العربي من تجارة بين اوربا والهند » طيلة زمن يربو على مائة عام[٤٠] •

فلا غرابة ان يكون في محاولة الاستيلاء على تلك البقعة المغبوطة من الحطر ما يناسب وما كان لها من اهمية ممتازة • اما اهميتها فترجع الى كونها خير قاعدة حربية وتجارية ، والى ماكانت تتمتع به من شهرة واسعة • واما الخطر في انتزاعها من ايدي البرتغاليين فانه يرجع الى كون فقدانهم اياها خسارة لا تعوض ، مما كان يجعلهم (وهم المحنكون فى النضال) يبذلون اقصى الجهد في الدفاع عنها • ومهما يكن من أمر فقد تم الاتفاق بين الشاه والشركة على خوض المعركة ، رغبة منه في طرد البرتغاليين ، وأملا منها في السيطرة على الجزيرة •

وفي سنة ١٦٢٢ حدث الاشتباك المسلح الحاسم ، فكانت هناك مواقع دامية ، اظهر الطرفان فيها شجاعة وعزما ، وتكبدا في اثنائها خسائر فادحة ، حتى اسفرت النتيجة عن تصدع جانب البرتغاليين على الرغـم من دفاعهـم

---

(38) Milton, *Paradise Lost, Book* II, lines 1-5.
(39) Purchas *op. cit.*, V, lib. V, 580.
(40) Sykes, *op. cit.*, II, 193.

الشديد ، فانصاعوا للغلبة ، وهرب من نجا من حاميتهم نحو الجنـوب ، واستولى الانكليز على الجزيرة في نشوة الظفر ، وانتهت بذلك ملحمة من الملاحم الشهيرة في تاريخ الاستعمار(٤١) .

ولقد ذكر القائد موبرلى « ان العلاقات السياسية لبريطانيا العظمى بالخليج العربي ترجع الى سنة ١٦٢٢ ، عندما اخذت شركة الهند الشرقية على عاتقها ، بالاتفاق مع شاه فارس ، تخصيص سفينتين حربيتين بصورة مستمرة للدفاع عن الخليج(٤٢) » . غير ان هذا لم يكن كل ما احرزه الانكليز من ذلك النصر الحاسم . فالسوق التجارية التي حصلوا عليهـا باستيلائهـم على هرمز كانت أرجح مما كان لديهم في جسك . ثم انهم حصلوا على مستقر لهم في بندر عباس حيث انشئوا مصنعا للحرير . وحصل تجارهم على اذن من الشاه بشراء الحرير ونقله جنوبا الى اصفهان دون دفع رسوم على ذلك . غير ان الشاه لم يسمح للانكليز مطلقا بتحصين هرمز ، أو أي ميناء آخر من موانىء الخليج(٤٣) .

(٣) أفول المنافسة البرتغالية :

ان ذلك العام الذي انذر بما سيكون لبريطانيا من سيطرة في ربوع الخليج العربي انذر في الوقت ذاته بزوال ظل منافسيهم عن تلك الربوع(٤٤) . فالبرتغاليون وان تشبثوا بالبقاء في تلك الجهات زهاء ثلاثين عاما بعد خسرانهم

---

(٤١) راجع قصة ذلك في كتاب : Low *op. cit.*, I, 37-43.

(42) Moberly, F. J., (ed.) *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918* (London, 1923-1927), I, 45.

(43) Low, *op. cit.*, I, 44-45.

(٤٤) :ــ للاطلاع على ذلك مفصلا راجع كتاب Coupland ، وخاصة الفصول الخمسة ، وهى من الثانى الى السادس ، المتعلقة بأهمية الخليج العربى في التجارة الشرقية :

Coupland, R., *East Africa and its invaders: from the earliest times to the death of Seyyid Said in 1856* (Oxford, 1938), chapters II-VI.

هرمز ، الا انهم لم يستطيعوا استرجاع مكانتهم الاولى ، او الاحتفاظ بما أمسوا فيه من مراكز مزعزعة • فهم بعد تخليهم عن هرمز توجهوا الى عمان ، واحتلوا مسقط متخذين منها قاعدة لاعمالهم الحربية في سبيل استرجاع سلطانهم الزائل • غير ان جميع محاولاتهم في هذه السبيل باءت بالفشل المريع ، لا بسبب العداء الفارسي الانكليزي فحسب ، بل بسبب عداء امام عمان لهم ايضا ، ولما اظهرته لهم السفن الهولندية باسلحتها الثقيلة من منافسة فتاكة • ففي سنة ١٦٣٠ قام البرتغاليون بمحاولتهم الاولى والاخيرة ، في سبيل استرجاع هرمز ، فأخفقوا • وظلوا بعد ذلك زهاء عشرين عاما في مراكزهم الحرجة حتى اجلاهم امام عمان عن مدينة مسقط سنة ١٦٥٠[٤٥] ، ولم يبق لديهم ما يلتجئون اليه سوى قواعد تافهة خرجت من ايديهم بعد ذلك بزمن يسير • ففي اواسط القرن السابع عشر كان اندثار معالم الاستعمار البرتغالي في تلك الربوع •

ظهور السيادة الهولندية

غير ان الجو لم يصف للانكليز بانتهاء المنافسة البرتغالية ، اذ بانتهائها كانت المنافسة الهولندية قد ترعرعت واصبحت خطرا شـديدا على المصالح الانكليزية • فالسفن الهولندية ظهرت لاول مرة في مياه الشرق منذ سنة ١٥٩٥ ، واشتبكت منذ ذلك الحين في صراع عنيف مع السفن البرتغالية[٤٦] • وفي سبيل تقوية جانبهم حربيا وتجاريا ، قام الهولنديون بتوحيد عدد من شركاتهم الصغيرة ، والفوا منها سنة ١٦٠٢ شركة الهند الشرقية الهولندية • وعملوا خلال عشرين سنة من تأليفها على اضعاف البرتغاليين في مياه افريقيا والهند ، بينما كان الانكليز والفرس يعملون على اضعـافهم ايضا في مياه الخليج • فالعـلاقات بين الانكليز والهولنديين في حوض الخليج العربي

---

(45) Sykes, *op. cit.*, II, 194; Longrigg, *op. cit.*, 106.

(٤٦) يجدر بنا أن نتذكر بان البرتغال اصبحت خـلال المـدة (١٥٨٠ ـ ١٦٤٠) جزء من الدولة الاسبانية عدوة هولندة حينذاك •

كانت حسنة على ايام سقوط هرمز سنة ١٦٢٢ ، اذ كان العدو المشترك لا يزال غير مقضي عليه .

وكان الهولنديون حينذاك كالانكليز ثملين بنشوة الظفر على البرتغاليين . ولم يكن ما أحرزوه من نصر خلال الربع الاول من القرن السابع عشر باقل خطورة عما احرزه الانكليز من الاستيلاء على هرمز ، ومن امتيازات في بلاد فارس . « فبالاضافة الى ما أوقعه » الهولنديون خلال تلك المدة ، « على البرتغاليين من ضرر كثير في افريقيا والهند ، برا وبحرا ، فقد اصبحت لهم في بلاد الهند سبعة وثلاثون مصنعا ، وعشرون حصنا وقلعة »(٤٧) . ولم تكد تمض عشرون عاما على تأسيس الهولنديين شركة الهند الشرقية حتى اصبحت لهم الارجحية في بحار الهند . ففي سنة ١٦١٤ كانت لهم هنالك ما لا يقل عن سبعة وعشرين سفينة حربية كبيرة . وكان « معدل ارباح الاسهم سنويا خلال المدة ١٦٠٥ – ١٦١٤ زهاء ٣١٪ » ، على الرغم من مصروفات التسليح الباهضة(٤٨) .

(١) المنافسة بين انكلترة وهولندة :

ولم يحدث التصادم بين تينك الدولتين الظافرتين الا بعد فترة وئام مرت عليهما . فلقد رحب الانكليز والفرس في بادىء الامر بمجيء السفن الهولندية الى المياه الفارسية ، لما توقعوه من مؤازرة القادم الجديد . وعلى هذا حصل هوبرت فسنيش (Hubert Visnich) سنة ١٦٢٣ على فرمان من الشاه عباس تأسس بموجبه مصنع هولندى في بندر عباس ، الى جانب المصنع الانكليزي . وكان الانكليز والهولنديون يتعاونون احيانا في حرب البرتغاليين ، كما حدث في معركة سنة ١٦٢٥ البحرية بالقرب من بندر عباس(٤٩) .

غير ان الزمن الذى اضمحلت فيه السيطرة البرتغالية ، تعاظمت فيه السيطرة الهولندية ، وان أواسط القرن السابع عشر شهدت انتقال السيادة

(47) Purchas *op. cit.*, V, lib. V, 483.
(48) Keller, A.G., Colonization (Boston, 1908), 401-404.
(49) Sykes, *op. cit.*, II, 194-195; Longrigg, op. cit., 103.

في مياه الشرق من البرتغال الى هولندة • وعلى هذا كان التنافس بين الانكليز والهولنديين امرا لابد منه ، وهو في الحقيقة لم تعدم بوادره قبل القضاء نهائيا على نفوذ البرتغال[٥٠] • ولكن التنافس الجديد لم يستفحل امره حتى بداية النصف الثاني من ذلك القرن ، حيث تمت للهولنديين السيطرة على اسواق بلاد فارس وحوض الخليج ، ولم يبق للتجارة الانكليزية مجال يذكر في تلك الاسواق[٥١] •

فما كان من الانكليز تجاه ضغط الهولنديين من جهة ، وما توقعوه من ضعف المنافسة البرتغالية في مدينة البصرة من جهة اخرى ، الا ان توجهوا نحو هذه المدينة[٥٢] ، فوصلوها لاول مرة عن طريق البحر سنة ١٦٣٥ ، وربحوا فيها • غير انه حدث بعد ذلك بخمس سنين ان دخلت البصرة بضائع برتغالية كثيرة قادمة من مسقط ، فاكتسحت البضائع الانكليزية من الاسواق • ولكن المنافسة البرتغالية لم تلبث ان اندثرت بعد ذلك سراعا ، ولم تلبث البصرة أن اصبحت « من اهم مراكز التعامل » لشركة الهند الشرقية الانكليزية[٥٣] • هذا باستثناء فترة امتدت خلالها يد الهولنديين الى تلك

---

(٥٠) فى كتاب Miles المذكور آنفا خبر عن المنافسة الثلاثية ، الانكليزية ـ البرتغالية ـ الهولندية : Miles, *op. cit.*, I, 206-210.
لقد كان عرب الخليج وخاصة في عمان طرفا آخر فى تلك المنافسة • اما الاتراك فلم يكن لهم فيها اثر يذكر لبعدهم عن الميدان ، وكذلك الفرس اذ لم يكن لديهم اسطول •

(51) Bruce *op. cit.*, I, 498-499.

لقد خسر الانكليز حليفا قديما بوفاة الشاه عباس سنة ١٦٢٩ ، ومن جهة أخرى فقد أظهر الهولنديون مهارة في سلوكهم ، اذ كانوا يدفعون اثمانا عالية لقاء البضائع الفارسية ، وكانوا احيانا يستعملون الرشوة • وهم اذا اقتضت الحال لم يترددوا في استعمال القوة ، كما حدث عند احتلالهم جزيرة القشم (Quishm) •

(٥٢) يقع هذا الميناء المهم على شط العرب ، على مسافة ٧٥ ميلا تقريبا من الخليج العربى • اما طول الشط فيبلغ زهاء ١٣٥ ميلا (ما بين ملتقى دجلة بالفرات عند القرنة ، حتى مصبه في الخليج عند الفاو) •

(53) Moberly, *op. cit.*, I, 43; Longrigg *op. cit.*, 107-108.

المدينة النهرية ، اذ غزا أسـواقها سنة ١٦٤٥ اسطول هولندى مؤلف من ثمان سفن ، اضمحلت على اثره تجارة الانكليز وسمعتهم في تلك الربوع ، ولكن الى أمد قصير •

(٢) ضعف موقف هولندة :

فالسيادة الهولندية في الخليج العربي ، على ماكان فيها من وطأة شديدة على التجارة الانكليزية ، لم تدم طويلا ، اذ ناهزت العشرين عاما بين ١٦٥٠ و ١٦٧٠[٥٤] • وعندئذ اتخذت الحوادث على المسرح الاوروبي دورا جديدا ، أدى الى انتقال السيطرة الاستعمارية في الشرق من هولندة الى انكلترة • وهذا ما سنلاحظه الآن بمنتهى الايجاز •

لقد هجم ملك فرانسا الشهير لويس الرابع عشر على هولنـــدة سنة ١٦٧٢ ، ومن ثم استمر العداء والنزاع بين الطرفين ، فاستفاد الانكليز من ذلك فائدة كبيرة ، اذ لم يعد في وسع هولندة ان تعنى العناية اللازمة بسيطرتها فيما وراء البحار • ثم حدث بعد ذلك بزمن يسير ان اتحدت المملكتان انكلترة وهولندة ، نتيجة لثورة انكليزية شهيرة ، ازالت آخر ملوك آل ستوارت عن العرش سنة ١٦٨٨ ، ونصبت محله وليم الثالث ، وهو وليم اورنج عاهل هولندة ، وزوج بنت الملك الانكليزي المخلوع • وعلى ايام الملك وليم الثالث اندثرت المنافسة الانكليزية الهولندية ، وحل محلها تعاون وثيق بينهما ضد لويس الرابع عشر • وأخيرا حدثت الحرب المعروفة بحرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ ـ ١٧١٣) التي اشتركت فيها انكلترة وهولندة الى جانب بعض الدول الاوربية الاخرى ضد فرنسا واسبانيا • وقد لعبت انكلترة في اثناء ذلك دورا مهما ، وخاصة في ميدان التجارة والمستعمرات • فكان ربحها عظيما فـي معاهدة أترخت التي انتهت بموجبها الحرب سنة ١٧١٣ ، اذ أصبحت لانكلترة السيادة في أمريكا الشمالية ، وحصلت على امتيازات تجـارية في أمريكـا

---

(٥٤) للاطلاع على السيطرة الهولندية فى عنفوانها راجع :
Bruce, *op. cit.*, I, 26-39.

الجنوبية (التي كان معظمها تابعا لاسبانيا) ، واحرزت مراكز مهمة في حوض البحر المتوسط . أما هولندة التي انهكتها الحرب فانها لم تحصل على شيء سوى استرجاع حدودها الاولى . ولم يبق هنالك مجال للشك في ان هولندة لم تعد كفوء لانكلترة في ميدان التجارة والمستعمرات .

(٣) أفول المنافسة الهولندية :

غير ان منطقة الخليج العربى لم تتأثر بذلك التطور الخطير الا بعد زمن غير يسير . فهولندة لم تقم بحركات جديدة لعدم استعدادها ، ولم تقم انكلترة بشيء يذكر لانشغالها بارباحها الحديثة الواسعة . ولم تظهر هنالك بوادر ضعف هولندة حتى أواسط القرن الثامن عشر ، حيث أخـذت بقايا سيطرتها تتلاشى بسرعة ، وأخذت تترعرع محلها السيطرة الانكليزية . فالهولنديون لم ينصاعوا حينذاك للمنافسة الانكليزية الشديدة فحسب ، بل اخذوا يتراجعون أمام هجمات العرب أيضا . وكان سقوط آخر مصانعهم ، وهو حصن في جزيرة كرك (Kharak) ، على ايدى العرب سنة ١٧٦٦ ، وعندئذ « انتهت حركات هولندة في هذه الاصقاع »(٥٥) .

بوادر السيادة البريطانية في الشرق الاوسط

ولكن الوضع الجديد كما يوضح الفصل التالي ، لم يخل مما يعكر صفو الانكليز في المحيط الهندي والخليج العربي، ذلك لان الفرنسيين اخذوا يبدون منافسة لا يستهان بها خلال المدة ١٧٤٠ - ١٧٨٣ . ومع هذا فأن وضع الانكليزي أصبح على وجه الاجمال قويا ، حتى ان بعثة انكليزية ابحرت من بمبي سنة ١٧٧٢ للقيام بمسح الخليج العربي . وبعد ذلك بثلاث عشرة سنة أخذ المهمة على عاتقه أحد ضباط بحرية الهند الانكليزية ، وهو الرئيس ماكليور (lieutenant McClure) ، وعلى يده مسح الخليج « لاول مرة مسحا في الحقيقة مهما »(٥٦) .

---

(55) *Persian Gulf* (Handbook, London, 1920), 65.

(56) Fraser, Lovat, *Some Problems of the Persian Gulf* (London, Central Asian Society, 1908), 6.

ففي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت لبريطانيا العظمى الارجحية في حوض الخليج العربي تجاريا وسياسيا(٥٧) . ولكن ارجحيتها هذه لم تكن تستند الى تطور في السياسة أو المصالح ، بل كانت ترجع بالدرجة الاولى الى عدم وجود منافسة قوية . أما التطور الخطير في سياسة بريطانيا وموقفها ، ليس تجاه الخليج العربي فحسب ، بل تجاه وادي الرافدين وغيره من مناطق الشرق الاوسط أيضا ، فانه حدث عند مفتتح القرن التاسع عشر . وعند ذلك لم يعد احراز الارجحية في نظر بريطانيا مجرد أمر محبذ أو مرغوب فيه ، بل أمرا لا بد منه لصيانة مصالحها وهيبتها في هذه البقعة من العالم . ولقد كان العامل الاكبر في حدوث هذا التطور الخطير ، ظهور منافس عتيد على مسرح الشرق ، ذلك هو نابوليون بونابرت . فما ان قام هذا الداهية بغزو مصر ، واتضح خطره على الهند ، حتى أخذت الحكومة البريطانية تفكر عن عزم ، وتعمل عن حزم . فكان عصر نابوليون هو العصر الذي تأسس فيه النفوذ البريطاني في ربوع الشرق الاوسط على وجه الاجمال .

(57) *Persian Gulf* (Handbook), *op. cit.*, 68.

الفصل الثاني

التنافس البريطاني ـ الفرنسي في الشرق الاوسط
(منذ البداية الى سنة ١٨٠١)

أعقبت المنافسة البريطانية ـ الفرنسية في الشرق الاوسط ما كان قبلها من منافسة انكليزية ـ هولندية ، كما أعقبت هذه ما كان قبلها بين الانكليز والبرتغاليين من صراع عنيف ، ولكن هذه الادوار الثلاثة المتتالية لم تكن متمايزة بحيث يبتدىء الواحد منها عند انتهاء الآخر ، بل كانت متداخلة تظهر بوادر الجديد منها قبل انتهاء القديم بزمن غير يسير . والمنافسة البريطانية ـ الفرنسية على قدم ظهورها في الشرق الاوسط ، لم تبدأ بصورة فعالة حتى أواسط القرن الثامن عشر ، عندما حلت السيطرة الانكليزية محل الهولندية . وهي لم تبلغ أشدها حتى ظهور نابوليون بونابرت على مسرح الشرق . وعندئذ هبت بريطانيا لدرء الخطر الداهم ، واحرزت نصرها الاول على نابوليون سنة **١٨٠١** ، فكان نصرا مبينا وان لم يكن حاسما ، وذلك ما ندعوه بالاساس « الطارىء » لارجحية النفوذ البريطاني في ربوع الشرق الاوسط .

١ ـ المقدمات ، حتى عام ١٧٩٨

في الامبراطورية العثمانية

يرجع منشأ التنافس البريطاني ـ الفرنسي الى زمن بعيد قياسا على الزمن المتأخر الذي بلغ فيه أشده . فالى أواخر القرن السادس عشر يرجع المنشأ ، وكان ذلك بعد أن سبق الفرنسيون الانكليز في الحظوة عند السلطان مدة خمسين عاما تقريبا . وكان الملك فرنسيس الاول الـذى اصبحت العلاقات الفرنسية ـ العثمانية ودية على أيامه ، هو الذي حصل من السلطان سليمان القانوني سنة **١٥٣٥** على أقدم الامتيازات في الدولة العثمانية .

وعلى هذا أصبح مسموحا للتاجر الفرنسي أن يقوم بالمتاجرة في طول البلاد العثمانية وعرضها ، بينما لم يكن مسموحا بذلك لغيره من تجار الممالك الاخرى الا في ظل « الحماية » الفرنسية • ثم في العقد التاسع من ذلك القرن حدث (كما مر معنا) ان حصلت انكلترا على أقدم امتيازاتها فى الدولة العثمانية ، وكان ذلك بواسطة وليم هاربورن ، على الرغم من دسائس المسيو دى جرمينى ، السفير الفرنسي في القسطنطينية • وعند ذلك حل الانكليز محل الفرنسيين في الحظوة لدى الباب العالي طيلة العقدين الاخيرين من القرن السادس عشر •

على ان الفرنسيين تمكنوا في نهاية القرن من استرجاع ارجحيتهم المفقودة ، وحصلوا سنة ١٦٠٤ على تأييد امتيازاتهم الاولى[١] ، فتأكدت بذلك ضرورة « الحماية » الفرنسية لتجار الممالك الاخرى ، باستثناء تجار البندقية ، وانكلترة • وفي هذا الدور الذى اوشكت الامبراطورية العثمانية ان تصبح فيه ميدانا للتنافس الانكليزي ـ الفرنسي ، حدث ذلك التبدل الخطير الذى أدى الى المتاجرة بين الغرب والشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من طريق الدولة العثمانية • وعلى هذا انتقلت المنافسة الانكليزية ـ الفرنسية في الشرق الى الميدان البحري الجديد •

في الهند وفي بلاد فارس

وكانت المحاولة الفرنسية الاولى للمتاجرة مع الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح ، على يد جماعة من المغامرين النورمانديين • فلقد ابحروا سنة ١٦٠١ من ميناء سانت مالو (St. Malo) بقيادة فرانسوا بيرار دي لافال (Francois Pirard de Laval) ، أحد تجار ذلك الميناء ، وما أن وصلوا جزر مالاديف (Maladives) مقتربين من نهاية الهند الجنوبية ، حتى اصطدمت سفينتهم بصخور ناتئة ، وانتهى المشروع • ثم بعد ذلك بزمن

(1) Miller, *op. cit.*, 2; Epstein, *op. cit.*, 12.

يسير تأسست شركة الهند الشرقية الفرنسية ، فكانت مؤسسة هزيلة ، اذ لم تلبث ان تألفت سنة ١٦٠٤ حتى قعدت عن العمل • ولكن نفرا من التجار الفرنسيين كانوا شديدي الرغبة في مشاركة الانكليز والهولنديين فيارباح التجارة الشرقية الوافرة ، فكانت هنالك مداولات عويصة بشأن امتيازات الاحتكار ، أعقبها الاقدام على العمل بارسال بعثتين ناجحتين خلال ١٦١٦[٢] • غير أن الشركة الفرنسية كانت في الحقيقة اضعف من ان تفتح لفرانسا سياسة فعالة في بلاد الشرق •

ولقد حدث سنة ١٦٢٦ أن بعث الكاردينال ريشيليو (Richelieu) شخصا يدعى لويس ديشي (Louis Deshayes) برسالة اقتصادية وسياسية الى الشاه عباس الكبير • فكان على ديشي ان يغري الشاه بعدم مساعدة الاسبان على الاتراك ، وأن ينال منه عهودا بالحماية والمساعدة للتجار الفرنسيين في البلاد الفارسية • ولكن الرسول لم يصل في طريقه الى ابعد من القسطنطينية ، حيث جرت بينه وبين سفير فرانسا لدى الباب العالي مشادة قضت على المشروع في المهد[٣] • ثم حدث بعد ذلك بسنتين أن وصل بلاد فارس راهبان فرنسيان ولقيا ترحابا من الشاه ، الا انه لم تكن لزيارتهما أهمية سياسية أو اقتصادية[٤] • ولم تكن شركة الهند الشرقية الفرنسية التي تأسست من جديد سنة ١٦٤٢ برعاية الكاردينال ريشيليو بأكثر نجاحا من الاولى •

فلما حدث بعد ذلك ان وجه الوزير النشيط كولبير (Colbert)

---

(2) Cole, C. W., Colbert and a Century of French Mercantilism (New York, 1939), I, 113-116.

(3) De Rialle, Girard, "An Attempted French Embassy to Persia under the auspices of Cardinal Richelieu, including an unpublished instruction by Louis XIII for a French Embassy to Persia," *Asiatic Quarterly Review,* 2 ser., vol, 1-2, 163-180 (January, 1891) .

(4) *Ibid,* 177-178.

انتباهه نحو الشرق لم يكن هنالك ما يستند اليه من سوابق مهمة ، وعلى يديه كانت فاتحة المصالح الفرنسية في بلاد فارس • ففي سنة ١٦٦٤ ارسل بعثة الى الشاه عباس الثاني تمهيدا للتجارة ونيل الامتيازات • ومع ان البعثة كانت فى نظر الحكومة الفارسية أقل شأنا مما يجب ان تكون عليه ، فان اعضاءها عوملوا بالحسنى ، وتجحوا فيما قدموا من أجله • وعلى هذا أصبح التجار الفرنسيون معفوين من رسوم الكمرك والمكوس مدة ثلاث سنين ؛ وحصلوا على تسهيلات مماثلة لما كان التجار الانكليز والهولنديون قد حصلوا عليه من قبل[٥] • غير ان الفائدة من كل ذلك لم تكن بالشيء الكثير • فالمعملان الفرنسيان اللذان تأسسا بموجب تلك الامتيازات ، احدهما في بندر عباس والآخر في اصفهان ، كانا هزيلين ، وقد ظلت التجارة بين فرنسا وفارس على اضعف ما يكون حتى نهاية ذلك القرن • ثم في مفتتح القرن الثامن عشر انتعشت العلاقات بينهما فترة قصيرة ، وذلك عندما انعقدت سنة ١٧٠٨ معاهدة بين لويس الرابع عشر والشاه سلطان حسين • وما أن مضت على ذلك اربعة عشر عاما ، حتى اصبحت الصلة بين الطرفين أثرا بعد عين ، اذ انسحب الفرنسيون من بلاد فارس على أيام الحملة الافغانية ولم يستعيدوا اهتمامهم بها حتى مفتتح عهد نابوليون •

في حوض الخليج العربى

يتضح لنا مما سبق ان البلاد الفارسية ، والبلاد العثمانية أيضا ، لم تصبح ميدانا للتنافس البريطاني الفرنسي قبل مفتتح القرن التاسع عشر • غير ان الوضع في منطقة الخليج العربي كان على خلاف ذلك • فلقد ظهرت أقدم صلة لفرنسا بهذه المنطقة سنة ١٦٧٩ ، عندما تعين رئيس الكرملية في البصرة (وهو رجل ايطالي) ، قنصلا فرنسيا في هذه المدينة[٦] • غير أن ممثلي فرانسا وممثلي انكلترا أيضا لم يكونوا حينذاك

(5) Sykes, *op. cit.*, II, 195; Curzon, *op. cit.*, II, 549.

(٦) البصرة ، وهى الميناء الرئيسى لما بين النهرين ، تعتبر أيضا من اهم موانىء الخليج •

يقومون بوجائب مهمة ، وكانوا الى سنة ١٧٤١ تحت رحمة الحاكم هناك على حد سواء[٧] • وفي سنة ١٧٥٥ اصبحت « دار الاقامة » الفرنسية في البصرة مؤسسة دائمية ، وعين لها قنصل فرنسي بعد ذلك بعشرين عاما • ثم « في سنة ١٧٨٥ » حسبما ذكر السر ارنولد ولسن ، حاول الفرنسيون « الحصول على اذن من الامام بتأسيس معمل في مسقط ، ولــكن نصيب ذلك كان الرفض ، كما رفضت من قبله رجاءات الانكليز » • فباستثناء البصرة لـم يكن لفرنسا بين سنة ١٧٦٣ و ١٧٩٣ (أى بين نهايــة حــرب السبع سنوات وبداية عصر نابوليون) تمثيل خارجي في مركــز من مراكــز الخليج[٨] •

أما منطقة الصراع بين بريطانيا وفرنسا في سبيل التجارة والمستعمرات، فانها كانت في المحيط الهندي وحواشيه ، وكان ذلك ابان حروب أوروبية شهيرة ، هي حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ - ١٧٤٨) ، وحرب السبع سنوات (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، وحرب الاستقلال الامريكي (١٧٧٥-١٧٨٣) • ففي أثناء ذلك تناحرت سفن الطرفين فيما وراء البحار ، وكان الفرنسيون قد اتخذوا من جزيرة موريشياس (Mauritius) (وهي التي كانت تدعى أيضــا بــ (Ile de France) ومن جزر اخرى أقل منها أهمية ، مراكز للانقضاض على السفن الانكليزية ما بين رأس الرجاء الصالح الى الهند ، واتخذوا من مدينة مسقط سوقا لغنائمهم سفنا وبضائع • وعلى هذا أصبح مدخل الخليج العربي مركز توزيع تجاري لما جاوره من سواحل الجزيرة العربية وبلاد فارس ، وما بين النهرين ، وشهدت عمان عددا من المصادمات بين الفرنسيين والانكليز[٩] •

---

(7) Longrigg, *op. cit.*, III, 157.

(8) Wilson, A. T., *The Persian Gulf* (Oxford, 1928), 189; Longrigg, *op. cit.*, 187.

(٩) للاطلاع على النواحى العامة لهذا الصراع راجع :
Auzoux, A., "La France et Muscate aux XVIII et XIX Siecles," *Revue d' histoire diplomatique*, XXIII (paris, 1909), pp. 518-540; Prentout, H., *L'Ile de France Sous Decaen* (Paris, 1901).

وقد حدث ذلك أول ما حدث سنة ١٧٥٩ ، عندما حاولت ثلاث سفن فرنسية اكراه سفينة انكليزية كبيرة على الخروج من مياه مسقط . فاغتاظ الحاكم العربي خلفان بن محمد من ذلك الاعتداء الواقع ضمن حدوده ، واطلق النار على المعتدين فولوا الادبار . غير ان كبرى تلك السفن الثلاث ذهبت على اثر تلك الخيبة الى بندر عباس وحملت على المعمل البريطاني هناك فحطمت جانبا منه . وفي سنة ١٧٦١ قامت السفن الحربية الفرنسية بمحاولة أخرى لاخراج سفينة تجارية انكليزية من ميناء مسقط ، فأخفقت هذه أيضا على يد الحاكم هناك . أما الحادث المهم الثالث فانه وقع سنة ١٧٧٨ ، عندما كانت احدى السفن الانكليزية تجتاز المياه الفارسية ، قادمة من سوراط وعليها ٥٠٠ رزمة من المنسوجات . وفي المياه الفارسية أخذت تطاردها السفن الفرنسية حتى ادخلتها الخليج العربي ، وتمكنت حينئذ من الدخول في الميناء الملائم الوحيد في تلك المنطقة ، وهو ميناء مسقط المعهود . فما كان من الوالي الا أن يمتعظ من ذلك الاعتداء الصريح ضمن دائرة نفوذه ، فاطلق النار على السفن الفرنسية حتى اضطرها الى الجلاء[١٠] .

حياد عمان وعروبته

وفي هذا الصدد يجدر بنا ان لا نحسب ما قام به رجال عمان في تلك الحوادث جميعها من دفاع مجيد عن الانكليز ضد الفرنسيين دليلا على صداقة مستمرة لجانب دون الآخر[١١] . واذا ما كان في مثل هذا الاستنتاج اثر للصواب ، فان تفسير ذلك السلوك العربي الخطير يرجع في الحقيقة الى تقاليد عربية معروفة ، هي (الدخالة) وما تعنيه من ضرورة حماية المستجير بحد الحسام اذا اقتضى الامر . ولا يمنع الحماية اختلاف القومية ، وقد لا يمنعها اختلاف الدين . فدخول السفن الانكليزية ميناء مسقط هربا من

---

(10) Miles, *op. cit., II*, 268-270, 274-275.

(١١) لقد رفض الامام مرارا رجاء الانكليز تأسيس معمل لهم ، كما رفض للفرنسيين مثل هذا الرجاء ، راجع :

Ibid, 282; Wilson, *op. cit.*, 189.

خطر الفرنسيين الداهم كان دخالة صريحة ، ولتقاليد الدخالة فعل الغرائز عند القبائل العربية[١٢] • والانكليز بطبيعة الحال لم يدفعوا اجرا لقاء تلك المساعدات الثمينة •

فلما لم تكن المصادمات بين الفرنسيين وحكومة عمان ناجمة بالدرجة الاولى عن عداء مستفحل بينهما ، فان الفرنسيين لم يبرحوا يأملون ان يحلوا محل الانكليز في أسواق مسقط • وعلى هذا كانوا عادة يسترضون الامام عما يبدر منهم ضمن حدوده أحيانا ، بما كانوا يقدمونه له من هدايا واعذار • ولقد ابتدأت المتاجرة بين جزيرة موريشياس ومسقط منذ سنة ١٧٦٠ واستمرت على حال لا يستهان بها حتى نهاية القرن • فكانت الجزيرة تصدر السكر ، وتستورد الاسماك المملحة والتمور والقهوة • ولم تحدث خلال تلك الآونة بين فرنسا وعمان سوى ازمة شديدة واحدة ، وذلك سنة ١٧٨١ عندما قامت السفن الفرنسية بحملة رابعة على سفينة انكليزية داخل ميناء مسقط ، وفت الوالي في عضدها كالمعتاد ، فولت الادبار حانقة ، واتجهت السفن الثلاث صعدا في الخليج العربي حيث التقت باحدى سفن الامام واسرتها • الا انه وجه في حينه احتجاجين ، احدهما الى السلطة في موريشياس والثاني الى الحكومة الفرنسية • وقام فضلا عن ذلك بالثأر لنفسه اذ تمكن من اسر واحدة من تلك السفن • أما الحكومة الفرنسية في باريس فانها تدبرت الامر بحكمة ، فأبدت اعتذارها عما حدث ، وارسلت سفينتها المسماة كورير دي لافرانس (Courier de I'France) تعويضا للامام عن سفينته « صالح »[١٣] • وعلى هذا عادت العلاقات حسنة بين الطرفين ، على الرغم من أن السفينة الفرنسية ذهبت في اثناء قدومها غنيمة لاحدى السفن الحربية الانكليزية • ولم تنته قضية التعويض حتى سنة ١٧٩٠ ، عندما ارسلت الحكومة الفرنسية سفينة دخلت في حوزة الامام •

---

(١٢) تضعف هذه التقاليد عند العرب بتقادمهم فى حياة المدن • فهى قوية جدا عند الاكثرية الساحقة من أفراد القبائل ، بينما هى لا تكاد تذكر بين سكان المدن •

(13) Miles, *op. cit.*, II, 277-278.

ولقد كان لحرب السبع سنوات (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، وما اظهرته من تفوق بريطانيا البحري أثر بليغ في توجيه افكار الفرنسيين الى ايجاد طريق برية ملائمة تصل ما بين سواحل البحر المتوسط الشرقية والهند ، حتى انه على أثر ذلك بدأوا البحث في امكان انشاء قناة السويس • غير ان الأمل في نجاح الفرنسيين عاجلا ظهر عند أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، في محاولتهم السيطرة على مصر وسواحل البلاد العربية ، والتحالف مع المملكة الفارسية •

وعلى هذا اشتدت الحركات الفرنسية خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر ، لا في منطقة عمان فحسب بل في مناطق الشرق الاوسط كافة ، وحتى في بعض جهات الشرق الأدنى ، هذا بينما كان النفوذ البريطاني يتضاءل باطراد تجاه ذلك • وما أن نشبت الحرب بين بريطانيا وفرنسا الثائرة سنة ١٧٩٣ ، حتى أخذت هجمات الفرنسيين تزداد شدة على السفن البريطانية في ارجاء المحيط الهندي • وكان من تعاظم غنائمهم انها غمرت أسواق عمان ، وظهر البعض منها للبيع ثانية في كلكتا ، محل تصديرها الاول[١٤] •

غير ان الشيء الجديد الذي ظهر في السنين العشر الاخيرة من القرن لم يكن يتمثل في تلك الغارات البحرية المتعارفة على الرغم من شدتها ، وانما كان يتمثل فيما يدعى بـ « البعثات » الفرنسية ، التي أخذت تتوافد الى بعض الجهات غربي آسيا لاغراض علمية وسياسية ، في سبيل اعلاء شأن الامة الفرنسية بوجه من الوجوه • ولقد كان من نتائج تلك البعثات اقلاق بال الانكليز ، غير ان انتاجها في الحقل الاقتصادي والسياسي لم يكن شيئا

---

(١٤) « الخسارة التى لحقت بالتجارة البريطانية فى المحيط الهندى خلال حكم السيد سلطان مدة عشر سنوات ، من ١٧٩٣ الى ١٨٠٤ ، بلغت ما لا يقل عن ٠٠٠ ثلاثة ملايين باون استرليني » ، راجع :
Miles, *op. cit.*, II, 302

مذكورا . وكان ابرز تلك البعثات هي التي تعهدتها الحكومة الفرنسية ، وقام بها عالمان من علماء الطبيعة ، هما بروغير واوليفير (Bruguiere and Olivier) ، خلال المدة ١٧٩٣ - ١٧٩٨ . ولكم تخوف من هذه البعثة المقيمان البريطانيان المعاصران لها في ابو شهر (Bushire) وفي البصرة ، ظنا منهما أن العالمين الفرنسيين كانا يرومان « التغلغل ... عن طريق بغداد فبلاد فارس فالهند »[١٥] . غير ان المغامرين الفرنسيين لم يقوما في الواقع الا بزيارة تركيا ومصر ، وكانت طهران اقصى ما وصلاه شرقا ، وكان وصولهما اليها سنة ١٧٩٦ ، عن طريق حلب فبغداد . و في الاشارة الى هذه البعثة ذكر اوليفير نفسه انها كانت « ذات أهمية قصوى »[١٦] .

ولكن البعثة هذه ، على الرغم من تعهد الحكومة الفرنسية لها ، وتأكيد اوليفير لاهميتها ، وتخوف الانكليز من خطرها ، لم تكن خارج الحقل العلمي بأهمية تذكر . فبالدرجة الاولى ، وهو ما قد يصدق على غيرها من البعثات ، لم تكن أعمالها تستند الى أساس وخطة مرسومة ، حتى ان زيارتها لفارس ذاتها حدثت نتيجة لفكرة متأخرة . وكانت خلاصة زيارتها للبلاد العثمانية تحبيذها للحكومة الفرنسية القيام باحتلال مصر ، وهذا ما كان نابوليون على وشك القيام به فعلا . أما في البلاد الفارسية فلقد فشلت في محاولاتها استعادة معامل مهجورة ، واقامة أخرى جديدة ، وفي سعيها للحصول على شيء من الامتيازات . ولم تكن بأقل من ذلك اخفاقا

---

(15) Wilson, *op. cit.*, 190 .

وللاطلاع على نبذ عن هذه البعثة راجع :

Ibid, 189-190; Watson, R. A., *A history of Persia, from the beginning of the nineteenth century to the year* 1858 (London, 1866), 99-100.

(16) Olivier, G. A., *Travels in the Ottoman Empire, Egypt and Persia,* "translated from the Frensh" (London, 1801), I, p. XXIX.

في محاولتها اغراء الحكومة الفارسية بالتكاتف مع تركيا في وجه الدولة الروسية[١٧] .

ظهور نابوليون بونابرت

ولكن العاصفة كانت على وشك ان تعصف . فبينما كانت « البعثات » تعكر صفو الانكليز ، وتلك الغارات البحرية تشدد في ازعاجهم ، قام نابوليون بونابرت بحملته على مصر ، فبلغت اعمال فرنسا خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر ذروتها ، ودخلت المنافسة البريطانية-الفرنسية في اعنف أدوارها . وما كان أهم عصر نابوليون في تاريخ الشرق ، لا لما حفل به من حوادث فحسب ، بل لما كان لتلك الحوادث من نتائج بعيدة الغور أيضا . ولقد كان لموقف بريطانيا في وجه تلك الصدمة النابوليونية الاولى من النجاح الباهر ما يدعو الى الاعتقاد بأن ارجحية النفوذ البريطانى في الشرق الاوسط كافة انما تأصلت منذ نهاية القرن الثامن عشر . ولكن الحقيقة ان تلك الارجحية البريطانية لم تتأصل الا بعد ذلك بعشر سنين مترعة بالحوادث الجسام .

٢ - النصر البريطانى الاول على نابوليون (١٧٩٨ - ١٨٠١)

فزع بريطانيا من خطر نابوليون

« سيتجنب بونابرت ما استطاع اخطار البحر اذ لا يألفه ، ولكنه سيحاول معتمدا على جهود نفسه وحماس اتباعه ، ان يحقق غايته بالسير الى حلب فوادي الفرات ، على غرار ما فعله الاسكندر من اتباع مجرى نهر دجلة والفرات حتى الخليج العربي ، والتقدم من هنالك بمحاذاة الساحل الى بلاد الهند »[١٨] .

---

(17) Wilson, *op. cit.*, 189-190; Aitchison, C. U., *Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries* (revised ed., Calcutta, 1909), XII, 7.

(١٨) كتاب هنرى دونداس (Henry Dundas) ، وزير الحربية (بخط يده) الى وزير الخارجية كرانفيل (Lord Grenville) بتاريخ ١٣-٦-١٧٩٨ ، منقول فى المرجع التالى : Wilson, *op. cit.*, 1 n.

ففي هذه النبذة التاريخية فكرة مزدوجة طريفة ، تشير الى أن نابوليون كان يريد غزو الهند ، والى انه كان يرجح القيام بذلك عن طريق البر ، مجتازا الشرق الادنى والاوسط . والفكرة المزدوجة هذه ، وهى التى اعرب عنها وزير حربية بريطانيا ، تعبر بكل ايجاز وبساطة عما كانت تراه بريطانيا من خطر نابوليوني على امبراطوريتها في الشرق . ومهما يكن في هذا الرأي من مبالغة في تقدير الخطر ، فانه ليس هنالك من شك في ان العداء الفرنسى المزمن كان من ذروته الاولى قاب قوسين او أدنى .

وكان موظفو الانكليز في الهند في مقدمة المتخوفين من الامر : « اننا نتطير من الخطر الفرنسى على الهند ... فامبراطوريتنا فى الشرق كانت على الدوام شيئا يحسده الفرنسيون. واننا لعلى علم بما كان لحكومتهم السابقة من آمال فتاكة في امكان الوصول الى الهند عن طريق اقصر من طريق رأس الرجاء الصالح . ولا يخامرنا شك في ان الحكومة الحاضرة لا تحجم عن المجازفة بالكثير ، وحتى عن اتباع أغرب الاساليب وابعدها طموحا ، في سبيل ماتأمله من اضعاف قوتنا وأهميتنا، ان لم يكن القضاء عليها في ذلك الجزء من العالم »[١٩] .

ولقد كان السبب الرئيسى في هذا التخوف الشديد ما قام به نابوليون من غزو مصر . فالحكومة الفرنسية وافقت بعد الدرس الطويل في آذار ، سنة ١٧٩٨ ، على القيام بالحملة على مصر ، وعلى أثر ذلك ابحر رجال الحملة الى مالطة ، ومنها توجهوا بتاريخ ١٩ حزيران الى الاسكندرية فوصلوها في اليوم الاول من شهر تموز[٢٠] . ومن ثم كان التشاؤم شديدا

---

(١٩) « خلاصة كتاب اللجنة السرية فى مجلس الادارة ، الى الحاكم العام فى مجلس البنغال ، بتاريخ ١٨ حزيران سنة ١٧٩٨ » فى المجموعة التالية :

Owen, S. J. (ed.) *A Selection from Wellesley's Despatches* (Oxford, 1877), 2.

وقد ارسلت نسخة من الرسالة الى كل من حاكم مدراس وحاكم بمباى :

(20) Cambridge Modern History, VIII, 594-596, 598, 599.

فيما مر ذكره من عبارات وزير حربية بريطانية ، وموظفي الانكليز في الهند ، تلك العبارات التي هي الاولى من نوعها ، اذ كان صدورها عنهم والحملة الفرنسية في طريقها الى مصر • وما ان تقدم الفرنسيون في مشروعهم حتى تعاظم قلق الانكليز على مملكتهم النائية في الهند ، فهبوا لاستئصال شأفة العدو ، وقاموا بأعمال باهرة في هذا السبيل • على انه يجدر بنا ان نعلم بأن الانكليز بالغوا كثيرا في تقدير ذلك الخطر : فبعد المسافة وصعوبة السفر برا ، وعداء مختلف القبائل على طول الطريق ، وخطر الاوبئة والامراض ، وصعوبة التموين بالذخيرة والعتاد ، كانت جميعها عقبات منيعة في سبيل تحقيق ما قد يطمح نابوليون اليه من نقل مشعل الحرب من وادي النيل الى ربوع الهند •

ومهما يكن من أمر فان حزم رجال بريطانيا تجاه الكارثة كان على مقياس ما توهموه لها من سعة وغور • فلقد نجحوا في استمالة الباب العالي الى جانبهم ، واصبحت لهم السيطرة على مداخل الطريق البري الى الهند • وقاموا في الهند نفسها بما أدى الى تقوية مركزهم وهيبتهم هناك • ثم تمكنوا من عقد اتفاق ودي مع الدولة الفارسية ، ومع عمان ايضا ، أهم دول الخليج • والى ما بين النهرين وجهوا لاول مرة انتباها دبلوماسيا خطيرا •

تحالف بريطانيا والدولة العثمانية سنة ١٧٩٩

فحكومة لندن هي التي تولت أمر التفاهم مع السلطان في القسطنطينية ، بينما تولت حكومة الهند تدبير الموقف في الشرق الاوسط • وعلى هذا تم عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا وتركيا بتاريخ ٥ كانون الثاني سنة ١٧٩٩ ، تألفت من مقدمة وثلاث عشرة مادة • وقد أشارت المقدمة الى ان التحالف انما كان موجها ضد « الاعتداءات العديدة الدنيئة التي قام بها الفرنسيون »• ودلت المادة الاولى على ان المعاهدة كانت على نمط المعاهدة البريطانية ـ الروسية المنعقدة حديثا ، اذ كان القصد تأليف تحالف ثلاثي تكون بريطانيا

حلقة الوصل فيه . وفي المادة الثانية تعهدت بريطانيا وتركيا تعهدا متقابلا بضمان حدود ممتلكات كل منهما « كما كانت عليه قبيل غزو الفرنسيين لمصر » وكانت هذه المادة صراحة هي بيت القصيد(٢١) .

على أن سنة ١٧٩٩ لم تكن في نظر السلطان بأقل تأزما مما كانت عليه في نظر الانكليز . فالحملة الفرنسية تناولت مصر ، وكانت مصر من أهم أجزاء الامبراطورية العثمانية . وهذا ما حدا بالسلطان الى اعلان الحرب على نابوليون ، فما كان من هذا المغامر الا ان يتقدم بجيشه في ربيع سنة ١٧٩٩ لاحتلال منطقة عثمانية أخرى ، هي بلاد الشام ، أملا في التقدم منها الى القسطنطينية . ولكن الآمال لم تلبث ان باءت بالفشل الذريع . فما ان حل خريف ذلك العام حتى كان الاسطول الانكليزي قد سيطر على سواحل مصر وبلاد الشام ، وقطع عن الجيش الفرنسي سبيل المدد . وعلى هذا فر نابوليون من مصر خفية مع نفر من خيرة ضباطه ، فوصلوا فرانسا في ٩ تشرين الاول من السنة نفسها . ولكن القوة الفرنسية التي بقيت في مصر كانت كبيرة ، مما ادى الى استمرار التكاتف البريطاني ـ العثماني . ولم تنته القضية حتى سنة ١٨٠١ ، حينما دخلت مصر حملة بريطانية قادمة من الهند عن طريق البحر الاحمر ، واخضعت الفرنسيين .

ولقد حصل الانكليز بتاريخ ١٠ تشرين الاول سنة ١٧٩٩ نظرا لدفاعهم الحاسم عن سواحل بلاد الشام ومصر ، على « قرار من الباب العالي بمنح السفن التجارية الانكليزية امتياز المتجارة في حوض البحر الاسود » . وكان معظم «القرار» متعلقا بتعزيز التحالف والصداقة بين تركيا وبريطانيا .

---

(٢١) للاطلاع على نص المعاهدة راجع ما يلي :

Parliamentary History XXXVI, 309-312; *Parliamentary Debate*, 1808, *X*, 497 ff.

وهنالك مرجع ثالث يذكر المعاهدة ايضا ، وهذا هو :

British and Foreign State Papers, Vol. I, Pt. I, 768-773.

ولكن مقدمة المعاهدة منقوصة فى هذا المرجع الاخير ، اذ حذفت منها الاشارات المندة بالفرنسيين .

والى ما قامت به بريطانيا من حماية الممتلكات العثمانية اشارت الوثيقة بلباقة، كما انها اشارت « باذن الله » الى استمرار التعاون بين الطرفين في المستقبل ، نظرا الى ان الدور الاول من الخطر النابوليوني لم يكن منتهيا تماما ، ولم يزل السلطان في نظر بريطانيا حليفا لا بد منه .

> ان الصداقة والوئام اللذين سادا منذ زمن قديم بين الباب العالي ذي المجد الدائم ، وبين العرش الانكليزي ، تحسنتا حتى أصبحتا الآن على هيئة تحالف مستند الى أقوى أسس الصدق والاخلاص . وليس هنالك من شك في ان الفوائد التي نجمت عن هذه الصلات اليافعة القوية بين العرشين ، ستعقبهما نتائج حسنة كثيرة في المستقبل باذن الله[٢٢] .

نجاح بريطانيا في الهند

ذلك هو النجاح الباهر الذى احرزه سلاح بريطانيا ودهاؤها في الشرق الادنى ، ولم يكن بأقل منه شأنا ما احرزه في الهند وفي الشرق الاوسط . ففي الهند ، كما في الامبراطورية العثمانية ، كانت سنة ١٧٩٩ حرجة جدا ، وكان النصر لبريطانيا أيضا بفعل السياسة والسلاح ، على يد الحاكم العام القدير اللورد ولزلي (Richard Colley Wellesley) الذي حكم في الهند طيلة المدة (١٧٩٨ - ١٨٠٥) . لقد وصل ولزلي مدينة مدراس بتاريخ ٢٦ نيسان ، سنة ١٧٩٨ ، في طريقه الى كلكتا حيث مقر الحكم ، وأخذ منذ يومه يعمل على ازالة خطرين كانا يهددان الكيان الانكليزي في الهند برمته ، وهما طيبو سلطان (Tippo Sultan) حاكم ميسور (Mysore) وحلفاؤه الفرنسيون الذين استمالوا حتى نظام حيدر آباد الذي كان قبلا صديق الانكليز .

(22) *British and Foreign State Papers,* Vol. I, Pt. 1, 766.

لقد كان طيبو عدو البريطانيين الالد ، وكان قد شن عليهم حربا فلم تنجح الحرب ، فأخذ يستعد للقيام بحملة كبرى . و « المواطن طيبو » على حد التعبير الفرنسي الشائع حينذاك ، كان يعتمد على مساعدة حلفائه الفرنسيين ، خاصة في تدريب جنوده وفي العتاد . وكان للجنود الفرنسيين هنالك نفوذ كبير ، ولو انهم كانوا من حيث القلة زهاء المائة أو ما الى ذلك . وكثيرا ما كانوا يبرزون مع جنودهم الهنود في اثناء المسير ، رافعين علم الثورة الفرنسية ، وعلى ازرارهم نقشت طرابيش الحرية (وليدة الثورة)(٢٣). غير ان رئيسهم النشيط ريموند (Raymond) كان قد توفى عند وصول اللورد ولزلي مدينة مدراس ، فكانت صدفة حسنة للحاكم الجديد . ولكن الموقف لم يكن مما تدبره الصدف الحسنة ، او الاعمال التي تعوزها القوة وبعد النظر .

قضى الحاكم العام بضعة شهور استعدادا للعمل الحاسم ، عقد خلالها محالفات مهمة مع بعض الامراء الهنود ، حتى اذا اتم الاستعداد ارسل الى طيبو انذارا يأمره بالخضوع المطلق . رفض طيبو الانذار ، فتحركت الجنود، فهجم على منطقة ميسور من جهة الشرق جيش كان قدومه من بمباي ، ومن جهة الغرب هجم عليها جيشان ، احدهما بقيادة القائد هاريس (Harris) والآخر مؤلف من جنود الحلفاء الهنود بقيادة الاخ الاصغر للحاكم العام ، المسمى آرثر ولزلى (Arthur Wellesley) ، والمعروف فيما بعد بلقبه الشهير دوق ولنكتون (Duke of Wellington) . وفي ٤ أيار ـ مايو ١٧٩٨ سقطت مدينة سارنغا باتام (Sarringapatam) عاصمة ميسور ، وقتل طيبو ، وتشتت شمل الفرنسيين ، وعادت الصداقة الى ما كانت عليه

---

(23) *Kaye, J. W., The life and Correspondence of Major- General Sir John Malcolm* (2 vols., London, 1856), I, 67-68.

ولزيادة الاطلاع على حركات طيبو الواسعة ، فيما يتعلق بعدائه للانكليز وصداقته للفرنسيين ، راجع رسائله الخاصة فى مختلف انحاء المرجع التالى :
Owen, *op. cit.*, Passim.

قبلا بين نظام حيدر آباد والانكليز[٢٤] •

المعاهدة بين بريطانيا وعمان سنة ١٧٩٨

وعلى هذا أصبح باستطاعة اللورد ولزلي ان يجد في العمل على تقوية الروابط الحسنة مع شاه فارس ، ومع امام عمان الذي لم يكن الاتصال به ناجحا في بادىء الامر • فلقد كان ولزلي قد بعث منذ وصوله الهند رجلا فارسيا يدعى مرزا مهدي علي خان ليكون مقيما باسم بريطانيا في ابوشهر، على ان يعنى في الوقت ذاته بمصالح بريطانيا في عمان • وقد وصل مرزا مهدي مدينة مسقط في ايلول ، سنة ١٧٩٨ في طريقه الى ابوشهر ، وفي اليوم الثاني عشر من تشرين الاول تم على يده عقد أقدم معاهدة بين بريطانيا وعمان بموجبها وافق الامام على أخراج الفرنسيين من أراضيه ونفي سفنهم من موانيه ما دامت الحرب قائمة بين بريطانيا وفرانسا • ووافق بموجبها ايضا على قيام الانكليز بتأسيس معمل لهم في بندر عباس (الميناء الذى كان تحت حكمه) ، وعلى ان تكون لهم فيه حامية يتراوح عدد جنودها بين سبعمائة وثمانمائة رجل من الهنود • وأذن شفاها بتعيين من يمثل شركة الهند الشرقية في مسقط ، للتشاور فيما يتعلق بمصالح الطرفين• وحصل الامام مقابل كل ذلك على العهد بتسهيل شؤون التجارة لافراد رعيته في جميع الاصقاع البريطانية• وعلى هذا كان السيد سلطان، امام عمان طيلة المدة (١٧٩٣ ــ ١٨٠٤) ، « أول من دخل من امراء جزيرة العرب في علاقات سياسية مع انكلترة »[٢٥] •

(١) اندثار المعاهدة :

ولكن الاوضاع في شتاء سنة ١٧٩٨ ــ ١٧٩٩ لم تكن ملائمة لقيام الحاكم العام بضم فارس وعمان الى جانب بريطانيا في صراعها مع فرانسا • وعلى هذا لم تتأسس حينذاك اية علاقة تذكر بين الفرس والانكليز ، كما

(24) Roberts, P. E., *History of British India* (Oxford, 1938). 241-246; Kaye, *op. cit.*, 66-85.

(25) Miles, *op. cit.*, II, 291.

ان معاهدتهم الاولى مع عمان لم تف بالغرض المطلوب • فالمعاهدة ، كما يجدر بنا ان نعلم ، انما عقدت في اثناء اشتداد الحملة النابوليونية على مصر وتعاظم هيبة الفرنسيين ، وفي الوقت الذى لم يكن الحاكم العام قد تغلب بعد على الاخطار المحدقة بمركز بريطانيا في الهند • ولما لم يكن في الوقت ذاته لدى امام عمان اى دافع جوهري للانحياز الى جانب بريطانيا ، فانه اعار اذنا صاغية للفرنسيين ، وسمح لهم ببيع غنائمهم من الانكليز باسعار واطئة داخل بلاده • وكان من موقف الامام حينئذ ما جعل نابوليون بونابرت يعتبره صديقا على طراز طيبو عدو الانكليز الالد ، فيكتب اليه على هذه الشاكلة :

القاهـــرة　　　　**٢٥** كانون الثاني ، **١٧٩٩**

الى امام مسقط

أكتب اليكم هذا لاخبـركم بوصـول الجيش الفرنسـي الى مصر • ولما كنتم صديقا دائما فانه يجب ان تكونوا مطمئنين لرغبتنا في حماية ماعسى ان ترسلوه من سفن تجارية الى السويس • وأنا أرجوكم ايضـا ارسـال الكتاب الذي تجدونه طيا الى طيبو صاحب بأقرب فرصة •

(الامضاء) بونابرت

القاهـــرة　　　　**٢٥** كانون الثاني ، **١٧٩٩**

الى طيبو صاحب

لقد علمتم بخبر وصولي الى سواحل البحر الاحمر على رأس جيش كبير لا يمكن ان يقهر ، راغبا في انقاذكم من نير انكلترة الحـديدي • وها انا مسرع في ابداء رغبتي في استلام اخبار تتعلق بالوضع السياسي الذى اصبحتم فيه • وحتى انني لراغب في ان ترسلوا الى السويس شخصا كفوءا تثقون به ، ليكون في استطاعتي التحدث اليه •

(الامضاء) بونابرت[٢٦]

---

(26) *Quoted in ibid*, 290.

عثر الضـابط ويلسـن (Captain Wilson) ، ممثل بريطانيا في ميناء مخا اليماني ، على ذينك الكتابين ، فأرسلهما الى السلطة في الهند . غير ان الكتابين لا يمكن ان يكونا قد وصلا الى اللورد ولزلي قبل ٤ مايس، سنة ١٧٩٩ ، نظرا لبطء المواصلات وبعد الشقة بين القاهرة وكلكتا . ومعنى هذا انهما وصلا اليه يوما في أوائل الصيف بعد ان تم له النصر على خصميه في الهند ، طيبو والفرنسيين . وكان ذلك (كما نعلم) هو الزمن الـذى اخذ فيه الانكليز يشددون الخناق على نابوليون في مصر وبلاد الشام . وعلى هذا كانت سمعة فرانسا تتضاءل في الشرق خلال صيف سنة ١٧٩٩ ، على عكس ما أصبحت عليه سمعة بريطانيا اذ أخذت تتعاظم هنالك . فكان الوقت ملائما لما أقدم عليه اللورد ولزلي من العودة الى استمالة فارس وعمـان الى الجانب البريطاني . واذا ماكان لكتابي نوبوليون شيء من الاثر في توجيه سياسة الحاكم العام الى الشرق الاوسط ، فان اثرهما في ذلك لا يمكن ان يكون كبيرا ، اذ لم تكن صلة الفرنسيين بالامام وطيبو بالامر الذى تجهله حكومة الهنـد .

(٢) احياء المعاهدة :

ولقد كان الضابط جون مالكولم (Captain John Malcolm) الذي احرز لقب " Sir " فيما بعد ، هو الذى توجه الى فارس برسالة جديدة ترمي على حد قوله الى « مقاومة ما يحتمل ان يقوم به هؤلاء الاوغاد النشيطون ، ذوو الدمقراطية من الفرنسيين » . وكان عليه أيضا أن يضمن مساعدة الدولة الفارسية ضد زمان شاه (عاهل الافغان) اذا ما اعتدى على مناطق الانكليز في الهند . وان يستعيد العـلاقات التجاريـة ويقويها بين بريطانيا وفارس . هذه هي الاسس الثلاثة التي انطوت عليها بعثة مالكولم الى بلاد الفرس[٢٧] . أما فيما يتعلق بدولة عمان فانه كان عليه ان يقوم

---

(27) Kaye, *op. cit.*, I, 89-90.

باحياء معاهدة عام ١٧٩٨ ، وان يحول دون تسرب النفوذ الفرنسي الى تلك المنطقة الاستراتيجية •

ذهب مالكولم الى عمان أولا ليقوم بانجاز مهمته فيها قبل التقدم الى فارس هدف بعثته الاسمى • وما أن تبادل زيارة المجاملة مع حاكم مدينة مسقط حتى اقلع منها مسرعا وراء الامام الذى كان حينذاك يتجول في بعض جهات الخليج • وفي اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني ، سنة ١٨٠٠ ادرك مالكولم سفينة الامام الحربية ونزلها بالقرب من جزيرة هنجام ، فابتدأت المفاوضات على الاثر ، واخذ مالكولم يضرب على اوتار حساسة من ميول الامام ومخاوفه ، ويستغل بلباقة فشل نابوليون في حملته على مصر • فالامة الفرنسية ، كما ذكر مالكولم في حينه ، « هي الامة الفوضوية التي انتهكت حرمة المعاهدات باحتلالها مصر ، فسيطرت بذلك على الطرق المؤدية الى البلدين المقدسين مكة والمدينة ، وكانت دون ما شك تحتفظ بسيطرتها على ذلك لولا فضل الله في تأييد بطش السلاح البريطاني في تلك الاصقاع • فبرحمته تعالى بلغت اندحارات الفرنسيين من الخطر حدا جعل البقية التعسة منهم لا تطمح الى أكثر من التراجع عن مصر بسلام »[٢٨] • أما البريطانيون فانهم ، كما اوضح مالكولم ، كانوا على نقيض ذلك ، فلقد احرزوا انتصارات باهرة على طيبو وحلفائه الفرنسيين في الهند ، ونجحوا في دحر نابوليون في مصر وبلاد الشام ، كما انهم احرزوا قبل ذلك انتصارات باهرة على الهولنديين ، فكانت لهم السيطرة على موانىء الهند الغنية ، وهي الموانىء التي تكون مفتوحة لتجار عمان اذا انعقد بين الامام والانكليز حلف صحيح • أما اذا لم يرغب الامام في مثل هذا التحالف ، واستمر في علاقاته الودية مع الفرنسيين ، فان السلطات البريطانية ستجد نفسها مضطرة الى صد التجار العمانيين عن الموانيء البريطانية كافة ، والى اعتبار عمان دولة غير صديقة •

---

(28) Quoted in *ibid,* 107.

اعار الامام كل ذلك اذنا صاغية ، وهو الذى لم يكن يجهل تبدل الاوضاع . فكان عليه ان يبت في الامر ، وقد بت فيه بسرعة ، فأعيدت معاهدة عام ١٧٩٨ ، مضافا اليها شرط جديد يقضي باقامة ممثل بريطاني في مسقط . وكان في جماعة مالكولم الجراح المساعد بوغل (Assistant Surgeon Bogle) الذي جيء به لغرض التمثيل المقصود ، وعندئذ حل هذا البريطاني محل الطبيب الفرنسي الذى كان الى جانب اعماله الطبية يرعى مصالح الفرنسيين في عمان . وفي هذا الصدد اشار المؤلف كاي (Kaye) سنة ١٨٥٦ الى أنه « يوجد في الشرق لحديقة السياسة البريطانية الواسعة بابان جانبيان ، هما التجارة والطب . واليهما نحن مدينون في الحقيقة بامبراطوريتنا »[٢٩] .

مصاعب (مالكولم) في بلاد فارس

وبعد ان انجز مالكولم مهمته في عمان توجه الى فارس حيث وجد نفسه في وضع غريب التعقيد ، فهنالك اكتشف ان نجاح مهمته يتوقف على تقديم هدايا ثمينة ، وعلى مراعاة تقاليد معقدة التعابير والاشارات ، وخاصة على رفعة المنزلة التي تخوله الاتصال بالشاه . فالموظفون ممن لهم علاقة بالامر ، وعلى رأسهم الشاه ، كانوا يتوقعون هدايا ، كل حسب مقامه ، والهدايا كانت من المنتظر أن تكون فخمة في المناسبات المهمة كالتي جاء مالكولم من أجلها . ولما كان المبعوث البريطاني شديد الحرص على نجاح بعثته فانه عزم اولا على صرف ما يقتضي صرفه ، وثانيا على العناية بمراعاة حذلقة التقاليد والمجاملات المألوفة حينذاك[٣٠] . وعلى هذا استطاع التغلب

(٢٩) المرجع نفسه (Kaye) ، ١٠٦ . وفى صفحاته ١٠٥–١١٠ بحث مفصل لتلك العلاقات بين الانكليز وعمان . وتوجد نبذة عن الموضوع في المرجع التالي : Miles, *op. cit.*, 292-293.

(٣٠) معاطاة الهدايا ، والحذلقة فى المجاملات ، الصفتان اللتان اتصفت بهما المعاملات الرسمية الفارسية حينذاك ، معروضتان بلباقة في كتاب Kaye المذكور آنفا ، فى صفحاته ١١١ – ١١٣ . وللاطلاع على انموذج بارز للاسلوب المألوف فى التعبير الرسمى حينذاك ، راجع مقدمة « المعاهدة النهائية بين بريطانيا وفارس ، عام ١٨١٤ » ، ادناه ، فى اوائل الفصل الرابع .

على عقبتين اساسيتين ، غير انه لاقى في التغلب على العقبة الثالثة صعوبة كبيرة .

فهو لم يكن في نظر الفرس بذي مقام يخوله التفاوض مع أعلى السلطات الفارسية بشأن معاهدة مهمة ، اذ لم يكن هو سوى مبعوث حاكم في الهند ، ولم يكن فضلا عن ذلك بأرفع من مرتبة رئيس (Captain) . فكان التغلب على هذه العقبة الكبرى يبدو ضربا من المستحيل . ولكن مالكولم لم يقف عندها مكتوف اليدين ، وكان من محاولاته في هذا الصدد ما يطول شرحه ، ولا يكاد يقصر ايجازه . فلقد قضى بضعة شهور في جدل محكم ووعد ، ووعيد ، حتى رجحت كفته وسمح له بالتقدم الى العاصمة طهران . فتقدم اليها في ركب فخم كان حسبما رواه لنا مترجم سيرة مالكولم نفسه ، مؤلفا « من ستة وجهاء اوروبيين ، وصبيين مساعدين ، واثنين واربعين جنديا من خيالة مدراس الوطنية ، وتسعة واربعين من أشداء جنود بمباي ، وثمانية وستين خادما وتابعا من الهنود ، وثلاثة ومائة من الحاشية الفارسية ، وست وثلاثين ومائتين من الخدم والاتباع الخاصين بالسادة رجال البعثة »[٣١] . فلا غرابة ان تكون قد نشأت في الهند مشكلة مالية نتيجة لهذا البذخ .

المعاهدة بين بريطانيا وفارس عام ١٨٠١

وصل مالكولم طهران ، ودخل في مفاوضات طويلة عريضة في سبيل عقد معاهدة سياسية ، واخرى اقتصادية ، حتى كان شهر كانون الثاني ، سنة ١٨٠١ ، وتكللت مساعيه بالنجاح[٣٢] . فلقد تم حينئذ عقد المعاهدتين ، ووقع عليهما كل من الحاج ابراهيم خان بالنيابة عن الشاه ، والرئيس جون مالكولم بالنيابة عن الحاكم العام في الهند . وقد تألفت المعاهدة السياسية من مقدمة وخمس مواد ، كانت جميعها تقريبا في صالح الجانب البريطاني ،

---

(31) Kaye, *op. cit.*, 116.

(٣٢) للاطلاع على سير تلك المفاوضات الممتعة على اسهابها ، راجع Kaye ايضا ، ١١٧ — ١٥٤ .

اذ كادت تقتصر على ما كانت ترمى اليه بعثة مالكولم من ضمان صيانة الهند في وجه خطر فرانسا والافغان • فبموجبها تعهد الشاه بتقديم كل ما في وسعه من مساعدة عسكرية لصد ما قد تقوم به أية واحدة من هاتين الدولتين، منفردة او مجتمعة بصاحبتها ، من اعتداء على الهند • وتعهد الجانب البريطانى مقابل ذلك بأن « يحمل وينقل ، ويسلم » الى الجيش الفارسى « أكثر ما في استطاعته من الضروريات ، والذخائر والمؤن » فيما اذا اشتبك الشاه في حرب مع فرانسا ، تنفيذا (على ما يظهر) لتعهده للانكليز(٣٣) • على ان الانكليز لم يتعهدوا بتقديم أية مساعدة للشاه فيما اذا اشتبك في حرب مع الافغان ، كما أن روسيا ، أكبر الدول خطرا على فارس ، لم يكن لها ذكر في المعاهدة • وعلى هذا كانت المعاهدة السياسية نصرا باهرا للبريطانيين(٣٤) وكانت المعاهدة الاقتصادية كذلك ايضا ، ولو أنها لم تبلغ في الاهمية ما بلغته زميلتها • فبموجب الاقتصادية ، أعيدت جميع الامتيازات البريطانية السابقة ، « ومنحت بضع امتيازات أخرى ، وخفض الرسم على ما يشترى من المواد الى واحد بالمائة »(٣٥) •

بدء العلاقات البريطانية بالعراق

وبعقد تينك المعاهدتين في كانون الثاني ـ يناير ، سنة ١٨٠١ ، انتهت مهمة مالكولم بنجاح ، واصبحت كل من فارس وعمان حليفة لبريطانيا العظمى • وكانت لبريطانيا حينذاك علاقات ودية بوادي الرافدين ايضا ،

---

(33) Aitchison, C. U., *Treaties, Engagements and Sanads relating to India and neighbouring countries* (revised ed., Calcutta, 1909), XII, 41-42.

(٣٤) النص فى المرجع نفسه (Aitchison) ، ٣٨ ـ ٤٢ • خلاصة المعاهدة معروضة فى المرجع التالى :
Hertslet, Sir Edward, *Treaties, etc., concluded between Great Britain and Persia, and between Persia and other powers, wholly or partially in force on the 1st April,* 1891 (London 1891), 1.

(35) Aitchison, *op. cit.*, 7.
نص المعاهدة الاقتصادية فى المرجع نفسه ، ٤٢ ـ ٤٦ •

ولو ان العلاقات هاهنا كانت على شاكلة خاصة • فلقد كان القطر تابعا للسلطان اسميا ، ولكنه عمليا كان تابعا لوالي بغداد الذى كانت بيده السلطة العليا في الحقيقة وان لم تكن في الاسم • وقد بلغ من تلك الاوضاع المحلية أن الواليين التابعين له في البصرة والموصل كانا احيانا يتمتعان بقسط كبير من الاستقلال ضمن دائرة نفوذهما • وعلى هذا كان البريطانيون قد اعتادوا الاتصال بالولاة رأسا في تدبير ما يتعلق بهذا القطر من مصالحهم • وكان ولاة البصرة أول من بدأ الاتصال بهم لقربهم من الخليج ، فحصل الانكليز منهم سنة ١٦٣٩ ، ١٧٢٨ ، و١٧٣١ ، على امتيازات كانت على التوالي تتضمن الاذن بانشاء معمل في البصرة أولا ، وحق محاكمة عماله الوطنيين ثانيا ، وتحديد الرسم على البضائع الانكليزية بمقدار ٣٪ من ثمنها ثالثا • واذا لم يكن نص هذه الامتيازات الاولى موجودا ، فانه لدينا ما يكفي للدلالة عليها[٣٦] • وان أقدم ما نجد نصه من الوثائق في هذا الصدد هو ذلك الفرمان الذي منحه والي بغداد ، سليمان باشا ، للانكليز سنة ١٧٥٩ مؤيدا تأييدا صريحا وشاملا جميع امتيازاتهم التي حصلوا عليها قبلا من السلطان[٣٧] •

وقد كان للانكليز فضلا عن ذلك ممثل تجاري في بغداد ، وآخر في البصرة ، أهم مدينتين في نظرهم حتى نهاية القرن الثامن عشر • وكان في البصرة أول ما ارتفع التمثيل (Agency) الى درجة قنصلية ، وذلك بناء على فرمان حصل عليه هنري نيفيل (Henry Nevile) السفير البريطاني في القسطنطينية سنة ١٧٦٤ ، وتعين بموجبه روبرت غاردن (Robert Garden) ممثل شركة الهند الشرقية في البصرة قنصلا في هذه المدينة المهمة • وعلى هذا القنصل الاول ، اقدم القناصل البريطانيين

---

(36) Aitchison, *op. cit.*, XI, 1.

(٣٧) نص الفرمان فى المرجع نفسه ، ٦ • وللاطلاع على الامتيازات الاولى التى منحها السلطان للانكليز ، راجع الكتاب الذى بين ايدينا ، القسم الاول من الفصل الاول •

في العراق ، اغدق ذلك الفرمان السلطانى الحصانة والامتيازات[٣٨] •
أما في بغداد فلم يكن التمثيل البريطاني مستمرا في بادىء الامر، وكان الممثل رجلا ارمنيا سنة ١٧٥٥ ، وانكليزيا بعد ذلك بعشر سنين • ولقد رفض مجلس ادارة الشركة ما عرض عليه سنة ١٧٦٥ بشأن جعل التمثيل مستمرا في بغداد ، ولم يصبح مستمرا هنالك حتى سنة ١٧٨٣ ، وعندئذ شغل المنصب رجل من أهل البلاد[٣٩] •

غير ان اهتمام البريطانين الجدي بمركزهم السياسي في بغداد انما يرجع الى سنة ١٧٩٨ ، حيث تعين لهم في المدينة مقيم منهم (British Resident) « كانت مهمته الرئيسية ايصال الاخبار عن طريق البر ما بين انكلترة والهند ، كما كانت الاستطلاع والاخبار بما يقوم به المبعوثون الفرنسيون تمهيدا لحملة نابوليون المرسومة على الهند ، عن طريق مصر والبحر الاحمر »[٤٠] • ولقد تعاظمت أهمية بغداد دبلوماسيا خلال السنتين اللتين اعقبتا ذلك ، نظرا لاشتداد مقاومة بريطانيا لخطر نابوليون في الشرق • وما كانت سنة ١٨٠٢ حتى حصل اللورد الجين (Lord Elgin) ، سفير بريطانيا في القسطنطينية ، على أمر سلطاني يقضي بقبول هارفورد جونز (Harford Jones) « قنصلا بريطانيا في بغداد وما حولها »[٤١] •

وعلى هارفورد جونز ، أول قنصل بريطاني في بغداد ، اغدق الامر السلطاني الحصانة والامتيازات ، فكان له مثلا حق التجول في القطر متى شاء وحيثما شاء مع الحاشية والاتباع ، كما كانت لـه المساعدة في الحل والترحال • وكان من حسن الصدف لبريطانيا ان سليمان الكبير ، والى

---

(٣٨) نص الفرمان ، مع نص الوثيقة "Certificate" الملحقة به ، وهي وثيقة السفير البريطاني فى القسطنطينية ، معروضة فى المرجع نفسه (Aitchison) ، ٦ ـ ٩ •

(39) Longrigg, *op. cit.*, 188; Aitchison, *op. cit.*, 2.

(40) *Ibid*, 2; Longrigg *op. cit.*, 254.

(٤١) نص الوثيقة بعنوان "Imperial Ottoman Diploma" موجودة فى مجموعة Aitchison المذكورة آنفا ، ٩ ـ ١٠ • اسم الشهر غير مذكور فى تاريخ الوثيقة •

بغداد حينذاك ، كان يذكر صنيعا قديما للممثل البريطاني المستر لاتوش (Mr. Latouche) الذي ساعده في تسنم الحكم سنة ١٧٨٠[٤٢] •
وعلى هذا كان الوالي ، كما كان السلطان ، والشاه ، والامام ، في جانب بريطانيا بصفة قطعية •

خلاصة النصر البريطاني الاول على نابوليون

وفحوى ذلك ان بريطانيا العظمى تمكنت بفضل ما بذلته من جهود عسكرية وسياسية خلال المدة (١٧٩٨ - ١٨٠١) من ان تقضي على ما يحتمل ان يكون هنالك من خطر نابوليون على الهند ، واحرزت فضلا عن ذلك الارجحية على غيرها من الدول الاجنبية في تلك البلاد المترامية ما بين سواحل البوسفور وضفاف الغنج • فكان الباب العالي حليف البريطانيين الصريح ، وكانت لهم السيادة في الهند والارجحية على الفرنسيين فى عمان ، وكانت فارس متعهدة لهم بالمساعدة في الدفاع عن الهند ، وفي بغداد أصبحت لهم لاول مرة قنصلية مهمة • ولو استطاعت بريطانيا الاحتفاظ بهذا النجاح الباهر لتعين حينئذ زمن تأسيس ارجحيتها في ربوع الشرق الاوسط • الا انها سرعان ما اهملت الموقف ، فتدهورت منه • ولم تستقر لها الارجحية هنالك الا بعد صراع آخر مع نابوليون احرزت بنتيجته النصر الحاسم •

---

(42) Longrigg, *op. cit.*, 196, 254.

وللاطلاع على حكم سليمان باشا الكبير ، ذلك الحكم المهم فى تاريخ وادى الرافدين (١٧٨٠ - ١٨٠٢) ، راجع ادناه ، ص١٢٧ مع الهامش •

الفصل الثالث

التنافس البريطاني ـ الفرنسي في الشرق الاوسط
(١٨٠٢ ـ ١٨٠٩)

١ ـ زوال الارجحية البريطانية ، ١٨٠٢ ـ ١٨٠٧

نقطة التحول

لقد بلغ النصر البريطاني الاول على نابوليون ذروته في الحادث الذى يمكن اعتباره في الوقت ذاته بداية الانتكاس ، الا وهو اخفاق مشروع جسيم كان يرمي الى غزو الهند بجنود روسية وفرنسية • وهذا هو مشروع القيصر بولص الاول الذى لم يلبث ان تصالح وتحالف مع نابوليون في كانون الثاني سنة ١٨٠١ حتى بعث اليه في ٢٧ من الشهر ذاته بتلك الخطة الطموحة[1] • على ان قنصل فرانسا الاول وان قبل بالفكرة فانه لم يبلغ من التفاؤل بامكان تنفيذها مبلغ القيصر الطياش ، الذى تعاظمت آماله على أثر ضمه منطقة في كرجستان دون حرب ، وكانت جنوده القوزاق (Don Cossack) متجهة فعلا الى الهند عندما صرعته المنية على أيدي المغتالين في يوم ٢٣ آذار سنة ١٨٠١ ، وانتهى بموته أجل المشروع • وفي هذا الصدد يقول احد الضليعين بالشؤون الفارسية « ان الخطة لو ظهرت

---

(١) كانت الخطة تقضي بان يتقدم جيش روسي بقيادة نورينك (Knorring) من اورنبورغ (Orenburg) فى اتجاه بخارا وخيوا • وأن يتقدم جيش فرنسي بقيادة مسينا (Massena) فى اتجاه مجرى الدانوب الى تاغانروغ (Taganrog) ، ومن ثم عن طريق نهر الدون (Don) والفولغا الى استراخان ، حيث يتصل بالجيش الروسي ، فيتقدم الجيشان فى طريق هرات الى قندهار » • راجع :
Cambridge Modern History, IX, 47-48.

يوما الى حيز التنفيذ لانتهت حتما بكارثة ، لا لندرة المؤن وتفشي الامراض فحسب ، بل لهجمات القبائل المحلية ولبعد المسافة من باريس ومن الفولغا الى الهند »[٢] .

ومهما يكن من أمر فان نابوليون كان يعتبر القيصر حليفا لا يستغنى عنه في النضال ضد بريطانيا شرقا وغربا ، فكان فقده من قبيل الكارثة لنابوليون ، حتى أنه عزا الاغتيال لدسائس البريطانيين . وليس بالغريب أمر هذا الاهتمام ، ذلك لان مقتل القيصر ذهب بآخر آمال نابوليون في تحقيق مشاريعه المتعلقة بمصر والهند . كما ان فقدانه بالاضافة الى هجوم البريطانيين على كوبنهاغن قضى على « الحياد الشمالي المسلح » ، الذى كان يتألف من روسيا والسويد والدانمارك لمنع بريطانيا من تفتيش سفنهم اعتباطا قصد الحيلولة دون وصول البضائع المحرمة (Contraband) الى فرانسا . ففي سنة ١٨٠١ تم الاتفاق في هذا الصدد بين بريطانيا والسويد والدنمارك ، وفي ١٧ تموز من السنة ذاتها تم الاتفاق بين بريطانيا وروسيا . « وعلى هذا » كما اوجز دويتش (Deutsch) في تبيانه « كانت فرنسا قد اضطرت الى الانكماش على نفسها من جميع الجهات — وأصبح لا بد لها من الصلح دون النصر »[٣] .

صلح اميان المضطرب

فلقد كان لاخفاق محاولات نابوليون جميعها في التغلب على بريطانيا اعظم الاثر في عقده معها صلح أميان (Peace of Amiens) سنة ١٨٠٢. أما في نظر البريطانيين فان نابوليون لم يعد حينئذ ذلك الخطر الهائل على الهند ، وهم وان لم ينكروا استمرار خطره على مصالحهم في الشرق فان تقديرهم لذلك أصبح أقل بكثير مما كان عليه سنة ١٧٩٨ . هذا مع العلم

(2) Sykes, *op. cit.*, II, 300.

(3) Deutsch, H. C., *The Genesis of Napoleonic Imperialism* (Harvard University Press, Cambridge, 1938), 22.

وعن خطورة وفاة القيصر فى نظر نابوليون راجع المصدر نفسه ، ص٢١ .

بأن الجهة المعارضة في البرلمان صرحت ابّان مفاوضات الصلح بعدم اطمئنانها لنوايا نابوليون • فكان ما كان من تصريح الايرل كارليل (Earl Carlisle) في مجلس اللوردات ، والمستر ايليوت (Mr. Eliot) في مجلس العموم بان الخصم كان في اثناء فترة المفاوضات يشحن كميات كبيرة من العتاد الى بلاد الهند ، وانه ، كما انذر المستر اليوت عن حكمة ، انما كان يريد تخدير اعصاب البريطانيين بطمأنينة زائفة تمكنه في الوقت الملائم من انزال الضربة القاضية على قلب الامبراطورية • غير ان الحكومة البريطانية على الرغم من اعترافها بسوء نوايا نابوليون كانت تميل الى عقد الصلح معه باعتبار ذلك اهون الشرين • وعلى هذا فانها « اعتمدت على ثقة المجلس بها في الامر لان القضية كانت في حينه من الدقة بحيث لم تكن لتسمح بالايضاح الكامل »(٤) • وعندئذ تم عقد الصلح وشرع نابوليون (بعد ما كان من أمر اندحاره في ربوع الشرق الادنى) يعمل على انشاء مافي استطاعته انشاؤه من القواعد لضرب المصالح البريطانية في الشرق على وجه الاجمال •

فكانت الامبراطورية العثمانيــــة اولى مناطـق النشـاط النابوليوني الجديد ، وكانت الامبراطورية هذه تشمل جميع القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط • وما ان اشرفت سنة ١٨٠٢ على الانتهاء حتى كان الموظفون الفرنسيون منبثين في مختلف الارجاء ، جادين في استمالة الوجهاء والحكام ، ومرسلين الى فرانسا بتقاريرهم الضافية عن مناطقهم المتفرقة(٥) • وسرعان

---

(4) *Parliamentary History of England, XXXVI,* 1801-1803, 312-314.

(5) *Authentic official documents relative to the negotiation with France* (Chapple, London, 1803), ''Declaration,'' III-XVI.

« التصريح » المشار اليه فى هذا المرجع بكلمة ''Declaration'' انما هـــو بمثابة مقدمة لمجموعة السجلات الرسمية المتعلقة بمفاوضات الصلح ، وفي التصريح نفسه تبيان للمشاكل الرئيسية التي ادت الى انقطاع العلاقات البريطانية الفرنسية خلال سنة ١٨٠٣ • وليست الحقائق فى هـــذا « التصريح » مختلطة بالآراء •

ما أدت هذه الاعمال الى استياء البريطانيين ، فكانت من أهم اسباب انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين • على ان السبب المباشر لاستفحال العداء بينهما من جديد يرجع الى تقرير الكولونيل هوراس سباستياني (Colonel Horace Sebastiani) ، المبعوث الفرنسي القدير الذى تجول في ربوع مصر وبلاد الشام خلال شهري تشرين الاول والثاني سنة ١٨٠٢ واتصل هنالك بالشخصيات المهمة ، وجمع معلومات قيمة عن قوة العثمانيين والبريطانيين العسكرية في تلك الربوع • فلقد رعنت جريدة المونيتور (Moniteur) الفرنسية بنشرها تقرير سباستياني عن رحلته الخطيرة ، فكان لذلك ابلغ الاثر في اثارة الرأي العام البريطاني [٦] الذى اسهبت الصحافة في التعبير عنه ، مما أيد عزم الحكومة على اتخاذ موقف حازم ضد تدابير نابوليون • فما كان من صلح أميان الهزيل الا ان يتلاشى خلال سنة ١٨٠٣ تجاه تلك المخاوف الشديدة والمصالح المتضاربة ، وعادت الحرب جذعة بين الطرفين •

خسارة بريطانيا لثقة الفرس

وعندئذ كانت بلاد فارس أولى المناطق التي وجه نابوليون همه اليها في الشرق الاوسط خلال السنوات التالية • فلقد أهمل البريطانيون شأن البلاد الفارسية عن انانية وقصر نظر ، هذا بعد أن لم يكن قد مضى وقت طويل على استمالتهم الشاه وتظاهرهم بالصداقة والاخلاص له ، واغرائه ، كما نعلم ، بالتوقيع مع مالكولم في كانون الثاني سنة ١٨٠١ على معاهدة ضمنت لهم امتيازات وافية ، ووعدا بالمساعدة التامة في الدفاع عن الهند ضد ما يحتمل وقوعه من هجوم الفرنسيين او الافغان او كلا الاثنين • واستنادا

---

(٦) للاطلاع على التقرير بالانكليزية راجع المصدر المذكور آنفا ، الملحق الاول ، ص‌ص١ — ١٠ • وعن تأثيره فى الرأى العام البريطانى راجع ما يلي :
Coquelle, P., *Napoleon and England,* 1803-1813 (English translation by Gordon Knox, London, 1904), Ch. IV, 28-36.

الى صداقتهم المزعومة ، قام الشاه خلال سنة ١٨٠٢ بارسال بعثة الى الهند برئاسة الحاج خليل خان ، فلما حدث ان قتل الحاج فى اثناء السفر بسبب معركة نشبت بين خدمه وحراسه ، اعربت الهند عن مزيد اسفها لذلك الحادث ، وخصصت لابن المتوفى راتبا شهريا قدره ٢٠٠٠ روبية (زهاء ١٥٠ دينارا) يتمتع به مدى الحياة[٧]. غير أن سياسة التودد هذه دامت مادام البريطانيون يعتقدون بضرورة التحالف مع الفرس في سبيل الدفاع عن الهند . فلما توهموا بأن الخطر النابوليوني تقلص حتى لم يعد يتعدى اوروبا والشرق الادنى ، أهملوا العلاقة بالفرس ، حتى أن المبعوث الفارسى الى الهند في سنة ١٨٠٥ ، وهو صهر المبعوث المتوفى الحاج خليل ، اضطر الى العودة الى وطنه في بحر سنتين متعثرا باذيال الخيبة ، فلقد اصبح « عدم الاهتمام سائدا في كلكتا » تجاه الدولة الفارسية[٨] .

غير ان النصر الذى القى فى قلوب البريطانيين شيئا من الطمأنينة الزائفة وأدى بهم الى عدم المبالاة بحلفائهم الفرس كان له خلاف ذلك الاثر في نفس المغلوب . فلم يكد ينتهي صلح أميان حتى وجه نابوليون همه للمرة الاولى صوب الدولة الفارسية بصورة جدية . ففي هذه الجهة ، كما في الجهات الاخرى من الشرق الادنى كان لنابوليون منذ النصر البريطاني الاول (١٧٩٨ - ١٨٠١) عمال ينقلون اليه الاخبار . ولقد اوعز في ايلول سنة ١٨٠٣ الى تاليران (Talleyrand) بأن يكون على صلة تامة بأحوال الفرس السياسية والاقتصادية ، ثم فى ربيع السنة التالية نظر باهتمام في قضية ارسال من يمثله في تلك الديار لجمع المعلومات الصحيحة من مصادرها الاولية[٩] . غير ان الوضع الفارسي لم يكن قد تهيأ

---

(٧) « ولقد عاش متمتعا بهذه المنحة خمسة وستين عاما ، وتوفى فى باريس حيث كان يحضر كل حفلة من حفلات الاوبرا طيلة خمسين عاما » . راجع : Sykes, *op. cit.*, 302 n.

(٨) المصدر نفسه ، حاشية صفحة ٣٠٢ .

(9) Shupp, F. P., *The European Powers and the Near Eastern Question*, 1806-1807 (New York, 1931), 433; Sykes, *op. cit.*, II, 303.

بعد للانحياز الى الجهة الفرنسية ، فلم يكن هنالك عدوان أجنبي ، ولم يكن الشاه قد تحول بعد عن الثقة بصداقة البريطانيين في الوقت العصيب .

ولم تلبث ان انكشفت الحال خلال سنة ١٨٠٥ عندما منى الشاه (فتح علي) بخسائر فادحة على أيدي الروس ، اذ انتزعوا منه باكو وداغستان ، وهددوا ملكه بأكثر من ذلك ، وهو في محنته هذه لم ير ما يدل على احتمال تقديم البريطانيين أية مساعدة اليه . وعبثا دفع به اليأس الى التشبث بمعاهدة سنة ١٨٠١ ، هذه المعاهدة التي لم تكن لتضمن له المساعدة ضد روسيا ، لا بل ولم تكن لتضمن له في الحقيقة أية مساعدة كانت[١٠] . والمعاهدة هذه ، كما يجدر بنا ان نلاحظ عرضا ، كانت خير مثل للدبلوماسية الحديثة التي كانت بزعامة بريطانيا تستحيل سراعا الى « فن » يستند الى القواعد التالية : الحصول على أكثر ما يمكن ، والتنازل عن أقل ما يمكن ، تحت ستار الصداقة أو غير ذلك . ومهما يكن من أمر فانه بناء على نص المعاهدة ، وان يكن خلافا لفحوى مقدمتها ، لم يكن الشـاه ليتوقع المسـاعدة من البريطانيين ضد الروس[١١] . وعلى هذا فقد اضطر الى طلب المعونة من المرجّى نابوليون .

استمالة كل من فارس وتركيا

فما كان من نابوليون ، جوابا على رسالة تلقاها من الشاه ، الا أن بعث الى فـارس كـلا مـن آمـادي جـوبير (Amedée Jaubert) والقـائد المسـاعد روميـو (Adjutant General Romieu) ليتولى

---

(١٠) راجع اعلاه ص٧٨ _ ٧٩ . لقد تعهد البريطانيون بأن يرسلوا له أقصى « ما في وسعهم » من الذخيرة . فلم يكن بطبيعة الحال ليغرب عن بال المحنك مالكولم بانه اذا ما اقتضى الامر فان البريطانيين هم الذين يعينون مقدار « ما فى وسعهم » ارساله للشاه ، اذا أرادوا ارسـال أي شيء اليه .

(١١) لم يكن البريطانيون قد وصلوا دور التخوف من حركات روسيا تجاه الدولة الفارسية . فلقد كانت روسيا جارهم الشرقي الذى لا يخشى منه ، وظلت كذلك فى نظرهم الى ما بعد زمن نابوليون . راجع ادناه ، ص١٤٥ وما يليها .

الاول الناحية السياسية من البعثة ، ويعنى الثاني بناحيتها العسكرية • فكان وصول جوبير بلاد فارس في حزيران سنة ١٨٠٦ متأخرا بضعة أشهر عن وصول صاحبه اليها ، وذلك بسبب ما لقيه من حجر عند مروره في البلاد العثمانية • على أن روميو عاجلته المنية ، فاضطر جوبير الى القيام وحده بجميع شؤون البعثة • وعندئذ كان الوقت ملائما لنجاح مهمة المبعوث الفرنسي ، نظرا لاندحار الفرس تجاه الروس في عسكران (Askeran) وخسارتهم باكو ، وداغستان ، ونظرا الى مضي سنتين على طلب الشاه النجدة من بريطانيا دون جدوى[١٢] • واخيرا استقر عزم الشاه على التحالف مع الأمة التي اشمأز من قيامها حديثا باعدام ملكها ، وتمت المفاوضة مع جوبير بشأن معاهدة تمهيدية سافر هو على أثرها مع الممثل الفارسي الى اوروبا ، الى مقر تاليران في فنكنشتاين (Finkenstein) ، للمصادقة النهائية •

وفي هذه المرحلة كانت السياسة النابوليونية في الشرق الاوسط تهدف الى عقد حلف هجومي ودفاعي بين فرانسا وتركيا وفارس ضد انكلترة وروسيا • وكانت الدولتان العثمانية والفارسية تخشيان مطامع روسيا وتأملان في الوقت ذاته استرجاع بعض المناطق التي انتزعتها منهما ــ فالعثمانية أملت استرجاع الافلاخ والبغدان (Wallachia & Moldavia) والفارسية استرجاع جورجيا • وعلى هذه الاوتار الحساسة من مخاوف ومطامع ضرب نابوليون بكل مهارة في سبيل الوصول الى غايته ، الا انه لم يبلغ نجاحا يذكر حتى سنة ١٨٠٦ • ففي هذه السنة كما علمنا الآن قام جوبير ببعثته ، وفي ٢ أيار من السنة ذاتها تعين السياسي الفرنسي المحنك ، الجنرال سباستياني سفيرا الى القسطنطينية • ولم تكن مهمة هذا السفير تقتصر على عقد حلف بين فرانسا وتركيا ضد انكلترا وروسيا ، بل كانت تهدف أيضا الى اغراء تركيا بتقديم المساعدة العسكرية الى الدولة الفارسية

(12) Sykes, *op. cit.*, II, 304; Aitchison, *op. cit.*, XII, 7-8; Shupp, *op. cit.*, 434.

في نضالها ضد الروس .

ولقد ثابر السفير سباستياني على العمل بكل مهارة في سبيل نجاح مهمته التي تصدت بريطانيا للحيلولة دون نجاحها[١٣] . وكان له في تأييد نابوليون عون كبير على ذلك ، حتى ان العاهل الفرنسي كتب الى الشاه بتاريخ ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٠٧ يخبره بأن الوقت قد حان لقيام فارس باسترجاع منطقة جورجيا بمساعدة فرنسا وتركيا . وكتب في ٢٠ من الشهر ذاته الى السلطان يحثه على التعاون مع فرانسا والدولة الفارسية ضد روسيا ، عدوتهم جميعا . وفي الوقت ذاته كتب الى سفيره الذي اصبح أهم الدبلوماسيين الاجانب في القسطنطينية ، يأمره بالالحاح على السلطان لمساعدة الشاه عسكريا في صراعه مع القيصر . فكان نتيجة لدهاء سباستياني وهيبة عاهله (التي تعاظمت على أثر انتصارات عسكرية باهرة) أن اقترب النفوذ النابوليوني من ذروته في كل من تركيا وبلاد فارس عند مفتتح سنة ١٨٠٧ . وما أن أوشك الشهر الثاني من السنة ذاتها على الانتهاء ، حتى كان المفاوضان العثماني والفارسي في مدينة وارشو ينتظران وضع الاسس في معداهدات كان يؤمل منها ان تضمن لنابوليون اهدافه الرئيسية[١٤] . فكانت لهذا المنحى نتائج خطيرة نجدها فيما يلي بشيء من التفصيل .

اخفاق مفاوضات الصلح الانكليزية ـ الفرنسية عام ١٨٠٦

لقد مرت المقاومة البريطانية لنابوليون في أضعف أدوارها في الوقت الذي كان نفوذه يقترب من ذروته في الشرق والغرب ، حتى حدث خلال معظم سنة ١٨٠٦ أن أخذت مفاوضات الصلح تجرى بين الطرفين على الرغم من ضربات نابوليون القاسية في اوروبا ، ونواياه السيئة في الشرق .

---

(١٣) للاطلاع على تفاصيل هذه الناحية الدبلوماسية راجع : (Shupp, op. cit.) المختص بالتاريخ الدولي للشرق الادنى خلال المدة (١٨٠٦ ـ ١٨٠٧) .

(١٤) شوب (shupp) ايضا ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ . عن مهمة سباستياني راجع المصدر نفسه ، ص ٧٥ ـ ٧٧ ، وعن ازدياد نفوذه لدى الباب العالي ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

فالبريطانيون أرادو ، على ما يظهر ، أن يتخلصوا من شر هذا المغامر عن طريق التفاهم معه على أساس يكون ضامنا لمصالحهم . أما البداية الصريحة لتلك المفاوضات فانها كانت في خطاب القاه نابوليون في المجلس التشريعي بتاريخ ٢ آذار سنة ١٨٠٦ ، حيث قال ، وهو الظافر « انني أرغب في السلم مع انكلترة . ومن جانبي سوف لا أتأخر عنه لحظة . وانني مستعد دائما لعقده على أساس شروط صلح أميان » . ولقد ارسل تاليران وزير خارجية فرانسا هذا التصريح الى فوكس (Fox) وزير خارجية بريطانية بعد القائه بثلاثة أيام مضيفا اليه العبارة التالية : « يظهر لكم من هذا اننا لانزال نرغب في السلم . ولست بسائل عن الميل السائد عندكم . فاذا تقدرت فوائد الصلح حق قدرها فانتم تعلمون على أي أساس يمكن البحث فيه »[١٥].

يتضح من رسائل تاليران هـــذه ، ومن الظروف التي كانت تحيط بنابوليون ، أن فرنسا لم تكن بوجه من الوجوه مضطرة الى التصالح . ويتضح من جواب فوكس على تلك الرسالة أن بريطانيا لم تكن في الوقت ذاته بأقل من فرانسا رغبة في السلم[١٦] . ومع هذا فان الجانب البريطاني أظهر ما يزعج من عدم الاكتراث بنجاح المفاوضات ، فكان ذلك سببا لا يستهان به في عدم نجاحها . ومن هذا القبيل كان ما ذكره لاودرديل (Lauderdale) الوزير البريطاني المفوض في باريس ، تعليقا على تباطؤ المفاوضات في احدى مراحلها المتأخرة ، فلقد ورد فيما كتبه بتاريخ ٧ آب الى وزير الخارجية البريطانية بانه مهما يكن من أمر فان الفرنسيين هم الذين طلبوا الصلح[١٧] . ولكن الوزير فوكس كان يعلم حق العلم بانه

---

(15) *Great Britain, Parliamentary Papers, Miscellaneous* (22nd December, 1806), No. I, p. 4.

وفى هذا المصدر توجد المراسلات الدبلوماسية المتعلقة بمفاوضات الصلح هذه ، مدونة باللغتين الانكليزية والفرنسية ، ص ١ – ١٥٩ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٥ – ٦ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٧١ .

هو الذى حاول التقرب من نابوليون قبل ان يلقى هذا في المجلس التشريعي الفرنسي خطابه المعهود[١٨] .

فالواقع هو ان الوضع العسير الذى كانت فيه بريطانيا حينذاك لم يكن يختلف كثيرا عن الوضع الذى كان فيه نابوليون قبيل صلح أميان . ولكن المفاوضات في هذه المرة عقمت فلم تأت بما يشبه الصلح ، ذلك لان موقف بريطانيا الذى لخصه ممثلها بالعبارة اللاتينية (Uti possidetis) بمعنى (القديم على قدمه) كان يختلف جوهريا عن موقف فرانسا من هذا المعنى . فلما حل شهر آب اصبح واضحا بانه كان من العبث الاستمرار بالمفاوضات[١٩] . ولما طلب لاودرديل جواز السفر في أواخر ايلول اعتبر تاليران هذا الحادث خاتمة المفاوضات . غير ان لاودرديل الذى لم يتزحزح عن طريقته الدبلوماسية ارسل « مذكّرة » مسهبة الى الوزير الفرنسي ورد فيها « أنه يجد شيئا من الصعوبة في تصور ماهية الظروف التي مكنت معاليه من الاستنتاج بأن الحكومة البريطانية قد اعتزمت الاعراض عن توقع السلم »[٢٠] . ولئن احجمت الحكومة البريطانية عن البت في الامر لشدة

---

(١٨) ومن اطرف ما يروى فى معرض الرسائل الدبلوماسية تلك الرسالة المؤرخة فى ٢٠ شباط سنة ١٨٠٦ ، التى ذكر بها فوكس الى تاليران قصة رجل متهم بالتآمر على حياة نابوليون : خلاصتها ان المتهم طلب مقابلة وزير الخارجية ، فاجيت طلبه ، فكانت مقابلة منعزلة مؤثرة ، وكان افتضاح السر الرهيب . فما كان من المستر فوكس وقد اشمأز من « وقاحة » ذلك « النذل » ، الا ان يأمر باقصائه الى « ميناء ابعد ما يكون عن فرانسا » . أما عن هوية المتهم فالظاهر ان المستر فوكس نفسه لم يكن يعلم شيئا . ولقد اكتفى نابوليون جوابا على تلك الرسالة الودية الغريبة بأن اوعز الى تاليران قائلا : « اشكره بالنيابة عنى » . راجع المصدر نفسه ، ص ٢ ـ ٣ .

(١٩) يجد القارىء موقف الجانب البريطانى بشىء من التفصيل فى « مذكّرة » Note (بتاريخ ٧ آب سنة ١٨٠٦) موجهة من لاودرديل الى وزير الخارجية البريطانية . راجع المصدر نفسه ، ص ٦٣ ـ ٧١ . ومما يجدر بالذكر ان العبارة (Uti possidetis) وردت في هذه الرسالة وحدها ست مرات .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ .

تباطئها أو لفرط حذرها ، فان تاليران لم يتقاعس عن اعطاء القرار الحاسم ، وعندئذ كان دخول الحرب بين الطرفين اخطر أدوارها .

خسارة بريطانيا فى وادى الرافدين ، وفى الخليج العربى

ومما يجدر بالملاحظة هو أن بريطانيا اذ أبدت شيئا من المقاومة لاعمال نابوليون في أوروبا والشرق الادنى خلال المدة (١٨٠٢ - ١٨٠٦) فانها لم تبد خلال هذه المدة شيئا يذكر من المقاومة لاعماله في ميدان الشرق الاوسط. وان حكومة الهند المسؤولة بالدرجة الاولى عن شؤون هذا الميدان لم تكن بأقل اهمالا ، وان كانت أشد تقصيرا من حكومة لندن في هذا المضمار . ولقد مر بنا تقصيرها تجاه الدولة الفارسية وما نجم عن ذلك من ارتماء الدولة في احضان نابوليون . أما فيما يتعلق بربوع الرافدين فانها وان لم تكن بعد قد احتلت محلا ممتازا في نظر السياسة البريطانية ، فانه حدث فيها أيضا ما لا يتفق ومصلحة بريطانيا . ذلك أن صديقها سليمان باشا الكبير ، صاحب النفوذ الاعلى في ولاية بغداد أبان النصر البريطاني الاول على نابوليون ، توفى يوم ٧ آب سنة ١٨٠٢ ، واضطرب حبل الامن من بعده ، فأصبحت الظروف المحيطة بالقنصل البريطاني هارفورد جونز (Harford Jones) الذي بقي في بغداد حتى سنة ١٨٠٧ لا تختلف عما كانت عليه قبلا من الفوضى وعدم الاستقرار .

وأما فيما يتعلق بدولة عمان فان الوضع ها هنا كان يختلف عما كان عليه في بلاد فارس أو في الدولة العثمانية التي كانت تضم العراق . ذلك لان أمام عمان لم يرغب يوما ما في عقد معاهدة مع أية دولة اوروبية ، وهو بوصفه محايدا اتخذ موقفا معقولا من كلا الجانبين ، البريطاني والفرنسي . فكان همه أن تبقى أسواق عمان مفتوحة لبضائع الطرفين على حد سواء ، وأن تباع بضائع بلاده لكليهما دون محاباه . ولكم دافع عن التجار الانكليز الذين هجمت عليهم السفن الفرنسية بالقرب من سواحل بلاده . ولكنه كان يرفض لهم رجاء معاداة الفرنسيين ، كما انه كان يرفض للفرنسيين عكس

هذا الرجاء • غير ان الحياد المتزن لم يكن مما يرضى به الطرفان المتعاديان اللذان لم يكن في استطاعة أي منهما قبل نهاية القرن الثامن عشر اجبار الامام على تبديله • ولم تكن المعاهدة الاولى التى عقدها البريطانيون مع الامام سنة ١٧٩٨ أكثر من حبر على ورق • غير ان نجاح سياسة بريطانيا وسلاحها في الشرق والغرب خلال السنتين التاليتين اضطر الامام للانصياع لتهديدات مالكولم الخفية ، فتجددت المعاهدة الاولى بين الطرفين خلافا لمصلحة الفرنسيين[٢١] •

فلما تبدلت الظروف التي الجأت الامام لقبول المعاهدة عن غير رغبة منه ، كان طبيعيا ان يرجع هذا العاهل الى سالف عهده من عدم الترجيح بين الطرفين خلال فترة الانتكاس التي شهدت ضعف النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط على وجه الاجمال • ولكنه ظل ملتزما جانب الحكمة في هذه الفترة ، اذ لم ينجذب الى جانب الفرنسيين • فلقد حدث سنة ١٨٠٣ أن أرسل نابوليون قائده القدير ديكان (Decaen) للاطلاع على وضع الانكليز في الهند ، وعلاقتهم بالامراء الهنود ، واكتشاف طريقة ناجحة للهجوم على المعقل البريطاني[٢٢] • وبعد ان زار القائد مدينة بونديشري قفل راجعا الى مقره في جزيرة موريشياس (Mauritius) • وحدث في اثناء ذلك أن بعث نابوليون شخصا تابعا لديكان ، هو المسيو دى كافينياك (M. de Cavaignac) ليكون قنصلا لفرانسا في عمان • فلما وصل كافينياك مدينة مسقط ولم يجد الامام هناك ، أخذ يتصل بالمتنفذين من رجال البلد وتعرف على عدد غير قليل منهم خلال الايام العشرة التي سبقت عودة الامام ، حتى ظهر كأن النجاح في متناول يديه • وما أن عاد العاهل الى عاصمته حتى رفض بكل لطف مقابلة كافينياك مشيرا الى ما بين عمان وبريطانيا من عهد • فما كان من الممثل الفرنسي الا أن يبحر وفي قلبه

---

(٢١) راجع اعلاه ، ص٧٥ •

(22) Prentout, *op. cit.*, Passim.

حسرة ، وكان ذلك في منتصف ليلة ١٣ تشرين الاول سنة ١٨٠٣[٢٣] •

ومع ذلك فان عمان لم تكن ضد الفرنسيين وأن اسواقها عادت مفتوحة لتجارهم كما كانت مفتوحة للتجار الانكليز ، وكان لاهالي عمان الخيار في البيع والشراء مع ايهما شاؤا • غير أن في هذه السياسة المتزنة صدمتين للبريطانيين ، أولا لأنها أهملت ما ضمنته المعاهدة لهم من ارجحية ، وثانيا لان في تلك المساواة فائدة للفرنسيين نظرا لرخص بضائعهم التي كان معظمها اسلابا من السفن البريطانية • ولقد بلغ انتشار المبيعات الفرنسية بين قبائل عمان مبلغا دعا اللورد فالتتينا (Lord Valentina) الذي زار هذه الاصقاع خلال المدة (١٨٠٢ - ١٨٠٦) أن يعتبر تلك القبائل محالفة للفرنسيين • وفي تلك الآونة كانت قبائل الجواسم المتنفذة (وهي الجواسر حسب قول فالنتينا) المنتشرة على سواحل الخليج شمالي عمان ، قد رجعت الى سابق قرصنتها الفعالة ضد التجارة البريطانية • « وقد بلغت قواها البحرية » كما ذكر فالنتينا ، « شأوا كبيرا بسبب اصطبار حكومة بومباي المستمر ، حتى أصبح لها ما لا يقل عن خمس وثلاثين سفينة مختلفة الحجوم ، في كل منها ما بين الخمسين والثلثمائة من الرجال »[٢٤] •

مفاوضات فرانسا مع كل من تركيا ، وفارس

غير أن الخسارة الكبرى التي اصابت نفوذ بريطانيا وسمعتها لم تكن

---

(23) Miles, *op. cit.*, II, 299-301.

(24) (Anonymous) Review of Lord Valentina's, G. V., Voyages and travels, 1802-1806 (3 vols., London, 1809), (*The Quarterly Review*) (1809), II, 124.

والتقريض المسهب لكتاب فالنتينا يشغل زهاء اربعين صفحة من صفحات المجلة المشار اليها هاهنا (ص ٨٨ الى ١٢٦) • ولقد ورد فى أواخر هذا التقريض ص ١٢٥ من المجلة نفسها ما يجدر بالانتباه عن وادى النيل : « فمن مصر كان هجوم الاتراك على البرتغاليين في الهند - ومن مصر حدث ان دهمنا الخطر • ولن يغرب هذا القطر عن بال فرانسا التى ستحتله عاجلا ام آجلا ، ما لم نأخذه نحن لانفسنا » • وفي مثل هذه الاشارة يتضح اثر حركات نابوليون الشرقية فى توجيه اهتمام البريطانيين الى وادى النيل •

في ميدان الخليج العربى أو فيما بين النهرين ، وانما كانت في تركيا وفي البلاد الفارسية • ففي هاتين المملكتين ، كما نعلم ، استطاعت فرانسا خلال سنة ١٨٠٦ أن تصبح ذات الحظوة بدلا من بريطانيا • ثم في مفتتح سنة ١٨٠٧ ، على أثر فشل مفاوضات الصلح الفرنسية البريطانية ، اعتزم نابوليون على توطيد علاقاته بكل من تركيا وفارس على أساس تعاهد يضمن التعاون الفعلي التام ضد عدوتيه الخطيرتين ، بريطانيا وروسيا • وفي أواخر شهر شباط كان المفاوضان العثماني والفارسي في مدينة وارشو ، على مقربة من معسكر نابوليون ، في انتظار الصفقة التي بلغ بها نابوليون أقصى مداه في كلتا المملكتين ، وبلغت به أواخر عهده ببلاد الشرق على وجه اجمال • ولقد كان الجانب الفرنسي يتمتع في اثناء المفاوضات التالية بعلاقات حسنة بكل من تركيا وفارس ، وبهيبة عسكرية تستند الى فتوحات اوروبية واسعة • أما الجانبان العثماني والفارسي فقد كان لكل منهما وضعه المعقد الذى يمكن ايضاحه على الوجه التالي :

العثماني	الفارسي
مهدد نوعا ما من جانب روسيا ،	في خطر داهم من جانب روسيا ،
يريد استرجاع مناطق من روسيا ،	يريد استرجاع مناطق من روسيا ،
على اتصال بدبلوماسية فرنسية حازمة ،	على اتصال بدبلوماسية فرنسية حازمة ،
يستند الى دبلوماسية لا بأس بها ،	يستند الى دبلوماسية واهية ،
لم يحدث أن فرطت بريطانيا به تفريطا كبيرا ،	كان تفريط بريطانيا به كبيرا ،
ذوعهد قريب بمساعدة بريطانيّة فعالة (في الاحتفاظ بمصر وبلاد الشام)،	لا عهد له بأية مساعدة بريطانية فعالة
على اتصال بالدبلوماسية البريطانية •	قصرت في اهماله الدبلوماسية البريطانية •

فبمثل هذه العوامل تأثرت نتائج المفاوضات بين فرنسا من جهة وبين الدولة العثمانية والدولة الفارسية من الجهة الاخرى ، تلك المفاوضات التي جرت في وقت متأخر نوعا ما ، اذ هي لم تبدأ حتى شهر أيار نظرا لانشغال نابوليون بقضايا النمسا وبروسيا • وعندئذ حدث في مدينة دانزيك أن قام كولينكور (Caulincourt) بتمثيل الجانب الفرنسي مع مساعده لارو (Le Roux) ، وطلب من الممثل العثماني أمين افندي عقد معاهدة دفاعية ضد كل من انكلترا وروسيا • ولكن أمين أفندي أجاب بأنه كان مرتبطا بارشادات معينة من القسطنطينية ، فلم يكن مخولا بعقد أي تحالف ضد بريطانيا العظمى اذ لم تكن هذه بحالة حرب مع الدولة العثمانية • أما تجاه روسيا فكان له أن يقوم بعقد معاهدة دفاعية أجلها محدود بثلاث سنين • وعلى هذا كان التفاوت كبيرا بين وجهة نظر الطرفين ، فلم يتوصلا الى تسوية ، وانتهت القضية بالاخفاق بعد أن استمرت حتى أوائل شهر تموز[٢٥] •

معاهدة فنكنشتاين الفرنسية ـ الفارسية عام ١٨٠٧

أما فيما يتعلق بالدولة الفارسية فان القضية كانت على شاكلة أخرى نظرا للعوامل التي مر ذكرها ، ونظرا الى أن الممثل الفارسي الميرزا محمد رضا خان انما جاء لعقد معاهدة تم الاتفاق على أسسها سلفا ، وكان مجيؤه من طهران بصحبة الممثل الفرنسي جوبير (Jaubert) الذي قام بالنيابة عن حكومته في الاتفاق على تلك الاسس • وفي ٤ أيار سنة ١٨٠٧ تم عقد المعاهدة النهائية بين محمد رضا خان نائبا عن الشاه ، وماريه (Maret) المعروف فيما بعد بدوق باسانو (Duc de Bassano) نائبا عن الامبراطور • وهذه هي المعروفة بمعاهدة فنكنشتاين (Finkenstein) نسبة الى القصر الجميل الذى تم عقدها فيه ، وكان ذلك في مدينة اوسترود (Osterode) احدى مدن بروسيا الشرقية • ولقد كانت

(25) Shupp, *op. cit.*, 432-433.

معاهدة فنكنشتاين الهجومية الدفاعية تتألف من ست عشرة مادة ، صمنت الاولى منها الاعتراق بالسلم ، والصداقة ، والتحالف بين الطرفين . وضمن نابوليون في المادة الثانية منها حدود الدولة الفارسية كما كانت عليه حين العقد . وكانت المواد الباقية ، وخاصة المادة الثامنة ، والعاشرة ، والثانية عشرة ، تتألف بالدرجة الاولى من تعهدات الشاه بتسهيل أية حركة يقوم بها الفرنسيون تجاه الهند ، وبتقديم المساعدة الفعلية لهم في هذا الباب[٢٦]. وعلى سبيل تنفيذ تلك التعهدات المتقابلة توجهت الى بلاد فارس بعثه عسكرية فرنسية مهمة برئاسة القائد غاردان (le comte Mattheiu-Claude de Gardane) . وما ان اقتربت سنة ١٨٠٧ من نهايتها حتى كان رجال غاردان البالغ عددهم سبعين ضابطا وجنديا من مختلف الصنوف يعملون بجد في تدريب وحدات كبيرة من الجيش الفارسي في كل من اذربيجان وكرمانشاه[٢٧] .

خلاصة الاندحار البريطانى أمام نابوليون

ففي أواخر سنة ١٨٠٧ أصبح الشاه حليف نابوليون ، وكانت بعثة عسكرية مهمة تدرب وحدات الجيش الفارسي في الاراضي الفارسية . وكان امام عمان في الوقت ذاته خارجا على معاهدة سنة ١٨٠٠ مع بريطانيا ، وكانت اسواق بلاده غاصة بالبضائع الفرنسية . أما ميدان الخليج العربي فانه كان منطقة شديدة الخطر على التجارة البريطانية ، بسبب قرصنة الجواسم خاصة . وفي أراضي الرافدين عادت الظروف المحيطة بالقنصل

---

(26) Mowat, R. B., *The Diplomacy of Napoleon* (London, 1924), 172; Kaye, *op. cit.*, I, 304; Gardane, Alfred de, *Mission du General Gardane en Perse* (Paris, 1865), 71-80.

ان آلفرد (Alfred) صاحب المصدر المذكور هنا هو ابن رئيس البعثة غاردان ، وفى المصدر نفسه يجد القارىء نص معاهدة فنكنشتاين ، ويلاحظ انها بتاريخ ٤ أيار . هذا بينما يذكر موات (Mowat) فى هامش ص ١٧٣ بان يوم انعقادها كان فى ٧ أيار . أما كاى (Kaye) وهو المصدر الثالث المشار اليه هنا ، فانه اكتفى بذكر الشهر دون اليوم .

(27) Curzon, *op. cit.*, I, 577.

البريطاني مضطربة صعبة منذ ان توفى سليمان باشا الكبير سنة ١٨٠٢ ، واستمرت كذلك حتى سنة ١٨٠٧ وما بعدها . وان الدولة العثمانية ، وان رفضت التحالف مع نابوليون ، فانها كانت أشد ميلا اليه منها الى بريطانيا . فلم يبق هنالك من شك في أن فرنسا أصبحت تحتل محل الحظوة بدلا من بريطانيا في الشرق الادنى والاوسط . وكان حينئذ ان اتضح من جديد ما كان لنابوليون من خطر داهم على الهند . وعندئذ حدث أن هبت بريطانيا للتغلب على نابوليون للمرة الثانية ، فكان نصرها حاسما في هذه المرة ، اذ استطاعت خلال السنتين التاليتين أن تستعيد مكانتها في ربوع الشرق الاوسط، وأن تضع الاسس الحقيقية لنفوذها في هذه الربوع .

٢ ـ النصر الحاسم لبريطانيا على نابوليون (١٨٠٨ ـ ١٨٠٩)

تفاقم الصراع بين بريطانيا ونابوليون

ان المرحلة ما بين تشرين الاول سنة ١٨٠٦ ، وايار سنة ١٨٠٧ ، أي ما بين اخفاق مفاوضات الصلح البريطاني ـ الفرنسي في باريس ، وانعقاد معاهدة التحالف الفرنسية في فنكنشتاين ، لهي مرحلة جد خطيرة في تطور النزاع الجسيم بين بريطانيا ونابوليون . ففي هذه المرحلة ، كما تبين الآن بشيء من التفصيل ، كان نفوذ نابوليون يقترب سراعا من ذروته في ميادين الشرق . أما في ميادين الغرب فان نفوذه كان أوضح من ذلك معالما ، وأشد اقترابا من ذروته ، كما هو معلوم . فهنالك كان انتصار نابوليون الحاسم على بروسيا في موقعة ينا (Jena) في تشرين الاول سنة ١٨٠٦ ، وكان مثل ذلك انتصاره على روسيا في موقعة فريدلاند (Friedland) في حزيران سنة ١٨٠٧ . وعندئذ أصبحت قارة اوروبا برمتها تقريبا متأثرة بسلطانه ، ولم يبق خارجا عليه سوى بريطانيا الحصينة بحدودها البحرية . فلاجل أن يخضع جزيرة « الحانوتيين(*) » ، عمد الى خطته المعروفة ب « النظام

(*) أي اصحاب الحوانيت "Shopkeepers" كما أشار نابوليون الى الشعب الانكليزي على سبيل التهكم .

القارى » ، تلك الخطة التي أعلنت رسميا بموجب مرسوم برلين ، في تشرين الثاني سنة ١٨٠٦ ، وكانت ترمى الى حصار بريطانيا ، ومنع سفنها من الاتصال بموانيء فرانسا وحلفائها • ولقد تأيد مرسوم برلين بعد ذلك مرتين ، أولا في كانون الثاني سنة ١٨٠٧ ، وثانيا في كانون الاول من السنة ذاتها • فما كان من بريطانيا وقد اشتد عزمها على حربه دون هوادة ، الا أن تصدر خلال المدة (كانون الثاني – تشرين الثاني ، سنة ١٨٠٧) ما يعرف بـ « أوامر المجلس » لمقابلة النظام القارى بحصار كان أشد منه وطأة على فرانسا وتوابعها وحلفائها • ومن ثم أصبح الصراع بين بريطانيا ونابوليون صراعا تجاريا بالدرجة الاولى ، وأصبحت للبلاد النائية أهمية متزايدة فيما تلا ذلك من حرب ضروس •

عودة بريطانيا الى الاهتمام بدولة فارس

فالشرق الاوسط وان لم تكن له بحد ذاته أهمية كبيرة حينذاك في نظر بريطانيا ، فانه أصبح في نظرها ذا أهمية ستراتيجية عظيمة لصيانة ممتلكاتها في الهند ، ولسلامة تجارتها في الشرق على وجه الاجمال • وعلى هذا كان لابد لحكومة الهند في سبيل مصلحتها الخاصة والمصلحة القومية من أن تستعيد نشاطها السياسي في ذلك الميدان • ولقد كان السر جورج بارلو (Sir George Barlow) هو الحاكم العام في الهند منذ ان خلف اللورد ولزلي (Lord Wellesley) سنة ١٨٠٥ الى أن حل محله اللورد منتو (Lord Minto) الذي حكم خلال المدة (١٨٠٧ – ١٨١٣) ، والذى عمل على توطيد النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط بعد ان كاد يتلاشى على أيام سلفه بارلو • وفي طليعة اتباع مينتو كان البريغادير جنرال جون مالكولم (Brigadier-General John Malcolm) المدعو اولا بالكابتن ، وأخيرا بالسر جون مالكولم (١٧٦٩ – ١٨٣٣) ، وهو الذى مر بنا ذكره في صدد قيامه يوما ما بضم عمان وفارس الى جانب بريطانيا في صراعها مع فرانسا[٢٨] • وكان مالكولم على صلة باحوال بلاد فارس

---

(٢٨) راجع اعلاه ، ص٧٥ – ٧٧ •

طيلة فترة الانتكاس البريطانية في الشرق الاوسط ، وكان حينذاك شديد النقد لخمول سياسة حكومة الهند في تلك الربوع ، حتى انه لم يكن ليتوقع تبدلا فعالا في تلك السياسة على يد الحاكم الجديد اللورد مينتو • وفي هذا الصدد كتب ما يلي الى الكولونيل كلوز (Colonel Close) بتاريخ ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٠٧ : « انك تظن ان دسائس الفرنسيين في البلاط الفارسي اثرت تأثيرا عميقا في نفس اللورد منتو ، وانه يحتمل أن يكون مفكرا باستخدامي في تلك المنطقة ••• وقد يخيل اليك بانه ليس عندى شيء من القلق ، ولكن نظرا لما سمعت مؤخرا من البنغال أن اللورد منتو ذو طبيعة أقرب الى السهولة والحذر منها الى الجسارة والاقدام ، وانه سوف يكتفي بالاحتفاظ بما عندنا دون أن يحاول توسيع الصيانة ، وخاصة اذا لم يأت ذلك الا بالانفاق الذى سيعتبره بالدرجة الاولى شرا أكيدا»(٢٩) •

مذكرة مالكولم الى اللورد مينتو

غير انه لم يلبث أن اتضح لجون مالكولم بأن السياسة الفعالة التي لم ينفك هو عن الدعوة اليها ستلقى قبولا حسنا عند الحاكم الجديد • فلقد

---

(٢٩) راجع نص الخطاب فى المصدر التالي :
Kaye, *op. cit.*, I, 391-394.
ولما كان لهذا المصدر أهمية خاصة بالموضوع الذي بين ايدينا فقد اقتضى ذكر نبذة عن مؤلفه الشهير : فالمؤلف السرجون و• كاى (Sir John W. Kaye) (١٨١٤ ـ ١٨٧٦) وهو الضليع بشؤون الهند البريطانية ، كان قد امضى زهاء اثنتي عشرة سنة فى الهند (١٨٣٢ ـ ١٨٤٥) ، قضى معظمها ضابطا فى الجيش ، ثم عاد الى انكلترا واشتغل موظفا فى دائرة الهند ، على انه اصبح يعرف بالدرجة الاولى بوصفه « مؤرخا عسكريا » • راجع ترجمة حياته فى المجلد العاشر من قاموس الاعلام البريطانية (Dictionary of National Biography, X, 1141-1142) وفى المجلد الثانى عشر من هذا القاموس ، ص ٨٤٨ ـ ٨٥٦ ، نجد ترجمة السر جون مالكولم نفسه ، وهى ترجمة وافية ورد في آخرها ما يلي : « لقد كانت جميع رسائل مالكولم وأوراقه بين يدى السر جون كاى صاحب سيرة مالكولم الكاملة القطعية » • ولقد كانت نصوص الوثائق الكثيرة فى هذه السيرة ذات فائدة ممتازة فيما نحن بصدده من حديث •

حدث أن رفع مالكولم الى اللورد منتو « مذكرة » قيمة بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٠٧ محاولا اقناعه بلزوم اتباع مثل تلك السياسة . وكانت المذكرة تستند الى تقرير أحد أعوان مالكولم ، وهو الكابتن بازلي (Captain Pasley) الذى كان قد أمضى زهاء أربع سنوات في بلاد الفرس . خلاصتها أن ما يحتمل حدوثه من انتصار نابوليون على روسيا (اذ لم يكن مالكولم قد علم بعد بحدوث هذا الانتصار) سيكون اذا ما وقع ذا خطر كبير على المصالح البريطانية في الشرق . فالامبراطورية العثمانية الواسعة ستصبح ضمن نفوذ نابوليون . والبلدان المضطربه مثل « مصر ، وسوريا ، وبغداد » ستصبح تحت السيطرة الفرنسية ، وعندئذ تكون الهند نفسها في خطر داهم . أما دولة فارس ، ذات الموقع الخطير في مثل تلك الظروف ، فانها كانت مبعث الأمل حسب ما ورد في المذكرة . ذلك لان الشاه كان مدركا ارجحية بريطانيا في ميادين الشرق ، وانه لم ينظم الى لواء نابوليون الا بعد ان يئس من معونة البريطانيين له ضد الروس . وعلى هذا كان الواجب القيام بارسال بعثة الى بلاد فارس لتدخل في روع الشاه بأن مصلحته كانت لاتزال في الانضمام الى جانب بريطانيا . وهو اذا ما خالف رأي البعثة المنشودة فالواجب أرهابه ، والقيام ضده بأعمال « لا تحط من سمعته فحسب ، بل تخلق بين رعاياه أشد الاستياء ، ... وينتهي الامر على الارجح بالهياج والثورة »(٣٠) . وما أن تسلم اللورد منتو تلك المذكرة المحكمة حتى اوعز الى مالكولم بالتقدم صوب الخليج العربي على رأس بعثة وجهتها الشاه .

بعثتا بريطانيا الى بلاد فارس

ولقد حدث في الوقت ذاته أن أرسلت الحكومة البريطانية في لندن ممثلا فوق العادة (Envoy Extraordinary) لدى الحكومة الفارسية ، هو السر هارفورد جونز (Sir Harford Jones) الذى كان قبلا قنصلا

---

(٣٠) راجع نص المذكرة في المصدر التالي : Kaye *op. cit.*, 395-398.

في بغداد ، وخولته سلطة تامة للمفاوضة بشأن عقد معاهدة بريطانية فارسية. فكان ارسال هذا الممثل من جهة ، الى جانب ارسال ممثل الهند من الجهة الاخرى للغرض نفسه صدفة غريبة . وكان وصول جونز الى بمباى في طريقه الى فارس مفاجأة مزعجة لحكومة الهند ، لان هذا المبعوث وان كان تابعا للورد مينتو اسميا فان ذهابه لتمثيل التاج البريطاني لدى الشاه كان أمرا مفروغا منه بقطع النظر عن نتائج مهمة مالكولم(٣١) . وعلى هذا كان التصادم بين حكومة الهند والحكومة في لندن أمرا لا بد منه ، وكان الاستياء على أشده عند مالكولم ، اذ لم يكن ليستسيغ وجود منافس له في الحقل الدبلوماسي الذى اولع به زمنا غير يسير .

وفي معالجة ذلك الوضع المحرج تقدم اللورد مينتو بشيء من التروى والحكمة كما دلت تعليماته المسهبة التي اصدرها (بتاريخ ٩ آذار سنة ١٨٠٨) الى ممثله المتأهب للسفر حينذاك . فلقد ورد في تلك التعليمات قوله لمالكولم: « انك لتستطيع الاعتماد على ما في استطاعة مقامي تقديمه من مساعدة مهما كان نوعها .... وأما الاعمال التي نحن بصددها فانها في نظري تستند حتما الى وقوفنا ضد الفرنسيين في بلاد فارس .... » ونظرا لاسلوب العمل الذي حبذه مالكولم ورد في التعليمات ما كان يحتمل ارساله من جنود « لطرد العدو باسرع وقت ممكن » . ثم أضاف مينتو قائلا : « ان لي من الرغبة في تعزيز جانبك ، وجعلك تحصل على الأثر المطلوب في الجهة التي انت ذاهب اليها ، ما يجعلني أميل كل الميل الى توسيع حاشيتك الى الحد الذى تراه انت معقولا وملائما .. وأنا اعترف (ما زلت اكتب سرا) بأن مجيء السر هارفورد جونز حجر عثرة في سبيلنا » . ثم أعرب اللورد مينتو عن ثقته التامة بما كان لمالكولم من « رحابة صدر وتسامح » تمكنه من معالجة الوضع المحرج الذى نجم عن بعثة جونز(٣٢) .

ولقد توجه مالكولم للقيام بمهمته التي كانت في الواقع بعثته الثانية

---

(31) Aitchison, *op. cit.*, XII, 8-9.

(٣٢) راجع نص هذه التعليمات فيما يلي :
Kaye *op. cit.*, I, 409-411.

الى بلاد فارس ، فكان الغرض منها احلال النفوذ البريطاني محل النفوذ الفرنسي في تلك البلاد . ولكن مالكولم ، وهو المتغطرس ، لم يلبث أن ظهر غير صالح لتلك المهمة . فلقد وصلت سفنه الحربية الساحل الفارسي في أيار سنة ١٨٠٨ ، وما أن اتصل بالسلطة المحلية حتى استاءت هذه لعجرفته ، وبدلا من أن تسمح له بالتقدم نحو طهران طلبت اليه ان يعرض قصته على حاكم منطقة فارس . فلما اتضح لمالكولم بأنه لم يكن ثمة أمل بالنجاح ، أبحر توا الى الهند مستاءا ومتوعدا وانتهى بذلك أجل البعثة[٣٣] .

أما السر هارفورد جونز الذى طالما تذمر من بعثته كل من مالكولم ورئيسه منتو ، فانه هو الذى استطاع ان يبلغ الهدف . فلقد وصلته « تعليمات » حكومة الهند « بايقاف بعثته متأخرة »[٣٤] ، وحتى لو انها وصلته في الوقت الملائم لكان بعيدا جدا احتمال تنفيذها . ومهما كان من أمر فان جونز أصبح في طهران في خريف سنة ١٨٠٨ ، مقتربا من الشاه في سبيل عقد صفقة كانت جد رابحه لبريطانيا . فالظروف التي احاطت بجونز في تلك الآونة كانت تختلف عما كانت عليه قبل ذلك ببضعة شهور . وان الشاه لم يعد ليصدق او ليرتاح للوعود التي كان يغدقها عليه القائد الفرنسي غاردان في صدد مساعدته ضد الروس . وأن المستهتر نابوليون كان قد عقد مع روسيا معاهدة تلسيت بتاريخ ٩ تموز ١٨٠٧ دون أن يعير فيها أدنى اهتمام لمطاليب الفرس . وانه حدث في أواسط صيف سنة ١٨٠٨ أن انتقض الشعب الاسباني على حكم نابوليون ، مما اشغل هذا المغامر وارغمه على ترك مشروع الحملة على الهند[٣٥] . فكان حينئذ أن أصبحت

---

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠٦ . وفى الصفحة ٣٠٧ من هذا المصدر اشارة الى قيام اللورد منتو باعداد حملة تأديبية لاحتلال جزيرة كرك (Kharak) ، ولكن الحملة لم تبلغ الهدف . وللاطلاع على تفاصيل بعثة مالكولم الثانية راجع الفصل الخامس عشر من المصدر نفسه ، ص ٣٩٩ – ٤٥٦ .

(34) Aitchison, *op. cit.*, XII, 9.

(35) Fournier, A., *Napoleon* I (London, 1914), pp. 49-51.

روسيا الحليف العتيد لنابوليون بعد ما كانت في نظره عدو الجميع ، وعندئذ أصبحت الدولة الفارسية في وجه الخطر الروسي دون نصير • وكان ذلك كله في الوقت الذى توترت فيه العلاقات بين روسيا وبريطانيا حتى انقطعت في تشرين الثاني سنة ١٨٠٧ •

فلما تقدم جونز بمشروعه الى الحكومة الفارسية كان قد مضى على تلك التبدلات من الزمن ما جعل الشاه يدرك مبلغ خطورتها • فالظروف الملائمة لبعثة جونز ، ومقدرة هذا السياسي على استثمارها ، وعقد ماس فخم قدمه هدية من الملك جورج الثالث الى عاهل الفرس ، دلت جميعها على قرب انعقاد حلف بعيد المدى بين الطرفين •

المعاهدة التمهيدية بين بريطانيا وفارس

وما أن حل شهر آذار سنة ١٨٠٩ حتى كانت الحكومة الفارسية قد وافقت على عقد معاهدة تحالف بين الطرفين ، مع اشتراط منحة سنوية قدرها (١٢٠٫٠٠٠) باون استرليني تدفعها بريطانيا الى الشاه ، مادامت هي في حالة حرب مع روسيا • ولما لم يشأ جونز أن يضيع الوقت في المراسلة مع حكومة لندن او الهند فانه قام عن حكمة بالعمل على مسؤوليته وعقد آنذاك « معاهدة تمهيدية للصداقة والتحالف بين بريطانيا العظمى ودولة فارس » • وبموجب هذه المعاهدة تخلى الشاه عن أية صلة أو معاهدة بينه وبين أية دولة أوروبية أخرى ، كما انه تعهد (في المادة الثالثة) بأن يمنع «مرور اية قوة اوروبية عبر البلاد الفارسية الى الهند او الى موانيها »[٣٦] • وكان جل ما حصل عليه الشاه مقتصرا على تعهد بريطانيا (في المادة الرابعة) بأن ترسل اليه « قوة » أو ترسل له بدلها مساعدة مالية وعتادا ، اذا ما اغارت

---

(٣٦) راجع (Kaye, *op. cit.*) ، ص ٤٧ • ان فحوى هذه المادة الثالثة مذكور على شاكلة مغلوطة فى كتاب هرتزلت عن المعاهدات الفارسية (Hertslet's Persian Treaties, etc., p. 4.) حيث يقول : « لا يسمح لاية قوة اوروبية بالمرور عبر بلاد فارس ، أو الهند ، أو الموانىء الهندية » •

على بلاده « أية قوى اوروبية »[٣٧] • ولقد تأجل تفصيل هذا التعهد البريطاني المبهم الى معاهدة « نهائية » تعقد بينهما في وقت آخر ، على أن المعاهدة التمهيدية هذه اعتبرت نافذة منذ يوم انعقادها في ١٢ آذار سنة ١٨٠٩ •

وما أن سمع اللورد مينتو بما تم من أمر المعاهدة حتى استاء من جونز أشد الاستياء لقيامه بذلك العمل الخطير دون استشارته • وعلى أثر ذلك جرت مماحكات بين حكومة لندن والهند ظهر منها كأن ما قام به جونز أوشك ان ينهار ، نظرا لان دفع المنحة السنوية كان منوطا بحكومة الهند • ولكن اللورد مينتو ، وهو المدرك حق الادراك لأهمية تلك المعاهدة في حماية الهند ، لم يلبث أن وافق عليها محتفظا بحق تعيين الشخص الذى يقوم بالاشراف على تنفيذها[٣٨] • ففي نظر منتو كما في نظر أي خبير ، كانت المعاهدة ضربة قاضية على النفوذ الفرنسي في بلاد الفرس • فلم يكد يأتي ربيع سنة ١٨٠٩ حتى كان الفرنسيون كافة ، من دبلوماسيين وضباط وغيرهم ، قد اخرجوا من بلاد فارس • وعندئذ انقطع اجل بعثة الجنرال غاردان ، اذ تسلم الجنرال واتباعه جوازات سفرهم وأمروا بالخروج[٣٩] •

اخفاق نابوليون في بلاد فارس

أما المسؤول عن الانتكاس الفرنسي الشديد فانه في نظر الاناني نابوليون قد يكون أي بشر سواه ، حتى كأنه لم يدر بأن معاهدة فنكنشتاين التي استندت اليها بعثة غاردان كانت قد الغيت بحكم معاهدة تلسيت التي تركت الشاه دون حليف تجاه الروس • وهو حسب طبيعته المعروفة ، لم

---

(٣٧) راجع نص المعاهدة في (Kaye, *op. cit.*) ، ص٤٦ـ٤٩ • وراجعه ايضا فى المصدر التالي :
British and Foreign State Papers, vol. I, pt. I, 258-261.

(38) Kaye, *op. cit.*, I, 307-308.

(٣٩) عن نظرة اللورد منتو الواقعية لهذه المعاهدة راجع ادناه ص ١١٦ ـ ١١٧ وعن فشل بعثة الجنرال غاردان راجع ما يلى :
Kaye, *op. cit.*, I, 304-305.

يفقد الامل في ضم فارس لحوزته بينما كان الامل ضربا من المستحيل • وعلى هذا فانه وجه كتابا من شون برون (Shönbrunn) بتاريخ ٢٠ آب ١٨٠٩ ، الى وزير خارجيته الكونت دي شامباني (Conte de Champagny) يأمره فيه بأن يرسل في الحال كتاب ترضية الى الشاه « يخبره فيه » ، على حد قول نابوليون ، « بأنني وبخت الجنرال غاردان وحقرته لمغادرته بلاطه • وانني أمرت ممثلي بالرجوع الى عاصمته ، وانني سأبعث اليه في القريب العاجل سفيرا آخر • وان كتابه الي اعرب عن ادراكه تماما سبب اتصاله ظاهريا وموقتا بالانكليز •••• انني أرغب في تعزيز علاقاتي بالدولة الفارسية ، واعتبر علاقاتي بها ذات أهمية كبيرة »[٤٠] •

ابتعاد تركيا عن نابوليون

غير ان محاولة نابوليون هذه لم تكن مجدية ، فلقد انذرت معاهدة تلسيت بانتهاء نفوذه لا في بلاد فارس وحدها ، بل في بلاد الشرق على وجه الاجمال • ولقد كانت بريطانيا قد بدأت ضغطها فعلا على الباب العالي قبيل ظهور تلك المعاهدة الى حيز الوجود • ففي بداية سنة ١٨٠٧ ظهرت سفنها الحربية في مياه القسطنطينية لارهاب السلطان وتنحيته عن الميل الى جانب الفرنسيين[٤١] • وان هذه المحاولة وان اخفقت فيما كانت ترمي اليه ، فانها لا بد وان تكون قد جلبت انتباه العثمانيين الى خطورة الموقف في نظر بريطانيا • على ان ميل العثمانيين الى جانب نابوليون كان ، حسبما اتضح من مفاوضات ايار وحزيران سنة ١٨٠٧ ، محدودا بمقدار ما كانت تسمح به مصالحهم الخاصة[٤٢] • وكان في هذا الموقف المتحفظ شيء

---

(40) Lloyd. Lady Mary, *New Letters of Napoleon I omittedi from the edition published under the auspices of Napoleon III* - from the French - (London, 1898), 153-154.

(41) Shupp, *op. cit.*, 427-428.

(٤٢) راجع اعلاه ، ص ٩٦ ـ ٩٧ •

لا يستهان به من الحكمة ، نظرا لما جاءت به معاهدة تلسيت • فلقد كان نابوليون من الدهاء ما جعله يعرض وساطته للصلح بين روسيا وتركيا ، بدلا من أن يترك هذه علنا تحت رحمة الروس • ولكن القسم السرى من تلك المعاهدة نص على انه اذا اخفقت وساطة الصلح فان لقيصر روسيا أن يقوم تجاه الامبراطورية العثمانية بما يشاء[٤٣] •

أما العثمانيون فانهم لم يكونوا على استعداد للطمأنينة لنوايا الروس ، كما انه لم يكن في وسعهم الاستكانة لما حدث من وفاق بعيد المدى بين روسيا ، عدوتهم المزمنة ، وبين نابوليون • ولم يكن من الصعب التنبؤ باتخاذهم مثل هذا الموقف السلبي نظرا لما صرح به أمين أفندي في اثناء مفاوضات أيار وحزيران المذكورة اعلاه • غير ان روسيا الجسيمة كانت على ما يظهر ، أشد جذبا لطموح نابوليون من تركيا الضعيفة ، أو فارس الطفيفة ، أو من كلتيهما • فكان لزاما أن يحدث ذلك الوفاق المرموق أثرا بليغا في نفوس العثمانيين ، وان لم يكونوا على علم بجانبه المكتوم • وكان في تلسيت أن خسر نابوليون تلك الصفة الاساسية التي كانت تسمح لهم بالاعتماد عليه ، الا وهي عداوته الصريحة للدولة الروسية • وكان قد حدث في الوقت ذاته أن أخذت روسيا تعادي بريطانيا نظرا (في الدرجة الاولى) لما كان بين هذه الدولة ونابوليون من عداء ، حتى آل الأمر الى أن قطعت روسيا في تشرين الثاني سنة ١٨٠٧ علاقاتها السياسية مع بريطانيا ، غير عالمة بأنها قدمت في عملها هذا حليفا قويا للعثمانيين •

معاهدتا بريطانيا وتركيا ، وامتياز عام ١٨٠٩

ولقد مر على انقطاع العلاقات الروسية البريطانية أكثر من سنة حتى استطاعت بريطانيا تذليل العقبات في سبيل استمالة تركيا الى جانبها

---

(43) *Cambridge Modern History*, IX, 398.

رسميا[٤٤] • وعندئذ حدث في ٥ كانون الثاني سنة ١٨٠٩ أن انعقدت « معاهدة سلم وتجارة بين بريطانيا العظمى والباب العالي » ، ورد في مقدمتها انه ، « على الرغم من مظاهر سوء التفاهم الحاصل ما بين الحكومة البريطانية والباب العالي نتيجة لحوادث وقتية ، فان الدولتين تحدوهما رغبة صادقة في توطيد ما كان بينهما من صداقة قديمة » اقدمتا على عقد هذه المعاهدة • ولقد وردت خلاصة الوثيقة هذه في مادتها الرابعة التي نصت على أن جميع الامتيازات السابقة « تبقى مرعية كأن لم يطرأ عليها تعطيل »[٤٥] ان المعاهدة هذه ، ومعاهدة أخرى سنأتي الآن على ذكرها ، كانت لهما أهمية كبيرة في تغلغل النفوذ البريطاني في وادي الرافدين ، القطر الذي أصبح بعد ذلك بعشرين عاما خاضعا لسلطة الباب العالي بصورة فعلية • وليس هذا فحسب ، بل كانت لهما في الحقيقة أهمية كبيرة أيضا لتغلغل النفوذ البريطاني في مختلف ارجاء الدولة العثمانية •

أما فحوى المعاهدة الثانية التي نحن بصددها ، فانه يتضح من عنوانها الذى ينص على انها : « امتيازات وبنود سلم ، بين بريطانيا العظمى والامبراطورية العثمانية ، حسبما اتفق عليها ، وما طرأ عليها من توسيع ومن تحوير ، ابتداء من سنة ١٦٧٥ ، حتى تأييدها نهائيا بموجب معاهدة

---

(٤٤) وفى سبيل التوصل الى اتخاذ سياسة ناجحة تجاه تركيا تعهد البرلمان البريطاني خلال سنة ١٨٠٨ القيام باجراء بحث دقيق فى اسباب انحطاط العلاقات البريطانية ـ التركية قبيل ذلك الحين ، فكانت النتيجة صدور تقرير مفصل شامل عن تلك العلاقات وما طرأ عليها من الضغط الفرنسى خلال المدة ١٨٠٠ ـ ١٨٠٨ • راجع التقرير فى المصدر التالى :

Parliamentary Debates (1808), X, 497-534.

(45) *British and Foreign State Papers*, Vol. I, pt. I, 770.

راجع نص المعاهدة فى المصدر نفسه ، ص ٧٦٨ ـ ٧٧٣ •

السلم في الدردنيل سنة ١٨٠٩ »[٤٦] . والمعاهدة الثانية هذه ، وان كانت تابعة للاولى ، فانها كانت في الواقع أهم الاثنتين ، وكانت من حيث الاهمية والشمول في طليعة الوثائق التي هي من هذا القبيل . فلقد ضمنت مادتها الاولى الحرية التامة للبريطانيين في التجارة داخل الامبراطورية العثمانية ، وفي مرور تجارتهم عبر هذه الامبراطورية ، كما انها ضمنت تعهدا بحمايتهم في اثناء ذلك . وقد تأيد هذا التعهد بالحماية في المادة الثالثة والعشرين بصفة خاصة . وكانت الوثيقة على وجه الاجمال تأييدا صريحا لارجحية بريطانيا على باقي الدول لدى الباب العالي . فالتجار الهولنديون مثلا كانوا ملزمين برفع العلم البريطاني بدلا من الفرنسي في اثناء وجودهم في المناطق العثمانية . والى هذا اشارت المادة الثالثة والثلاثون بعبارة شديدة ، ورد فيها أنه « لن يجوز للسفير او القنصل الفرنسي أن يتدخل في هذا الامر بعد الآن ، وان عليه أن يعمل في المستقبل وفق طبيعة هذه الامتيازات » . وفي مقابل ذلك تعهد البريطانيون في المادة الرابعة والثلاثين بأن يدفعوا « حسبما تقتضيه العادة القديمة » ثلاثة بالمائة من اثمان بضائعهم رسوما كمركية ، او رسوم ترانسيت .

علاقات عمان بالفرنسيين

وعلى هذا فان نجاح البريطانيين في الميدان العثماني لم يكن بأقل اثرا أو بأقصر مدى من نجاحهم في الميدان الفارسي . أما علاقتهم بدولة عمان فانها كانت على خلاف ذلك . فلقد مر بنا آنفا خبر اخفاق المسيو دي كافنياك سنة ١٨٠٣ في أن يصبح قنصلا لدى الامام[٤٧] . ثم حدث في سنة

---

(٤٦) راجع نص الوثيقة فى كل من المصدرين التاليين :

Hertslet, Lewis, *Commercial Treaties,* II, 346-349; *British and Foreign State Papers,* Vol. I, pt I, 747-766.

(٤٧) راجع اعلاه ، ص ٩٤ .

١٨٠٧ ان استعيدت العلاقات الدبلوماسية بالفرنسيين ، وذلك عندما أرسل الامام سعيد ممثله الى جزيرة موريشياس (Mauritius) في سبيل الحصول على شيء من المساعدة ضد الوهابيين ، اعدائه الاشداء . فالوهابيون من جهة ، والقرصان (وفي مقدمتهم الجواسم) من الجهة الاخرى كانا يؤلفان الخطر الرئيسي الذى تخشاه دولة عمان . وان اخفاق عمان طوال المدة ١٨٠٣ - ١٨٠٦ في الحصول على شيء من مساعدة البريطانيين لمكافحة ذلك الخطر الداهم ، هو الذى دفع بها الى جانب الفرنسيين . وما أن تسنم سعيد الامامة بعد سلفه بدر ، في آذار سنة ١٨٠٧ ، حتى بعث ممثله المشار اليه ، وتم على أثر ذلك عقد معاهدة بين الامام سعيد والجنرال ديكان (Decaen) بتاريخ ٥ حزيران من السنة ذاتها ، ثم استبدلت هذه ، في تموز سنة١٨٠٨ ، بمعاهدة تحالف أوثق من الاولى ، ذهب بموجبها المسيو دالون (M. Dallons) الى مسقط ممثلا قنصلياً (Consular Agent) [٤٨] .

والواقع هو ان تحالف الامام مع الفرنسيين لم يكن عن ثقة بمساعدتهم ، وانما كان عن يأس من مساعدة البريطانيين ، وان المعاهدة التي نحن بصددها لم تكن بذات فائدة تذكر . فالهند البريطانية كانت بطبيعة الحال أهم من موريشياس الفرنسية في نظر الامام الذى لم يكن في الوقت ذاته ليجهل أي المتنافسين اقدر على دعمه في وجه الخطر . ولكن البريطانيين لم يريدوا حينذاك مساعدته في المحنة التي لم يكونوا بعد قد شعروا بخطرها على مصالحهم الشرقية . فلما حدث ان اشتدت قرصنة الجواسم على تجارتهم أرسلوا سفنتين حربيتين للمرابطة عند رأس مسندم (على ساحل عمان الشمالي) لمساعدة الامام الذى كان في أوائل سنة ١٨٠٩ منهمكا في مكافحة هؤلاء القرصان الاشداء . غير أن مساعدتهم هذه كانت طفيفة بالنظر لخطورة الموقف ، فلم تأت بنتيجة حاسمة .

---

(48) Miles, *op. cit.*, II, 310-311.

اهتمام بريطانيا بدولة عمان والخليج العربي

لقد كان البريطانيون خلال سنة ١٨٠٨ ـ ١٨٠٩ منهمكين في حل مشاكلهم الفارسية ، والعثمانية ، والهندية ، مما شغلهم عن الالتفات لقضايا عمان والخليج العربي • على أنه لم يأت خريف سنة ١٨٠٩ حتى كانت جهودهم في حل تلك المشاكل قد تكللت بالنجاح ، كما اتضح لنا آنفا من احرازهم الارجحية المطلقة على الفرنسيين في دولة فارس وفي الدولة العثمانية ، وكما حدث أيضا من احرازهم نجاحا سياسيا باهرا في ربوع الهند • ففي ٢٥ نيسان ، وفي ١٧ حزيران ، وفي ٢٢ آب ، من السنة ذاتها ، انجزت حكومة الهند عقد معاهدات صداقة وتحالف مع كل من راجا منطقة لاهور ، وملك كابل ، وأمراء السند[٤٩] • وعندئذ أصبح في وسع حكومة الهند أن تعنى بشؤون عمان والخليج العربي ، لا بل وان تقوم فعلا بما يقتضيه الوضع في تلك الربوع • ولم يكن ادراك خطورة الوضع بالامر العسير ، فلقد كانت هجمات الوهابيين تترى على عمان ، وكان احتلالها من قبلهم أمرا محتمل الوقوع ، مما يجعل المصالح البريطانية عرضة الى الخطر الفادح نظرا لما كان عليه الوهابيون من التعصب الشديد ضد مخالفيهم في الدين[٥٠] • فكان لزاما على البريطانيين أن يقوموا بنصرة امام عمان ، غير ان ما ظهر من نصرتهم كان ناقصا في بداية الامر • فلما

---

(49) *British and Foreign State Papers,* Vol. I, Pt. I, 266-268.

(٥٠) ينتسب المذهب الوهابي الى مؤسسة محمد بن عبدالوهاب الذى عاش معظم القرن الثامن عشر (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) • وهو مذهب يرمي الى الاقتصار على ما ورد صراحة فى القرآن والحديث الصحيح دون غيرهما من اصول الشرع المعتبرة عند المذاهب الاسلامية الاخرى • ولقد اتصف الوهابيون فى بداية الامر بالتعصب ، والكره الشديد لمخالفيهم فى الدين ، وفى المذهب ايضا • (وكان مؤسس المذهب قد حصل فى حينه على مؤازرة فعالة من مؤسس المملكة السعودية محمد بن السعود ، فكان انتشار الحركة الوهابية والسعودية يدا بيد حتى شملتا ، كما هو الواقع الآن ، معظم الجزيرة العربية) •

حدث ان اشتدت مرة أخرى قرصنة الجواسم على تجـارة عمان وعلى التجارة البريطانية أيضا ، قامت حكومة الهند في ايلول سنة ١٨٠٩ بعمل واسع النطاق لمكافحة القرصان ، ولكنها قصرت تقصيرا ذريعا في انجـاز العمل على الوجه المطلوب • ذلك انها ارسلت الى الخليج العربى بارجتين كبيرتين وتسع طرّادات تحمل جيشا مؤلفا من الفرقة الخامسة والستين ، وقسما من الفرقة السابعة والاربعين ، وما يناهز الالف من الجنود الهنود • غير أن التعليمات الموجهة الى هذه الحملة « كانت على جانب من الفتور والتناقض بحيث انها احبطت جهود الحملة فعلا ، وجعلتها غير مجـدية نفعا »(٥١) •

ومع هذا فان ما كانت عليه الحملة من جسامة وما اقتضته من تكاليف لم يخل من أثر فعال في نفوس القرصان الذين أوقعت بهم ضربة شديدة وان لم تكن بالضربة القاضية(٥٢) • كما انها لم تخل من اثر فعال فـي نفوس دويلات الخليج العربي وفي مقدمتها عمان ، اذ كان لهم فيها برهان محسوس على وجود قوة عظيمة • ثم ان الحملة كانت في الوقت ذاته أول محاولة جدية تقوم بها حكومة الهند لمكافحة القرصنة في حوض الخليج العربي • ولقد أصبحت مكافحة القرصنة ، كما سيتضح لنا في الفصـل التالي ، الوسيلة الاساسية لتوطيد النفوذ البريطاني في تلك الربوع • على ان ربوع الخليج لم تكن بعد قد أصبحت ضمن نطاق الاستعمار البريطاني سياسيا كان أم غير ذلك • وان ما حدث هنالك قبلا من قيام البريطانيين باعمـال كان بعضها باهرا ، انمـا كان في سبيل مكافحة منافسيهم من البرتغاليين ، ومن الهولنديين ، ومن الفرنسيين الى حد ما • وان النفـوذ البريطاني لم يبدأ في حوض الخليج العربي بصورة مباشرة ومستمرة حتى

---

(51) Miles *op. cit.*, II, 314-316.

(52) Coupland, R., *East Africa and its Invaders: from the earliest times to the death of Seyyid Saïd in 1856* (Oxford, 1938), 143-145.

بعد ذلك الحين بما يناهز عشر سنين[٥٣] •

القنصل البريطاني في بغداد

أما فيما يتعلق بوادى الرافدين من الشؤون البريطانية خلال المدة ١٨٠٨ - ١٨٠٩ فانه لم يحدث أى تبدل خطير • ولقد كان يؤمل من مالكولم في اثناء بعثته الثانية الى فارس ان يرعى في الوقت ذاته مصالح البريطانيين في بغداد ، فكان اللورد مينتو قد زوده لهذا الغرض « بشهادات اعتماد خاصة الى كل من شاه فارس ، وباشا بغداد »[٥٤] • ولكن البعثة ، كما نعلم ، باءت بالفشل الذريع • وكان الحادث المهم الوحيد، اذا كان لابد لنا من ذكر حادث مهم ، هو تعيين كلوديوس جيمس ريج (Claudius James Rich) قنصلا بريطانيا في بغداد خلفا للسر هارفورد جونز ، وبقاؤه في منصبه هذا زهاء عشر سنين كان خلالها أكثر خطورة من أي ممثل اجنبي في عاصمة الرشيد[٥٥] • على ان نجاح هذا السياسي المحنك ، كما يجدر بنا أن نعلم ، لم يكن مستندا الى أية معاهدة أو اتفاق رسمي ، وانه لم يأت بأية وثيقة من هذا القبيل • وأن ما تمتع به القنصل البريطاني من نفوذ خلال تلك الحقبة انما كان يستند الى ما كان مألوفا في مثل هذه الحال ، من موقف الباشا وميوله الطارئة • ولقد حدث بعدئذ أن انقطع قسرا أجل قنصلية كلوديوس ريج على يد باشا معاد له • فالنفوذ البريطاني لم يبدأ في وادى الرافدين بصورة مباشرة ومستمرة حتى مضت زهاء عشرين سنة على ذلك الحين •

خلاصة النصر البريطاني الحاسم على نابوليون

وصفوة القول ان بداية الارجحية البريطانية في ربوع الشرق الاوسط لم تكن في وادى الرافدين ، كما انها لم تكن في حوض الخليج العربي ،

---

(٥٣) راجع ادناه صفحة (١٢١) تحت عنوان : تأسيس النفوذ البريطانى فى الخليج العربى •

(54) Kaye, *op. cit.*, I, 409 n.

(55) Longrigg, *op. cit.*, 255.

انما كانت في بلاد فارس على أساس « المعاهدة التمهيدية » لعام ١٨٠٩ . ولقد تأيد مغزى هذه المعاهدة واتسع نطاقها ، نظريا وعمليا ، خلال السنوات التالية لانعقادها . وكان قد حدث في الوقت ذاته أن تعزز موقف بريطانيا في كل من الهند وتركيا ، وهما المنفذان الرئيسان لتغلغل نفوذها في أرجاء الشرق الاوسط . ففي الهند أصبح موقفها اثبت مما كان عليه في أي وقت سابق ، وذلك نظرا لما انعقد بينها وبين الامراء الهنود من معاهدات ودية . وفي تركيا أصبحت لها الارجحية على باقي الدول الاجنبية ، وذلك نظرا لما مر ذكره من « معاهدة سلم » ، ومن « امتيازات » خطيرة استقرت سنة ١٨٠٩ ، فاستقرت على أثرها تلك الارجحية البريطانية حتى أواخر القرن التاسع عشر .

الفصل الرابع

على أبواب العراق (١٨١٠ – ١٨٣٠)

لم تصطدم بريطانيا خلال العقد الثاني والثالث من القرن التاسع عشر بأية منافسة اجنبية تذكر في مختلف ارجـاء الشرق الاوسط • فالمنافسة الفرنسية كانت قد اضمحلت منذ سنة (١٨٠٩ – ١٨١٠) على أثر الهجمات التي قام بها البريطانيون على المراكز الفرنسية والهولندية الخاضعة لفرنسا ما بين رأس الرجاء الصالح وجزيرة سيلان • ولم تتضح هنـالك معـالم المنافسة الروسية حتى مضت زهاء عشرين سنة على ذلك الحين[1] • ولقد حدث خلال هذه الفترة أن قامت بريطانيا بتعزيز نفوذها في بلاد فارس ، وبتأسيسه في الخليج العربي • ولقد حدث في أواخر هذه الفترة أن انتقلت السلطة الفعلية في وادي الرافدين الى يد الباب العالي ، بعد ما كانت في أيدى الباشوات ، وعندئذ أصبح المجال مفتوحا لتغلغل النفوذ البريطاني في هذه الربوع •

١ – تعزيز النفوذ البريطانى واتساعه

مبعوث بريطانيا الى طهران

أدرك اللورد مينتو (الحاكم العام في الهند) أهمية ما قام به هارفورد جونز من مفاوضات مع حكومة فارس ومن عقد معاهدة تمهيدية معها ، وأصبح على استعداد لقبول هذه المعاهدة بعـدما بـدر من معارضته لها ،

---

(١) فضلا عن قيام البريطانيين بانتزاع الارجحية من بلاد فارس من ايدى الفرنسيين ، قاموا سنة ١٨١٠ بانتزاع جزيرة موريشياس من ايديهم ايضا « فقضوا بذلك على حركات الفرنسيين المزعجة فى بحار الشرق » • راجع Wilson, *op. cit.*, 191 • وعن بداية المنافسة البريطانية – الروسية بعد ذلك ، راجع ادناه : ص ١٤٥ وما يليها •

واستيائه من بعثة جونز برمتها[٢] • ولا ادل على تقديره للموقف الجديد مما ورد في كتابه الى جون مالكولم المؤرخ في تموز سنة ١٨٠٩ ، حيث يقول : « ونظرا لتلك العلاقات فقد تخلت فارس عن حلفها مع فرنسا – وسحبت وزيرها من باريس – وطرد (الشاه) سفير فرانسا من بلاطه طردا مزريا – والغى معاهداته الحديثة مع فرنسا – والخلاصة انه اثار استياء وغضب أقوى عاهل في العالم • فليس ثمة مجال ، والحالة هذه ، ان نقول للشاه بأن السر هارفورد جونز تعدى التعليمات التي كان مقيدا بها ، وأن صلاحياته في المفاوضة والاتفاق عرضة لمصادقة ليست متيسرة »[٣] •

مبعوث فارس الى لندن

ولقد قبل اللورد مينتو بتلك « المعاهدة التمهيدية » على أساس أن يقوم هو بتعيين من يشرف على تنفيذها • وعلى هذا فانه خاطب جون مالكولم في كتابه المشار اليه قائلا « انما هو انت » الذى سيقوم بهذه المهمة الخطيرة • وتم فعلا تعيين مالكولم لهذا الغرض ، فتوجه في كانون الثاني سنة ١٨١٠ الى بلاد فارس للقيام بما كانت في الواقع بعثته الثالثة والاخيرة لهذه البلاد[٤] • وكان قد حدث في الوقت ذاته أن ارسل الشاه فتح على بعثته الى لندن حيث كانت الحكومة البريطانية نفسها قد تعهدت العلاقات الدبلوماسية بالدولة الفارسية • وعندئذ أصبح أبو الحسن خان ممثل الشاه في البلاط الانكليزي خلال المدة (١٨١٠ – ١٨١١) ، وكان جيمس موريير (James Morier) وهو الذى أصبح بعد ذلك سفير بريطانيا في طهران ، قد صحب الممثل

---

(٢) عن استياء مينتو ، ومالكولم ، من بعثة جونز من المعاهدة « التمهيدية » راجع اعلاه ص ١٠٢ – ١٠٥ •

(3) Kaye, *op. cit.*, I., 507-508.

(٤) للاطلاع على معلومات تفصيلية عن البعثة راجع ما يلى :
Kaye, *op. cit.*, II, 1-53
هذا مع العلم بأن مؤلف هذا المصدر يحسب البعثة التى نحن بصددها ثانية ، مهملا بذلك حساب البعثة الفاشلة التى كانت هى الثانية كما مر بنا اعلاه ١٠٣ – ١٠٤ •

الفارسي الى لندن ذهابا وايابا • وكان الغرض الرئيس لهذه البعثة الفارسية معرفة مقدار المنحة السنوية المقرر دفعها للشاه بموجب المعاهدة التمهيدية ، ومعرفة طريقة دفعها له • ولكن شيئا من هذا القبيل لم يتحقق ، ولم تأت البعثة بأية نتيجة اقتصادية كانت أم سياسية • على انها كانت في الوقت ذاته من اطرف ما يروى من الحوادث الدبلوماسية(٥) •

مماحكات بين البريطانيين ، وتفاهم مع الفرس

أما في طهران فان سنة ١٨١٠ شهدت بين مالكولم وجونز من المنافسة الجدية ما لم يكن يخلو من شوائب الانانية • فلقد كان جونز ، كما نعلم ، ممثل التاج البريطاني ، والرجل الذى انعقدت على يده العلاقات الفارسية البريطانية • هذا بينما كان مالكولم ممثل حاكم الهند ، وكانت مهمته تستند في الحقيقة الى المعاهدة المنعقدة على يد غريمه ، وكان هو مدركا حق الادراك مغزى التباين ، الا انه كان الى جانب ذلك شديد الشعور بمغزى مهمته أيضا • فلم يكن ليفتر عن التأكيد بأن في يد حكومة الهند كان تقديم ما ينتظر من مساعدة بريطانية للدولة الفارسية •

لقد عمل مالكولم ما في وسعه ليدخل في روع الحكومة الفارسية بأن منزلته كانت بدرجة جونز على الاقل • وعلى هذه الشاكلة أيضا كان

---

(٥) يذكر برسي سايكس الفقرة التالية نقلا عن الكاتب الشهير شارل لام (Charles Lamb) ، فى صدد الاشارة الى هذا المبعوث الفارسى : « انه الآن فى مقدمة الاشياء على لسان الناس • لقد بعثت اليه اناسا ليروه يعبد الشمس فى الساعة السادسة والنصف صباحا ، غير انه لم يظهر ••• والعامة من الناس اطلقت عليه لقب (Shaw Nonsense) [أى المعرض الفطير] » • ان ما نسب اليه في هذه الفقرة من عبادة الشمس مغلوط بطبيعة الحال ، فالمبعوث الفارسى كان مسلما ، وكانت الصلاة المشار اليها صلاة الصبح على ما يظهر • والواقع هو ان الرجل كان مثار الاستغراب فى انكلترا ، كما أن انكلترا كانت فى نظره بلد الغرائب • فلقد كتب عن بعثته اليها كتابا بعنوان « حيرت نامه » ، أى سجل العجائب • وكتب عنه جيمس موريير كتابا « خلد » ذكره بهذا العنوان : *"Haji Baba in England"* يعنى الحاج بابا فى انكلترة • راجع ما يلى : Sykes, *op. cit.*, II, 309.

سلوك جونز ، مما اضطر السلطات الفارسية لان تكون شديدة الحذر كي لا يبدر منها ما قد يدل على ترجيح الواحد على الآخر . ولقد اوشكت المنافسة بينهما أن تبلغ حدود السخافة ، وكان كذلك انقسام الزمرة البريطانية في طهران الى مؤيد لهذا ومؤيد لذاك ، على نمط حزبي عنيف . « ولم تأل حكومة الهند على وجه التأكيد جهدا في سبيل تسويد وجه السر هارفورد جونز في نظر البلاط الفارسي ، وعندئذ لا يبعدان يكون قد فكر بأن من واجبه البرهان على انه كان يتمتع بسلطة ارفع من أية سلطة في استطاعة حاكم الهند العام منحها »[٦] .

على ان المنافسة بين مالكولم وجونز كانت في الحقيقة منافسة بين حكومة لندن وحكومة الهند حول السيطرة المباشرة على العلاقات البريطانية بالدولة الفارسية . ولم تدخر حكومة الهند وسعا في سبيل نيل غايتها ، غير أن الحكومة البريطانية نفسها كانت عازمة على السيطرة ، وبذا أخبرت جونز ، فقام هذا بابلاغ الامر الى مالكولم في اليوم الثاني من شهر تموز . وعلى أثر ذلك قامت وزارة الخارجية البريطانية باستبدال جونز بالسر غور أوزلى (Sir Gore Ouseley) ، واودعت في يد السفير الجديد رعاية جميع العلاقات البريطانية ـ الفارسية فأصبح هذا الترتيب سنّة متبعة منذ ذلك الحين . وسرعان ما أدرك مالكولم عبث الاستمرار في محاولاته ، فأخبر اللورد مينتو بحقيقة الحال ، وقفل راجعا في غضون شهر واحد[٧] .

المعاهدة « النهائية » بين بريطانيا وفارس ، عام ١٨١٤

وعندئذ أصبح المجال مفتوحا لقيام ممثل حكومة لندن بمهمته دون عرقلة من جانب حكومة الهند . وكانت مهمة السر غور اوزلي الكبرى تنحصر في عقد « معاهدة » لتحل محل « المعاهدة التمهيدية » المنعقدة قبل ذلك بمدة سنة تقريبا . وجرت على الاثر مفاوضات مسهبة اسفرت عن معاهدة جديدة كان التوقيع عليها في طهران بتاريخ ١٤ آذار سنة ١٨١٢ ،

---

(6) Kaye, *op. cit.*, II, 14.

(7) *Ibid*, 27.

فكانت نافدة منذ يوم انعقادها على شرط ان تعرض على الحكومة في لندن للمصادقة النهائية . فلما عرض النص على هذ الحكومة وافقت عليه باصلاح طفيف ، وتم عندئذ انشاء « معاهدة صداقة وتحالف نهائية » كان التوقيع عليها في طهران بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٤ ، على يد جيمس موريو (James Morier) الذى أصبح سفيرا في طهران ، وناب عن حكومته في التوقيع على النص الاخير[٨] .

ولقد تألف النص بوضعه الاخير من مقدمة واحدى عشرة مادة ، أشار في مطلعه الى المعاهدة وموادها بالعبارة المنمقة التالية : « ان هذه الاوراق السعيدة باقة مقتطفة من بستان الالفة السالمة من الاشواك ، ومعقودة بأيدي ممثلي الدولتين العظيمتين على هيئة معاهدة نهائية تمازجت فيها مواد الولاء والصداقة » . وفي هذه العبارة الاولى من تلك المقدمة دليل على ما كانت عليه ذهنية الدبلوماسية الفارسية . ولقد اتضح بعد ذلك أن « الاوراق » المشار اليها لم تكن « سالمة من الاشواك » بالنظر الى الفرس انفسهم على الاقل . ولما كانت مصلحة بريطانيا في الدولة الفارسية لا تزال مصلحة سياسية بالدرجة الاولى ، فان الشؤون الاقتصادية بين الطرفين ارجئت صراحة الى « معاهدة تجارية » مقبلة (كان انعقادها سنة ١٨٤١) .

والمعاهدة التي نحن بصددها اقرت (في المادة الاولى) الغاء جميع العلاقات الفارسية بكل دولة معادية لبريطانيا ، وضمنت تعهد الفرس باسداء اقصى ما في وسعهم من المساعدة للبريطانيين في الدفاع عن الهند تجاه أي مغير كان . وبالاضافة الى هذا تعهد الفرس (في المادة الثامنة) باسداء المساعدة العسكرية لحكومة الهند ضد الافغان اذا ما نشبت حرب بين الطرفين . أما اذا نشبت الحرب بين فارس والافغان فان بريطانيا (حسب المادة التاسعة) تلتزم الحياد . وقد تعهدت بريطانيا (في المادة الحادية عشرة) بأن تقوم بوارجها الحربية بمساعدة الدولة الفارسية في حوض الخليج

---

(٨) راجع نص المعاهدة الاولى (لعام ١٨١٢) فيما يلى :
Aitchison. *op. cit.*, XII, 49-54.

العربي – تجاه ما يظهر لها من عدو – على شرط ان يكون تقديم المساعدة المنشودة « ممكنا دون صعوبة » . واذا ما هوجمت المملكة الفارسية فكان على بريطانيا (حسب المادة الرابعة) اما أن تقدم لها مساعدة عسكرية ، واما أن تدفع لها منحة سنوية قدرها ٢٠٠٫٠٠٠ تومان – أي زهاء ١٥٠٫٠٠٠ باون استرليني – تدفعها لها اقساطا ما دامت الحرب قائمة ، على شرط ان تصرف المبالغ على تأليف الجيش وتدريبه ، « وان يقتنع الوزير الانكليزي من صرفها كما يجب في سبيل الغرض الذى تعينت من اجله »[٩] .

على هذه الصيغة النهائية استقرت في سنة ١٨١٤ تلك المعاهدة التمهيدية التي كان انعقادها منذ سنة ١٨٠٩ . فاذا ما كانت الوثيقة في بداية أمرها دليلا على تأسيس النفوذ البريطاني في بلاد فارس ، أى في أعظم جزء من اجزاء الشرق الاوسط ، فانها كانت في وضعها النهائي دليلا على حدوث تطورين خطيرين . أولهما حدث في اتصال فارس دبلوماسيا بالحكومة فى لندن بدلا من الحكومة فى الهند ، اتصالا نهائيا – كان من جرائه ان أصبح في وسع حكومة الهند أن تعنى أكثر مما سبق بالمصالح البريطانية في الخليج العربي وما بين النهرين . أما التطور الثاني فقد اتضح في ادراك بريطانيا لاول مرة احتمال صيرورة بلاد فارس – وباقي أجزاء الشرق الاوسط – ميدان تنافس بينها وبين روسيا . ولقد حدث التنافس بينهما بعد ذلك فعلا ، كما سنلاحظ في غير هذا المحل[١٠] . ولنتقدم الآن لملاحظة توطيد النفوذ البريطاني في حوض الخليج .

تأسيس النفوذ البريطانى فى الخليج العربى

فهناك دولة عمان المشرفة على مدخل الخليج العربي ، وهي لموقعها هذا كانت حرية بأن تسترعي اهتمام البريطانيين ، حتى بعد احتلالهم جزيرة

---

(٩) راجع نص المعاهدة هذه فى (Aitchison) المذكور أعلاه ، ص ٥٣ – ٥٦ . وراجعه أيضا فيما يلى :

British and Foreign State Papers, I, Pt. I, 261-264.

(١٠) راجع ادناه ، الفصل الخامس .

موريشياس التي اعتمد عليها الامام سعيد . غير انهم على ما يظهر شعروا حوالي سنة **١٨١٠** بأنه كان في وسعهم اهمال عمان والامام سعيد دون أن يخشوا جانبه نظرا لانشغاله بالدفاع عن كيان دولته في وجه التوسع الوهابي بزعامة ابن السعود والقائد المغوار (مطلك) . فلما أوشكت عمان ان تنصاع لضغط الوهابيين حدث عندئذ فتور في ضغطهم عليها نظرا لانشغالهم في درء الحملة المصرية على الحجاز خلال المدة (١٨١١-١٨١٢). ولما عاد (مطلك) سنة **١٨١٣** للقيام بالحملة على عمان لقى حتفه في أثناء الحملة ، وفي السنة التالية توفى ابن السعود . ولقد بدأ في تلك الآونة امتداد النفوذ البريطاني الى عمان منذ أن سمح الامام سعيد سنة **١٨١٣** باقامة ممثل بريطاني لديه .

غير أن مشكلة الجواسم ظلت مستعصية حتى اذا ما توفى رئيسهم الاعلى ابن السعود اشتدت قرصنتهم في حوض الخليج فاشتدت وطأتها على التجارة البريطانية . وحدث في شتاء سنة **١٨١٨ – ١٨١٩** أن أنزل الجواسم ضربة بليغة بالسفن البريطانية وغنموا منها الشيء الكثير . فما كان من حكومة الهند الا أن أرسلت على الاثر حملة كبيرة بقيادة السر وليم غرانت كير (Major General Sir William Grant Keir) ليسترجع الأسلاب ، ويقضي القضاء المبرم على القرصنة في تلك الربوع . وحدث فى أواخر سنة **١٨١٩** أن التحم القرصان بتلك الحملة فى مواقع حربية عنيفة أسفرت عن مقتل الكثير منهم واندحار الباقين ، واحتلال مركزهم الشهير المسمى برأس الخيمة من قبل القائد البريطاني كير . ولم يكتف هذا القائد بما تم على يده في تلك الملاحم من نصر حاسم ، بل تقدم على أثر ذلك الى مختلف مراكزهم الساحلية وانزل بهم الضربة تلو الاخرى لكي لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك(١١) . فكان له ما أراد ، وأصبحت تلك القرصنة في خبر كان .

---

(11) Low, C.R., *The Indian Nacy, I*, 363.

وللاطلاع على تفاصيل هذه الحملة الخطيرة راجع المصدر نفسه ص ٣٥١ – ٣٦١ . وعن اخبار القرصنة في الخليج العربى اجمالا راجع ما يلى : Wilson, *op. cit.*, 192-212.

وعندئذ اغتنم القائد البريطاني فرصته الثمينة لا في استرجاع الاسلاب فحسب ، بل في نشر السيطرة البريطانية على تلك الربوع . فلقد أدى انتصاره على الجواسم الى عزل عمان ساحليا والسيطرة على مدخل الخليج العربي . ونصت معاهدة الصلح المنعقدة بينه وبين كبير شيوخ الجواسم بتاريخ ٦ كانون الثاني سنة ١٨٢٠ ، على تخلي الشيخ له عن مراكز حصينة ، وتسليمه اليه كمية لا يستهان بها من الغنائم . « وعلى هذه الشروط » ، كما ورد في المادة الرابعة من تلك المعاهدة ، « كان انتهاء الاعمال العدوانية بين القائد وبين سلطان ابن صقر (Suggur) وتابعيه ، (مضافا الى تلك الشروط) امتناع سفنهم عن الخروج الى البحر » . والى جانب هذه المعاهدة تم انعقاد اربع معاهدات أخرى كل واحدة منها مع واحد من أكابر الشيوخ ، وكان ذلك على التوالي بتاريخ ٨ و ٩ و ١١ و ١٥ كانون الثاني من السنة ذاتها . وكان الغرض منها جميعا استرجاع ما كانت تلك القبائل قد غنمته من البريطانيين ، وضمان عدم قيامها في المستقبل بشيىء من ذلك . وعلى هذا كان اشتراط التخلي عن حصون ، وتسليم سفن ، ومدافع وبضائع ، واسرى هنود[١٢] .

على ان أهم ما قام به القائد البريطاني كير انما كان في عقده « معاهدة عامة مع قبائل الخليج العربي » فضلا عن تلك المعاهدات الخمس «التمهيدية» ، وذلك في سبيل القضاء على القلاقل المزمنة في مختلف انحاء الخليج ، وتوطيد الامن اللازم لحرية التجارة البريطانية . فالمعاهدة العامة المشار اليها لم تقتصر على رؤساء الجواسم ، بل شملت غيرهم من أكابر شيوخ تلك

---

(١٢) راجع نصوص هذه المعاهدة فيما يلي :
Aitchison, *op. cit.*, XII, 166-171
ويجدر بنا ان نعلم بأنه لم يحدث قبل سنة ١٨٢٠ ان انعقدت معاهدة بين البريطانيين وأحد من شيوخ الخليج سوى مرة واحدة ، كانت سنة ١٨٠٦ بينهم وبين كبير شيوخ الجواسم ، وكان الغرض منها صيانة التجارة البريطانية هنالك . ولكنها لم تف بالغرض . راجع النص فى المصدر نفسه (Aitchison) ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

الارجاء ، فكانت سجلا مفتوحا لانضمام من أراد منهم ان يصبح في زمرة « العرب الاصدقاء (المسالمين) » • ولقد وقع عليها في أول انعقادها اثنان من الرؤساء ، وكان ذلك في رأس الخيمة بتاريخ ٨ كانون الثاني سنة ١٨٢٠ ، ولم ينته الشهر حتى انضم اليهم ثلاثة آخرون • وقد بلغ مجموع الموقعين عشرة من أكابر الشيوخ ، كان توقيع آخرهم في يوم ١٥ آذار ، وكان من بينهم أميرا جزر البحرين • وفي ٢ نيسان من السنة ذاتها صادق على هذه المعاهدة العامة حاكم الهند العام •

فلم يعد مباحا بأي حال من الاحوال قيام اعضاء تلك المعاهدة بأعمال القرصنة والنهب ، ومن يفعل ذلك منهم كان جزاؤه القتل وخسران الملك • وكان على الرؤساء المتعاقدين ان يقوموا بمساعدة الحكومة البريطانية في معاقبة المسيء • وكان لزاما ان ترفع سفنهم علما ابيضا في وسطه مربع أحمر "White-pierced red" ليكون ذلك شارة السلم بينهم جميعا ، ويكون شارة السلم بينهم من جهة ، وبريطانيا من الجهـة الاخرى ، وان تزود سفنهم بما يقتضي من سجل وجواز "Register and Clearance" لمعرفة بعض الحقائق الهامة من قبيل المحل القادمة منه ، والذاهبة اليه ، ومبلغ سلاحها ، ومقدار حمولتها وعدد بحارتها ، على ان تبرز هذه المعلومات عند الطلب من قبل السفن التي تعترضها بريطانية كانت أم غـير ذلك • ولجميع السفن الخاضعة لهذه الانظمة تكون جميع الموانيء التابعة لبريطانيا مفتوحة للتجارة[١٣] •

وعلى ذلك كله تم تأسيس النفوذ البريطـاني في حوض الخليج العربي ، وأخذ من بعد ذلك بالقوة والاتساع[١٤] •

---

(١٣) راجع نص المعاهدة مع اسماء والقاب الموقعين عليها في مجموعة (Aitchison) أيضا ، المجلد الثانى عشر ، ص ١٧٢ ـ ١٧٦ •

(١٤) لقد صرح رؤساء الخليج فى معاهدة سنة ١٨٥٣ بقولهم : « واننا بالاضافة الى ما تقدم نوافق على قيام الحكومة البريطانية بالاشراف على السلم المنعقد بيننا الآن ، لتقوم هى على ممر الازمان بما يقتضى لمراعاة المواد المذكورة اعلاه ، والله على ذلك خير شاهد ووكيل » • راجع النص الكامل =

٢ – أواخر عهد المماليك في العراق

طبيعة الحكم الثنائية

لقد كان وضع البريطانيين فيما بين النهرين خلال المدة (١٨١٠ – ١٨٣٠) يختلف اختلافا جوهريا عما كان عليه وضعهم في بلاد فارس ، وفي الخليج العربي . فالقطر الذى نحن بصدده كان تابعا نظريا للسلطان ، غير انه من وجهة عملية كان خاضعا لمشيئة الباشا المستقر في بغداد . وعلى هذا فان اتصال البريطانيين بالسلطة العليا في كل من القسطنطينية وبغداد كان امرا لا بد منه لجعل مصالحهم في ربوع الرافدين تستند الى أساس شرعي وواقعي في آن واحد . فالامتيازات المستحصلة من الباب العالي لم تكن بذات فائدة اذا لم يكن الباشا ميالا الى اتباعها . هذا بينما كانت سلطة الباشا قلقة عادة ، نظرا الى استنادها في البداية الى ثورة دامية ، وانهيارها بعد ذلك على اثر ثورة دامية أخرى . وما كان النفوذ البريطاني لينشأ في هذه الربوع الا بعد انقضاء تلك الفوضى ، واستقرار السلطة العثمانية بدلا من سلطة الباشوات .

سليمان ، أول الباشوات المماليك

فالعقد الثاني والثالث من القرن التاسع عشر كانا يؤلفان الربع الاخير من دور خطير في تاريخ وادي الرافدين ، ذلك هو دور المماليك الذى استمر طيلة المدة (١٧٥٠ – ١٨٣١)[١٥] . فالباشوات البارزون جميعهم ،

= فيما يلى : Aitchison, op. cit., XII, 181 . واننا لنقرأ فى مصدر آخر هذه العبارة التالية : « ان حيازة حكومة الهند منذ سنة ١٨٦٤ خطا بحريا للتلغراف ممتدا من الفاو الى جسك ، وخطين ممتدين من جسك احدهما الى كراجى والآخر الى مسقط ، كان من شأنه تعزيز نفوذ سائد من قبل ذلك » . راجع ما يلى :
Persian Gulf, a Handbook prepared by the Historical section of the British Foreign office, No. 76. (London, 1920), 68-69.

(١٥) الكتاب التالى هو المصدر الوحيد الذى تناول هذا الدور بكامله ،
Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Chapters VII-X, 163-276.

والباشوات المغمورون معظمهم ، كانوا طوال تلك السنين الثمانين كرجا في الاصل (أي من منطقة جورجيا) ، وكانوا ارقاء أولا ، عتقاء من بعد ذلك • وكانت سيرة أولهم ، المدعو سليمان آغا ، تمثل على وجه الاجمال سير الباقين منهم • فلقد كان هذا مملوكا لحسن باشا الذى ثقف مملوكه واعتقه • ثم في ظل أحمد باشا (الذى خلف والده في ولاية بغداد) أصبح سليمان آغا عضوا فعالا في الحكومة ، وقدم لرئيسه خدمات جساما عن طريق المناصب العالية التي اشغلها ، بما في ذلك منصب الكهية الذى لم يكن يفضله في بغداد سوى مقام الباشوية • وعندئذ كان اتساع شهرته ونفوذه لما أظهره من مقدرة ، ومن قسوة أحيانا ، في اثناء قيامه بشتى الاعمال •

فلما توفى أحمد باشا ، كان المنتظر بطبيعة الحال أن يخلفه سليمان آغا في الحكم • وهذا ما حدث فعلا على الرغم من محاولة الباب العالي تنصيب شخص آخر • فلقد كان لسليمان من قوة الانصار والاتباع في الباشوية ما أيد دعواه ، وجعله يتغلب على ما ابداه الباب العالي من مقاومة طيلة ثلاث سنين متتابعات • فلما اعترف السلطان بعدئذ بالامر الواقع كانت قد استفحلت هنالك ثورات داخلية ضد سليمان باشا • والى تلك الثورات وجه (أول الباشوات المماليك) جهوده الفعالة ، فقضى عليها وعلى جميع مناوئيه بسرعة وبمنتهى القسوة • وشهدت البلاد على عهده (١٧٥٠ – ١٧٦٢) شيئا غير قليل من الطمأنينة والاستقرار ، وهذا هو عنوان الحكومة الناجحة في ذلك الزمان[١٦] •

فترة من الفوضى فى الحكم

غير ان الوضع لم يلبث ان تبدل على أثر وفاته ، اذ دخلت البلاد في محن من الفوضى دامت ثمانية عشر عاما (١٧٦٢ – ١٧٨٠)[١٧] • فلقد حكم أولا علي باشا مدة سنتين انتهت بانتهاء أجله قتلا على يد غريمه وخلفه عمر باشا الذى بقى في الحكم عشر سنين « تقلصت سلطته في اثنائها باطراد»•

---

(16) Longrigg, *op. cit.*, 163-172.

(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ – ١٨٦ •

وفي سنة ١٧٧٥ حل مصطفى باشا محله بامر من الباب العالي ، فلما لم يتمكن مصطفى من القضاء على ثورة أحد المماليك (المدعو عبدالله آغا) استبدله الباب العالب بشخص آخر يدعى عبدي باشا ، ولكن هذا لم يستقر في منصبه سوى اسبوع واحد نظرا لما اصبح يتمتع به عبدالله آغا من سلطة مطلقة في بغداد ٠

فما كان من حكومة القسطنطينية والحالة على ما كانت عليه ، الا أن تسلم بالامر الواقع ، وتعترف بحكومة الآغا الذى أصبح عندئذ يدعى عبدالله باشا ٠ ولكن سرعان ما اتضح ضعف هذا الباشا في بحبوحة السلم ، كما اتضحت شدته قبلا ابان الثورة ٠ فلقد اضناه المرض والانغماس في الملذات ، وعاجلته المنية سنة ١٧٧٧ بعد أن لم يكن قضى في الحكم سوى ثلاثة أعوام٠ وعلى أثر وفاته عاد الاضطراب والتناحر المعتاد حول المنصب المتروك ٠ ولم يجد نفعا ما قام به الباب العالي من تعيين حسن باشا الذى استمرت في عهده الاضطرابات ، حتى سئمت القسطنطينية وحارت بغداد ٠ وفي هذه الفترة العصيبة كان ظهور الرجل الكفوء ، الذى أصبح من أشهر من حكم البلاد في تاريخها الحديث ٠

سليمان باشا الكبير

ذلك هو سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ - ١٨٠٢) ، أحد المماليك اصلا، ومن أرجحهم في الحكومة مقدرة وفعلا[١٨] ٠ وكان في سنة ١٧٧٩ يشغل منصب الباشوية في البصرة ، وكان يطمح لاحتلال المنصب الارفع في بغداد ٠ وعلى هذا فانه عرض رغبته على السلطان عن طريق الرسائل النظامية ، بدلا من طريق العصيان ٠ ونال في هذا المسعى مساعدة المستر لاتوش (Mr. Latouche) الممثل البريطاني في البصرة « الذى قام مقام وسيطه الخاص في ارسال مبالغ كبيرة الى القسطنطينية للصرف حسب الاقتضاء » ٠

---

(١٨) راجع تاريخ حياته وحكومته فى الفصل الثامن من المصدر نفسه ، ص ١٨٧ - ٢٢٠ ٠

وفي ربيع سنة ١٧٨٠ تم تعيينه لمنصب الباشوية في بغداد ، الا أنه نظـرا لانتشار الثورة لم يستطع دخول مقر وظيفته والقبض على زمام الامور حتى منتصف الصيف . فكان عهده الذى استمر طيلة اثنين وعشرين عاما عهـد استقرار ، وشيىء غير قليل من الرخاء . وكانت علاقته بالبريطانيين علاقة ودية حتى النهاية .

علي باشا

وما أن توفى سليمان باشا الكبير (سنة ١٨٠٢) حتى عاد التناحر على المنصب الشاغر فكان علي باشا رجل الساعة ، اذ قضى على منافسـه الاكبر قتلا بخنجر ، والحق به خنقا اربعة عشر رجلا من ابرز اعوانه . ولكن سلوك الباشا الجديد كان على شاكلة أخرى تجاه منافسه الآخر ، اذ اكتفى بالسيطرة عليه ، وتنصيبه حاكما على تكريت . ولقد انتهى أجل علي باشا فجأة ، في ١٨ آب سنة ١٨٠٧ ، على ايدي أناس « مدفوعين بحزازات قديمة » أودوا بحياته طعنا وهو فى اثناء الصلاة . ومهما كان من حـدوث بعض القلاقل على أيامه ، فان البلاد تمتعت حينذاك بقسط لا يستهان به من الامن والاستقرار .

مغزى حكومة سليمان باشا الصغير

ولقد تولى الحكم بعده رجل شاب ، هو سليمان باشا الملقب بالصغير ، الذى كان يستند الى جماعات قوية من أهل البلد . وفي اثناء حكومة هـذا الشاب على قصرها (١٨٠٧ - ١٨١٠) كان حدوث ما يسترعي الانتباه بينه وبين البريطانيين . ففي سنة ١٨٠٧ ، حيث كانت العلاقات متوترة بين الباب العالي وبريطانيا ، كانت العلاقة بين سليمان باشا الصغير والبريطانيين حسنة ، حتى انه أغرى المقيم البريطاني في بغداد ، وفي البصرة ، بالبقاء في مركزيهما ، وتعهد لهما بالحماية ، فلما حدث بعـد ذلك بسنتين أن اصبحت العلاقات ودية بين القسطنطينية ولندن ، كان موقف الباشا من البريطانيين قد انقلب

رأسا على عقب ، « حتى انه لاسباب ليست معلومة وجه للمقيم (البريطاني) في بغداد من التحقير والاهانات ما الجأه الى الانعزال »[١٩] .

فالغريب من أمر تلك الحوادث لم يكن في اختلاف موقف الباشا عن موقف السلطان ، ذلك لان الباشوات فيما بين النهرين كانوا في الواقع حكاما مطلقين . ولكن الامر الذى يستلفت النظر هو ما حدث « لاسباب ليست معلومة » من تبدل شديد في سلوك سليمان تجاه المقيم البريطاني في بغداد . غير أن القضية هذه لا تلبث ان تتضح اذا ما علمنا بان كلوديوس جيمس ريج (Claudius James Rich) الذى خلف المقيم البريطاني هارفورد جونز سنة ١٨٠٨ ، أخذ يسلك كما لو كان واحدا من أكابر رجالات البلد ، بدلا من كونه ممثل دولة اجنبية فحسب . فلقد أصبحت دار الاقامة على عهده « ندوة الطبقة الراقية من أهل البلد ، وملتقى أكابر الموظفين والوجهاء، ودارا مفتوحة للضيافة ، ومعهدا لدرس الآثار القديمة»[٢٠] فكان في ذلك كله ، وما انطوى عليه من من تدخل كلوديوس ريج في قضايا البلد وازدياد أهميته بين الناس ، سبب لا يستهان به على ما يظهر لارتياب سليمان منه ، وكرهه له ،كما أصبح ذلك سببا لاستياء داود باشا منه في زمن آخر .

غير ان موقف سليمان لم يلبث ان تحسن تجاه المقيم البريطانى نظرا لتدخل حكومة الهند فى الامر ، واحتجاجها بشدة فى القسطنطينية ، وفى بغداد . ولقد استطاع البريطانيون عندئذ القيام بعقد اتفاق مع الباشا بتاريخ ٢٥ كانون الثانى سنة ١٨١٠ ، تأيدت لهم فيه جميع امتيازاتهم المتعلقة بالقطر[٢١] . ولكن الباشا المتصالح كان حينئذ مقتربا من نهاية حكمه ، وحياته . ذلك ان السلطان الجديد ، الشديد ، محمود الثانى (١٨٠٨

---

(19) Aitchison, *op. cit.*, XI, 2.

(20) Longrigg, *op. cit.*, 255.

(٢١) راجع النص فى كتاب (Aitchison) المذكور آنفا ، المجلد الحادى عشر ، ص ١٠ ــ ١١ .

– ١٨٣٩) كرهه لعدم دفعه للباب العالى دخلا ، ولتمتعه بالاستقلال فعلا ٠ وعلى هذا فانه أمر بعزل الباشا ، وانتهى الامر بتاريخ ٥ تشرين الاول سنة ١٨١٠ ، على يد مندوب عن الباب العالى آزرته فى ذلك احزاب محلية قوية ٠ فما كان من الباشا المخذول في ريعان شبابه (اذ لم يكن بعد قد تجاوز الخامسة والعشرين) الا أن يفر من بغداد ، ولكن رجالا من شمّر طوقه عثروا عليه ، فقتلوه ٠

ولقد كانت أيّاما عصيبة ، تلك التي شهدت نهاية عهد سليمان باشا الصغير ، كما تدلنا على ذلك نبذة قيمة ذكرها كاى (Kaye) نقلا عن حجته مالكولم[٢٢] ٠ فلقد كان مالكولم حينذاك فى بغداد ، قادما من بلاد فارس عن طريق كرمانشاه ، ومتجها الى الخليج العربي في طريقه الى الهند ٠ وكان وهو في بغداد ضيفا عند المقيم البريطانى ريج ، يشهد عن كثب آخر مشهد من مأساة سليمان ٠ فلم يستطع وهو في مركز المطلع على حقيقة الحال الا أن يشعر بشىء من الحزن على خاتمة الباشا الصغير ، الذى اقتطعوا منه الرأس « ليلفوه بكل عناية ، ويرسلوه مختوما الى القسطنطينية ، دليلا على النصر » ٠ والى هذه الخاتمة اشار مالكولم بقوله : « انه لمن المستحيل على المرء أن يرى مرأى من هذا القبيل دون أن يشعر بالاسى ، **وان ذكريات الباشا الراحل التى جلبت عليه مصيره** ، تتلاشى جميعها فى شعور من الندم »[٢٣] ٠

غير ان سلوك ريج كان فى اثناء تلك المأساة مدبرا مقصودا على مايظهر ٠ فهو لم يبد حراكا تجاه توسلات سليمان به لنيل شىء من المساعدة مهما كان نوعها ، مجيبا على كل ذلك بانه لا يستطيع الا أن يلتزم الحياد التام ٠ هذا مع انه كان يستطيع التوسط لدى مندوب السلطان لنيل شىء من الرأفة بالباشا

(22) Kaye, *op. cit.*, II, 41-44.

(٢٣) راجع النص فى كتاب (Kaye) ص ٤٤ ٠ والعبارة مكتوبة عندنا بالحرف الاسود نظرا لما قد تعنيه من علاقة المقيم البريطانى بتلك المأساة ٠

المغلوب على امره ، فالعلاقات البريطانية ـ العثمانية كانت فى حينه على احسن ما يرام • ولقد استطاع فعلا ان ينقذ (سكرتير) دفتر دار حكومة سليمان ، « ذلك لان هذا الرجل كان قد ساعد المستر ريج فى خصامه السابق مع الباشا مساعدات خطيرة ، وكان متعلقا بالحكومة الانكليزية »[٢٤] • فنظرا لهذا ، ولما هو معلوم عن مكانة ريج وسلوكه فيما بين النهرين ، ولما كان سائدا بين بريطانيا والباب العالى من علاقات ودية ، لا يكاد المرء يجد بدا من الاستنتاج بأنه كان للبريطانيين اصبع فى سقوط الباشا ، وان سقوطه كان نصرا للمقيم البريطانى فى بغداد •

عبدالله باشا ، وسعيد باشا

وما ان قضى الامر حتى تم تنصيب عبدالله باشا (**١٨١٠ ـ ١٨١٣**) بناء على اتفاق حصل بين مندوب السلطان من جهة ، واحد الزعماء المحليين من الجهة الاخرى • فكانت علاقة الباشا بالبريطانيين حسنة بطبيعة الحال ، حتى قوى مركزهم الى حد ما فيما بين النهرين • ففى سنة **١٨١٢** استبدل لقب « المقيم البريطانى فى بغداد » بلقب « الممثل الدبلوماسى في تركيا العربية » للدلالة على اتساع فى الهيبة والنفوذ[٢٥] • وفى تلك السنة نفسها حصل البريطانيون على مرسومين من الباشا ، يقضى احدهما بمنع فرار المشتغلين في الملاحة عند البريطانيين فى مياه البصرة ، ويقضى الثانى باسترجاع الهنود المجلوبين عبيدا الى هذه المدينة[٢٦] •

غير أن الامر لم يستقم طويلا لعبدالله باشا ، ولم يمنع تنصيبه من قبل السلطان قيام ثورة قاضية عليه • فلقد خرجت عليه قبائل المنتفك القوية ،

---

(٢٤) المصدر نفسه ، ص٤٣ •

(25) Longrigg, *op. cit.*, 255.

(٢٦) راجع النص فى كتاب (Aitchison) المذكور آنفا ، المجلد الحادى عشر ، ص ١١ و١٢ •

وقامت بزعامة حمود الثامر تطالب بعزله ، وتنصيب الفتى سعيد فى محله ، وسعيد هذا هو ابن سليمان الكبير • فكانت هنالك معارك دامية ، اسفرت عن اسر عبدالله أولا ، وخنقه بعد ذلك ، على اثر وفاة ابن حمود الثامر من جراء جراح اصيب بها في اثناء تلك المعارك • وما أن تسنم المنصب سعيد باشا (١٨١٣ - ١٨١٧) حتى اخذت الاحوال على أيامه تسير من سيء الى اسوأ[٢٧] • لقد عمت الفوضى واستعصى امرها بسبب ضعف الباشا ، وفساد المشورة ، ونضوب الخزينة ، واشتداد سواعد الاعداء • وكان في هذا الظرف العصيب أن حل الرجل القوى داود افندى محل سعيد ، فاشغل المنصب عن جدارة ممتازة ، حتى انتهى بانتهاء عهده دور المماليك بعد أن دام في ربوع الوادى زمنا غير يسير •

داود باشا و « تبدل الايام »

ولقد كان داود باشا (١٨١٧ - ١٨٣١) فذا بين الباشوات المماليك فى حلبة الحكم ، ومضمار الثقافة[٢٨] • كان فى بداية حياته طفلا مسيحيا من اطفال الكرج ، حتى اذا ما ترعرع وتداولته الايدى بيعا وشراء استقر به الحال فى دار سليمان باشا الكبير • وهو نظرا لجده ، واجتهاده ، ورجاحة عقله ، لم يلبث أن نال العتق ، واحرز ما كان يغبط عليه من التقدم فى مناصب الحكومة المحلية • كان ماهرا فى استعمال السلاح ، ضليعا لافى

---

(٢٧) عهود الباشوات على ، وسليمان ، وعبدالله ، وسعيد ، دامت زهاء خمسة عشر عاما (١٨٠٢ - ١٨١٧) ، وهى مذكورة فى كتاب (Longrigg) المشار اليه آنفا ، صص ٢٢١ - ٢٣٨ • فباستثناء عبدالله ، قام كل واحد من الثلاثة الباقين باغتصاب منصب الباشوية بالقوة ، ثم قدم الطلب لنيل موافقة السلطان على ما تم فعلا ، وحصل كل منهم على الموافقة المنشودة حسب الاصول • وتلك هى سنة الباشوات المماليك ، اذ كان الفرد منهم (على الرغم من تمتعه بالسلطة الفعلية العليا فى دائرة حكمه) لا ينقطع عن الاعتراف بالولاء للسلطان •

(28) Longrigg, *op. cit.*, 239-249, 260-274.

الادب العربى فحسب ، بل فى الادب الفارسى والتركى ايضا • وكان فضلا عن كل ذلك فقيها بارعا • أشغل داود أعلى المناصب على ايام سلفه سعيد ، فكان حينذاك دفتر دارا ، وكان كهية ، حتى اذا ما أدت المشورة الفاسدة الى تخلى الباشا عنه ، اخذ يعمل عن حكمة ليحل محل رئيسه المأفون • وعلى هذا فانه عرض القضية على الباب العالى عن طريق الرسائل النظامية ، بدلا من مفاجئته بها عن طريق الثورة • وكان ذلك في زمن اقتضت فيه الاضطرابات الداخلية تبديل الحكومة المحلية • وما ان تم تعيين داود للباشوية حسب الاصول ، حتى اخذ بتوطيد الامور ، فقضى قضاء مبرما على مقاومة سعيد (هذا الذى اقتطع منه الرأس احد اعوان داود) • وسرعان ما استتب الامر للباشا الجديد ، فاحرزت البلاد على أيامه من الطمأنينة والرفاه ما لم تحصل عليه في عهد أى واحد من حكامها المماليك ، باستثناء حكومة سليمان الكبير • غير أن علاقة داود باشا بالبريطانيين كانت (خلافا لعلاقة سليمان بهم) مكفهرة على وجه الاجمال[٢٩] •

كان موقف داود باشا من الممثل البريطانى حسنا فى بداية الامر ، غير ان موقفا من هذا القبيل ما كان ليدوم بين حاكم لوذعى قدير ، وممثل اجنبى شديد الطموح • فلقد كان كلوديوس ريج على اتصال بحكومة الهند ، فكان بطبيعة الحال مقدرا لاهمية ما احرزته هذه الحكومة من سيطرة فعالة فى ربوع الخليج العربي (منذ كانون الثاني سنة ١٨٢٠) • وكان ريج على اتصال ايضا بالسفير البريطاني في القسطنطينية ، فكان بطبيعة الحال شاعرا بما كان لهذا السفير من ارجحية لدى الباب العالى • فلا غرو أن يكون ذلك

---

(٢٩) ولهذا السبب على ما يظهر نجد شيئا من التعصب ضد داود فى كتاب (Longrigg) الذى تكررت الاشارة اليه فى كلامنا عن المماليك • ولكن المؤلف هذا اذا ما اظهر شيئا من التعصب للجانب البريطانى فى بعض نواحى كتابه ، فانه كان ضليعا فيما كتبه عن تاريخ العراق ، ومطلعا على احوال القطر عن كثب (حيث كان مفتشا فى وزارة الداخلية أيام قيامه بالتأليف) • وان كتابه على وجه الاجمال موثوق به ، ولا يستغنى عنه فى بابه •

الممثل البريطاني العنيد قد اصبح بعد الباشا « هو الرجل الثاني في العراق »(٣٠) • ولكن الوضع كان على شاكلة اخرى في نظر داود باشا الذى كان يرى بأنه هو صاحب السلطة الفعلية العليا فى منطقة حكمه • فهو لم يكن بعد قد شعر بوطأة « تبدل الايام »(٣١) •

أقدم داود باشا على استعمال الشدة تجاه البريطانيين وممثلهم فى بغداد ، ذلك بعد أن لم يكن في المستطاع تقليص نفوذ هذا الممثل السياسى ، أو الحد من أعماله بالطرق السلمية • وعلى هذا فانه قام بفرض الرسوم على البضائع البريطانية كما أراد ، وقام بجباية هذه الرسوم ، نقدا أو بضاعة ، بالقوة اذا اقتضى الامر • وما كانت شكاوى ريج الشديدة الا لتزيد في شدة الباشا ، حتى انتهى به الامر الى ارسال ثلة من جنوده الى دار الممثلية البريطانية حيث ضربت عليها الحصار ، وصيرت ريج في مقره سجينا • غير أن حكومة الهند تداركت الامر بسرعة ، واحتجت لدى الحكومة فى القسطنطينية وفي بغداد ، حتى اطلق سراح ريج ، وسمح له فى أيار سنة ١٨٢١ ، بمغادرة البلاد •

ولكن داود باشا لم يلبث أن انصاع لضغط القسطنطينية والهند • فلقد كان النفوذ البريطانى قد استقر فى شرقه ، وجنوبه ، وشماله • وكان البريطانيون قد ابدوا اهتماما جديا بشأن ما بين النهرين منذ ما يناهز العقدين• فكان الامر في الواقع أبعد من أن يستطيع معه أى باشا درء تأسيس نفوذهم فى ربوع الوادى ، حتى ان داود نفسه اخذ يذعن لمشيئة الامر الواقع •

وعلى هذا فانه وافق على وثيقة التراضى التى قدمتها اليه حكومة الهند بواسطة ممثلها فى البصرة ، تلك الوثيقة التى لم يحدث ان وقع على ارجح

---

(30) Longrigg, *op. cit.*, 256.

(٣١) المصدر نفسه ، القسم الثانى من الفصل العاشر ، ص٢٥٣ ـ ٢٦٢ •

منها للبريطانيين أحد من باشوات بغداد السابقين[٣٢] • فكان من جملة شروطها استرجاع ما أخذه الباشا قبلا حسب مشيئته من بضائع البريطانيين ونقودهم • وكان غرضها الاساسي يتمثل في مادتها الاولى التى نصت على تعهد الباشا « بالرضوخ لجميع الشروط الواردة في المعاهدات (العثمانية) ، والفرمانات السلطانية ، قديمها وحديثها » • هذا مع العلم بأن فائدة «الشروط» المشار اليها هنا اصبحت الآن (حسب المادتين السابعة والثامنة) لا تقتصر على البريطانيين فحسب ، بل تشمل بالاضافة اليهم جميـــع المنضمـين تحت لوائهم ، « وكل تابع للحكومة » البريطانية • فكان لهم جميعا بموجب ذلك حق حماية الارواح والاموال ، والحرية التجارية التامة ، وتحديد ما عليهم من رسوم بمقدار ٣٪ من ثمن البضاعة •

وعندئذ ظهر كأن الامر استقام لداود باشا ، اذ انتظمت العلاقات بينه وبين الميجر تايلر (Major Taylor) الذى خلف ريج فيما بين النهرين • ولكن سرعان ما اتضح بانه لم يكن فى وسع البريطانيين ، كما لم يكن في وسع الباب العالى ، استساغة حاكم من الطراز القديم ، متمكن في حكومته مثل داود • فلما حدث فى سنة ١٨٢٤ أن طلب الباشا من حكومة الهند تزويده بطبيب وبلـوازم طبيـة ، رفضت ذلك « لانه كان مقصـودا للحـرس المماليك »[٣٣] • غير أن الارتياب الخطير هو ما شعر به الباب العالى تجاه السلطة القائمة فى بغداد ، ذلك لان السلطان محمود الثانى كان فى الوقت ذاته متألما مما كان يحدث في مصر من خروج محمد علي باشا عليه • فهو لم

---

(٣٢) راجع النص فى كتاب (Aitchison) ، المجلد الحادى عشر ، ص ١٢ ـ ١٤ • فالوثيقة مذكورة فى هذا المصدر دون تاريخ • غير أن ما ورد فى كتاب (Longrigg) ، فى حاشيته صفحة ٢٥٥ ، وفى الصفحتين ٢٥٦ ، ٢٦١ ، يدل دلالة قوية على أن الوثيقة انعقدت سنة ١٨٢٢ ، وانها لا يمكن أن تكون قد انعقدت بعد سنة ١٨٢٤ • ومما يجدر بالذكر هو أن هذا الكتاب الفريد فى بابه ، قصر عن ذكر هذه الوثيقة الخطيرة •

(33) Longrigg, *op. cit.*, 261.

يشأ أن يكون لديه باشا آخر من الطراز نفسه ، متمتع فعلا بما لا يستهان به من الاستقلال .

وعلى هذا فقد وجه السلطان محمود الثانى أمره الى داود باشا بلزوم الاحتذاء حذو ما فعلته القسطنطينية من استبدال الجنود الانكشارية بجنود نظامية على نمط حديث . فلم يتأخر داود عن امتثال الامر على صعوبته ، وقام بتنفيذه سنة ١٨٢٦ . غير أن السلطان لم يكن ليرتاح ما لم يحتل منصب الباشوية فى بغداد رجل هو يختاره . فكان في أواخر سنة ١٨٣٠ أن وقع اختياره على رجل كفوء ، كريم ، هو علي رضا باشا الذى توجه من القسطنطينية الى بغداد على رأس جيش لم يكن بالكبير في بداية أمره ، حتى اذا ما اقترب من بغداد كان قد تزايد عدده ، حتى اصبح معظمه متألفا من جموع الناقمين ، والذين اغروا بالمال ، والمتأثرين بالوعد والوعيد .

وكان فى هذا الظرف العصيب أن ألمت بداود باشا افدح الكوارث . فلقد اجتاحت البلاد عامة ، وبغداد خاصة ، موجة من الطاعون ما كان افتكها وأدهاها ، حتى بلغت خسارة هذه المدينة فى الارواح ابان سورة الوباء زهاء اثنى عشر الف نسمة فى كل يوم ، طيلة اثنى عشر يوما من ايام نيسان ، سنة ١٨٣١ . وعندئذ حدث أن تضافر طغيان دجلة مع ذلك الموت الجارف ، حتى غمرت المياه معظم أرجاء بغداد ، وقوضت منها خلال يومين ما لا يقل عن ثمانية آلاف دار ، « دفنت المريض ، والميت ، والنزر الباقى من الاصحاء ، فى قبر واحد »(٣٤) .

فلما انقشعت الغمة كان داود باشا مضنى ، مريضا ، مثقلا بالهموم ، وكان عليه فوق كل ذلك أن يستعد لمقاومة الجيش المقترب منه يوما بعد يوم. ولقد كان الطاعون قد ذهب بمعظم جنود داود ، ولم يكد يبق على أحد من حرسه الخاص ، حتى اصبح لزاما عليه تدبير خطة جديدة للدفاع . وكان فى محنته هذه أن التف حوله معظم من بقى فى بغداد من سكانها ، وعلى

---

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ ــ ٢٦٧ .

رأسهم الوجهاء . ثم حدث فى وقت الشدة أن قدم لشد أزره رجال من العشائر ، حتى اذا ما عسكر جيش علي رضا باشا شمالى بغداد ، فى اوائل حزيران ، كانت المدينة قد استعدت لدفاع شديد . غير أن على رضا باشا ، وهو الرجل الحكيم ، لم يشأ أن يستعجل في دخول حرب قد تلحق بمقر حكمه المقبل اضرارا فوق اضرار . وما أن تقادم أمد الحصار حتى ساءت الاحوال فى داخل بغداد فلم تعد تطاق ، واستفحل الملل من الانتظار بين صفوف الجيش المرابط على الابواب . وعندئذ تقرر الهجوم على المدينة دون تأخير ، اذا هى لم تستسلم في الحال لقاء العفو عن جميع الذين قاموا بالدفاع. وعلى هذا الشرط استسلمت بغداد في أواسط شهر ايلول ، وانتهى بذلك عهد داود ، آخر الباشوات المماليك(٣٥) .

وبانتهاء عهد داود باشا (سنة ١٨٣١) انتهى ذلك الدور الذى تمتع خلاله باشوات الرافدين بالسلطة الفعلية فى البلاد ، واصبحت على اثر ذلك كلمة السلطان هى العليا فى ربوع الوادى ، لا بالاسم فحسب ، بل بالفعل أيضا . وعلى هذا فان الامتيازات البريطانية الصادرة من لدن الباب العالى اصبحت نافذة فيما بين النهرين بقطع النظر عن مشيئة الحاكم في بغداد . واذا ما بقى فى استطاعة الباشا القوى أن يقوم بما يزعج البريطانيين أحيانا فانه لم يعد في استطاعته ان يسلك يوما ما تجاههم كما فعل سليمان الصغير ، أو كما فعل داود ، دون أن يعرض نفسه للعزل عن منصبه ، على اقل

---

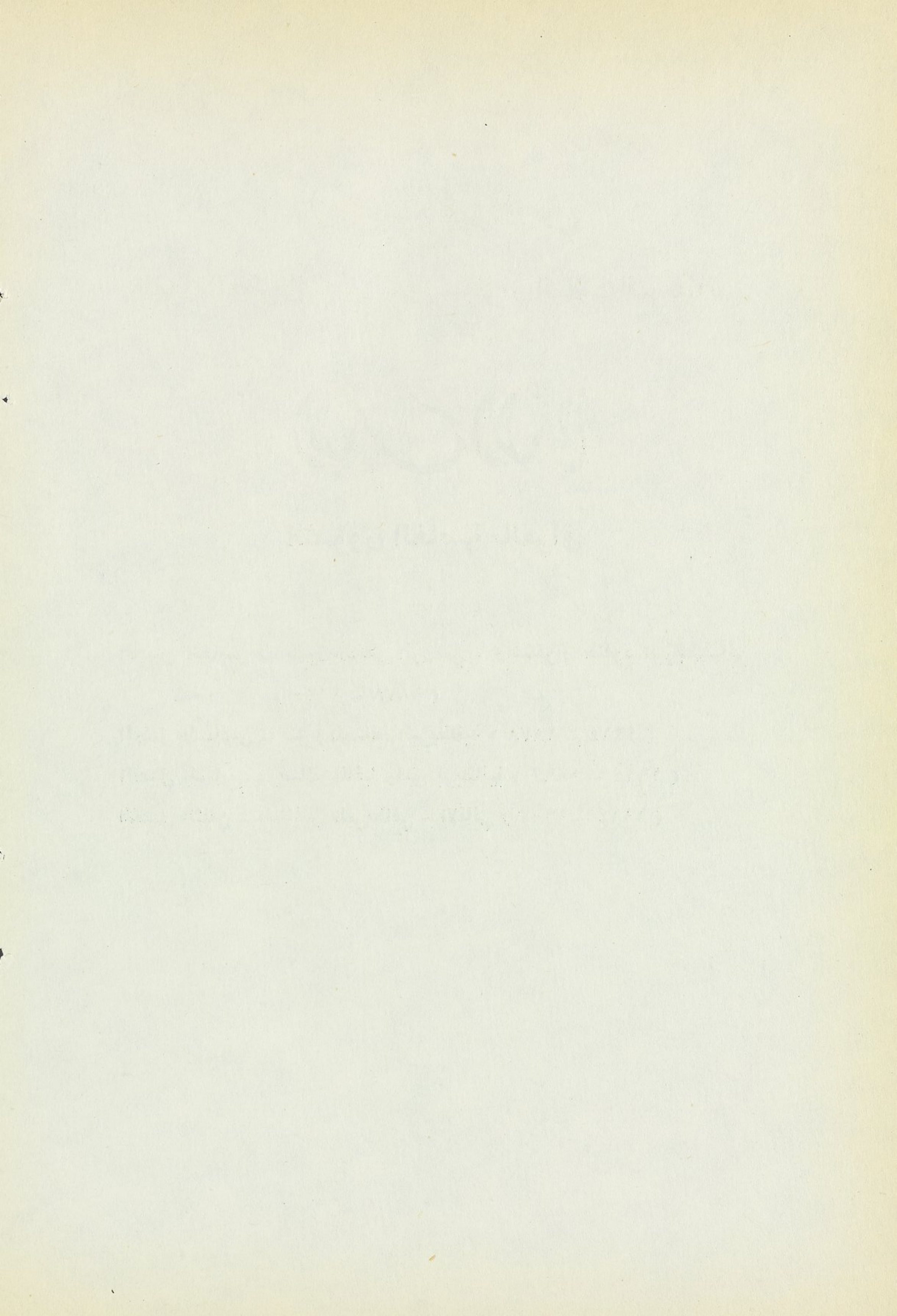
(٣٥) لقد احتفى علي رضا بالمغلوب على امره داود ، ثم أرسله أسيرا الى القسطنطينية ، وأوصى « لاسباب ادارية بالعفو عن المملوك » . ثم بعد ان قضى داود في العزلة سنة واحدة تقريبا ، عاد السلطان الى استخدامه ، ولكن بعيدا عن وادى الرافدين . وعلى هذا فانه اصبح واليا فى البوسنة ، ثم رئيسا لمجلس الدولة فى القسطنطينية ، ثم واليا فى انقرة . ثم بناء على طلبه تعين لسدانة الحرم الشريف فيالمدينة ، وظل يشغل هذا المنصب الرفيع حتى وافته المنية سنة ١٨٥١ . راجع (Longrigg) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ . وعن اواخر ايام داود باشا فى بغداد ، راجع المصدر نفسه ، ص٢٦٧ ـ ٢٧٤ .

تقدير • فالسلطان هو الذى اصبح منذ ذلك الحين يعين من يشاء لمنصب الباشوية فى بغداد ، ويعزل عنه من يشاء •

وعندئذ اصبح الوضع الجديد فيما بين النهرين صالحا للبريطانيين صلاحا كبيرا ، وذلك نظرا لما كان لهم من ارجحية لدى الباب العالى ، ظلوا يتمتعون بها حتى اواخر القرن • غير ان الوضع اذ تمهد لنفوذهم هاهنا ، فان المنافسة الروسية (كما يشير الفصل التالى) أخذت تقلق بالهم وتهدد مكانتهم في مختلف ميادين الشرق •

الباب الثاني

الشؤون الخاصة بالعراق



الفصل الخامس

ظهور الخطر الروسي ، واستقرار النفوذ البريطاني
(١٨٣٠ - ١٨٧٨)

المنافسة البريطانية - الروسية في الشرق الادنى والاوسط ابتدأت حوالي سنة ١٨٣٠ ، وترعرعت بسرعة هائلة خلال العقود الستة التي تلت ذلك ، ثم خمدت في أواخر القرن ، اذ حلت محلها منافسة جديدة (بين بريطانيا والمانيا) • وكان للمنافسة البريطانية - الروسية التي نحن بصددها آثار بعيدة الغور ، واسعة النطاق ، في مجموعة أقاليم مرصوفة ما بين شرقي اوروبا وحدود الهند الغربية • فما كان من آثارها في معظم اجزاء الامبراطورية العثمانية ، أى في الشرق الادنى اجمالاً ، اشارت اليه باسهاب اقلام طائفة متنوعة من الكتاب • وحتى ما كان من آثارها في فارس والافغان ، والاقاليم الصغرى على جانبي بحر خزر ، حظيت بقسط لا يستهان به من عناية بعض المؤلفين الاكفاء • غير أن وادى الرافدين ، وهو حلقة الوصل بين الشرق الادنى والاوسط ، والممر الخصيب بين حوض البحر المتوسط والمحيط الهندي ، لم يحظ بما يستحق الذكر من عناية الباحثين في موضوع المنافسة بين بريطانيا وروسيا • فالى هذه الناحية الخطيرة من الموضوع يجدر بنا ان نوجه الانتباه فيما يلي من الحديث •

١ - الحركات الروسية الاولى

البداية الوهمية للتوسع الروسي

« لقد اقدمت روسيا منذ زمن بطرس الكبير على اغتنام مناطق فارسية ، متذرعة بشتى الحجج الظاهرية ، وملتجئة الى استعمال القوة اذا اعيتها الحيلة ••• أما مدى الانتظام والمثابرة ، وان كانت بطيئة ، في تنفيذ المهمة

التي القاهابطرس الكبير على عواتق خلفائه ، فانه أمر يعود تحقيقه الى التاريخ » . هذا ما ذكره (و.ب. آندرو) في مؤلف نشره سنة ١٨٧٨[١] واننا لنجد ما يماثل هذه الفكرة فيما كتبه (ج.ن. كرزن) بعد ذلك بعشر سنين ، حيث يقول : « ان الغايات التي لم تكن متكاملة لدى بطرس الكبير ، اصبحت الآن أمورا واقعية ، وهي في اثناء تحقيقها تضاعفت مائة مرة »[٢]. غير انه لم يستطع أى واحد من هذين المؤلفين تقديم برهان مقنع على ان ما كان على أيامهما من منافسة انكليزية ـ روسية يرجع عهدها الى زمن بطرس الكبير .

ولقد راجت هذه الدعوى المغلوطة حينا من الدهر بين مختلف الكتاب والمفكرين ، بسبب وصية نسبت الى القيصر الكبير ، ورد في المادة الثامنة منها ما يأتي : « اعلموا بأن تجارة الهند انما هي تجارة العالم ، وان من يستحوذ عليها دون غيره يصبح سيد اوروبا . فلا تضيعوا أية فرصة لاثارة الحرب على الدولة الفارسية ، وتعجيل اضمحلالها ، والتقدم في الخليج العربي ، والعمل على احياء تجارة الشرق القديمة عبر بلاد الشام » . فلو لم تكن هذه الوصية زائفة ، لكان لنا في موادها الاربع عشرة دليل على ما كان لبطرس الكبير من مآرب في الشرق الاوسط[٣] . الا انها زائفة قطعا. وان أول من ذكرها هو المسيو لازور (M. Lesur) في رسالته التي نشرها في باريس سنة ١٨١٢ ، أى بعد وفاة بطرس بما يناهز المائة عام . تحت عنوان Des Progrés de la Puissance Russe والى هذه الرسالة الفرنسية اشار يوجين سكايلر في بحثه القيم الى انها انما كتبت

---

(1) Andrew, W.P. *India and her Neighbours* (London, 1878), 320, 326.

(2) Curzon, G.N., *Russia in Central Asia in* 1889 *and the Anglo-Russian Question* (London, 1889), 413.

(3) Colquhoun, A.R. *Russia Against India* (New York and London 1900), 238-242; Sykes, Percy M., *A History of Persia* (London, 1921), II, 244-246.

« لتبرير حملة نابوليون على روسيا »[٤] .

ومع هذا فان لتلك الوثيقة المختلقة أهمية تأريخية خطيرة . فقد اعتبرها الكثير من الناس صادقة زمنا غير يسير ، وكان لحرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) ، وللحرب التى حدثت بعدها بين روسيا وتركيا (١٨٧٧-١٨٧٨) اثر بليغ في نشر الاعتقاد بين البريطانيين بأن قياصرة القرن التاسع عشر كانوا جادين في تحقيق ما انطوت عليه تلك الوثيقة من مآرب استعمارية جسيمة . ولم يحجم المؤلف هاملتون فى عام ١٩١٩ ، في مثل هذه السنة المتأخرة ، عن اعتبارها صحيحة[٥] . كما أن غيره ممن كان أدق منه تمحيصا اكتفى بالاشارة اليها بكلمة « اسطورة » دون ان ينوه بما يبرر رأيه فيها[٦] . فهي « وان كانت اسطورة » على حد قول پرسي سايكس عام ١٩٢١ ، « فان الفرس ، والكثير من الروس لم يخامرهم الشك في صحتها »[٧] . وانه لم يكن هناك بين سفراء الروس على عهد القياصرة من لم يحتفظ بنسخة منها بين أوراقه الخاصة .

مقدمات التوسع الروسي حتى عام ١٨٠١

غير ان ذلك لا يعني وجود منافسة انكليزية - روسية يرجع عهدها الى زمن بطرس الكبير . كما انه من جهة أخرى لا يعني عدم وجود مصالح روسية قديمة في الشرق الاوسط . فالواقع هو ان شيئا من هذا ظهر منذ أواسط القرن السادس عشر ، حينما أبدى «عاهل المسقوف » رغبته في الاتصال بالهند تجاريا عبر جنوب شرقي بلاده . الا أن شيئا من هذه الرغبة لم يتحقق حتى أوائل القرن الثامن عشر ، حيث عهد بطرس الكبير ، في عام ١٧١٧ ، الى ابن احد امراء الجركس المدعو بيكويتز (Beckowitz)

---

(4) Competent expousure of its forgery is in Schuyler, Eugene, *Peter the Great* (New York, 1884), II, 512-514. See also Colquhoun, *op. cit.*, 238.

(5) Hamilton, Angus, Problems of the Middle East (London, 1919), 62.

(6) Curzon, *op. cit.*, P. 11; *Sykes, op. cit.*, II, 232.

(7) *Ibid.*

باكتشاف طريق آمودريا ، عبر منطقة تركستان[8] • ثم حدث بعد ذلك بست سنوات ان استخدم هذا القيصر أحد التجار الانكليز المدعو بطرس هنري بروس (Peter Henry Bruce) لاكتشاف منطقة بحر الخزر • ثم كانت الخطوة الثالثة في هذا السبيل على أيام القيصرة اليزابث ، اذ تمكن عاملها جون ألتون (John Elton) وهو من التجار الانكليز ، ان يقوم بتجارة رابحة مع الهند • ولقد أشار جون ألتون على شركة الهند الشرقية الانكليزية بأن تستورد الحرير والبضائع الاخرى من الهند عبر الطرق الروسية • الا أن طموح هذا التاجر واتصاله بالشركة الانكليزية ، آثار حفيظة القيصرة ، فأمرت في عام ١٧٤٦ بمنع مرور التجارة الانكليزية عبر بلادها •

وفضلا عن هذه المشاريع السلمية الابتدائية ، حدثت هناك ، خلال القرن الثامن عشر ، أعمال حربية ذات أثر يذكر في ميدان التوسع الروسي• ذلك ان كلا من بطرس الكبير ، وكاترين الكبيرة ، قام باحتلال عدد من المدن والمناطق الواقعة شمال بلاد فارس ، وخاصة في المنطقة الكائنة بين بحر الخزر والبحر الاسود • فكان هناك احتلال مدينتي استراخان ودربند ، ومناطق داغستان ، وشيروان ، وجيلان ، ومازندران ، ومدينتي رشت واستراباد[9] • غير أن ما حدث من هذا الاحتلال كان وقتيا ، وكان احتلاله بعدئذ من قبل روسيا خلال القرن التاسع عشر •

أما فكرة غزو روسيا للهند فيقال انها ترجع الى زمن القيصرة كاترين الثانية التي نظرت في الامر سنة ١٧٩١ ، دون ان تقدم على تنفيذه • على ان أول خطة أكيدة لغزو الهند هي التي وضعها القيصر بولص الاول في مفتتح عام ١٨٠١ فكانت نتيجتها الاخفاق[10] • ثم حدث بعد ذلك اتفاق

(8) Birdwood, G.C.M., *Report on miscellaneous old records at the India Office* (London, 1918) 195-196; Rambaud, Alfred, and four other collaborators, *The Case of Russia* (New York, 1905), 62-63; Colquhoun, *op. cit.*, 2-9.

(9) Rambaud, *op. cit.*, 62-63; Schuyler, *op. cit.*, II, 457-480.

(١٠) راجع صفحة (٨٣) من هذا الكتاب •

تلسيت tilsit عام ١٨٠٧ بين الاسكندر الاول ونابوليون على غزو الهند بمساعدة الدولة الفارسية . الا انه سرعان ما نفرت الدولتان الروسية والفارسية من نابوليون وتقوض المشروع[١١] .

والذي يهمنا في هذا الصدد هو ان الخطط التي اشرنا اليها الآن ، وما سبقها من مشاريع تجارية على أيام بطرس واليزابث ، أو أعمال حربية على أيام بطرس وكاترين ، انما كانت مدفوعة بعوامل وقتية ، لا ترتبط فيما بينها بصلة مقصودة . فهي لم تؤلف سياسة موحدة استهدفت الدولة تحقيقها. وهي انما كانت من جملة مظاهر ما يدعى ب « العهد القديم » في روسيا ، ذلك العهد الذى سبق تولى الاسكندر العرش سنة ١٨٠١ . فبعد هذه السنة ، وخاصة بعد عام ١٨١٣ ، أصبحت لروسيا في الشرق الاوسط سياسة استعمارية واضحة الكيان ، متسلسلة الحوادث .

البداية الوهمية للمنافسة البريطانية ـ الروسية

كلنا يعلم بأن السياسة الاستعمارية الحديثة التي أقدمت عليها روسيا في الشرق الاوسط ، هي التي اقلقت بال بريطانيا ، وأدت الى ما نشب بين هاتين الدولتين من تنافس . غير اننا لا نكاد نجد من يعرف متى ابتدأ هذا التنافس حقيقة . فالمؤرخ (د . س . بولغر) وهو على ما يظهر العالم الوحيد الذى حاول الاجابة على هذا السؤال ، يؤكد بأنه « لم تكن ثمة منافسة بين بريطانيا وروسيا قبل التوقيع على معاهدة كولستان » . ونحن اذا ما قلبنا هذه الدعوى ، فاننا لا نستطيع مطلقا قبول دعواه في الاشارة الى ان تلك المعاهدة

---

(١١) ثم اعقبت ذلك خطط روسية اخرى لغزو الهند ، كما حدث اثناء الهجوم الروسى ـ الفارسى على مدينة هرات عام ١٨٣٧ ، واثناء حرب القرم عام ١٨٥٥ ، واثناء مقاومة انكلترا لمعاهدة سان ستفانو بين روسيا وتركيا عام ١٨٧٨ . الا ان هذه الخطط لم تكن بأوفر حظا من التي سبقتها . راجع كتاب : Curzon, *op. cit*, 324-330

الروسية ـ الفارسية ، المنعقدة عام ١٨١٣ ، كانت دليلا على « ولادة »[١٢] التنافس الذى نحن بصدده • وهذا ما يؤيده الوضع الدولى السائد حينذاك فى المشرق والمغرب •

(١) الوضع في الشرق :

ان الانتصارات التي احرزها الاسكندر حتى عام ١٨١٣ على فارس – وعلى تركيا أيضا – لم تثر أي استياء في نفس بريطانيا • فلقد كانت بريطانيا مشغولة بمكافحة نابوليون ، راغبة في استمالة روسيا الى جانبها ، كما انها لم تكن شاعرة بأي خطر في تلك الانتصارات الروسية • وانها فيما عقدته من معاهدة تحالف مع فارس ، عام ١٨٠١ ، تجنبت الوعد بتقديم أية مساعدة الى حليفتها في حالة اعتداء روسي عليها • فلما حدث الاعتداء فعلا بعد عقد المعاهدة بأربع سنوات ، وقفت بريطانيا على الحياد ، تاركة الفرس ومصيرهم[١٣] • ولم يكن جون مالكولم (John Malcolm) ، وهو من اساطين السياسة الانكليز في تلك الربوع ، يطمح الى أكثر من ايجاد نوع من التفاهم بين الدولتين الروسية والفارسية ، ولم يكن يدري بما يجب ان تقوم به بريطانيا اذا ما رفضت روسيا التفاهم المنشود[١٤] • وأخيرا انتهى ذلك النزاع الروسي ـ الفارسي بمعاهدة عقدت بين الطرفين في ١٢ تشرين الاول ، سنة ١٨١٣ ، توسط في عقدها السفير الانكليزي السر غور اوسلي (Sir Gore Ouseley) بناء على طلب حاكم كرجستان الروسي • فكانت « بنودها كارثة على فارس ، اذ تخلت لروسيا بموجبها عن دربند ، وباكو ، وشيروان ، وشاكي ، وقره‌باغ ، وجزء من تاليش ، واقلعت عن أي ادعاء

---

(12) Boulger, D.C., *England and Russia in Central Asia* (London, 1879), II, 339-340.
وفى الفصل الاخير من المجلد نفسه ، صفحة ٣٣٧ ـ ٣٧٣ ، يجد القارى بحثا مفيدا فى « المنافسة بين انكلترة وروسيا » •

(١٣) راجع صفحة (٧٨ـ٧٩) من هذا الكتاب •

(14) Malcolm's letter to Lord Minto, the Viceroy of India, Nov. 23, 1807: Kaye, *op. cit.*, I, 397.

بكرجستان ، وداغستان ، ومنغريليا ، وايمرشيا ، وابخاسيا • كما انها وافقت ضمنا على الا يكون لها اسطول في بحر الخزر »[١٥] •

هذه في فحوى معاهدة كولستان التي اشار اليها المؤرخ بولغر ، والتى انهت النزاع الطويل الذي نشب بين روسيا وفارس خلال المدة ١٨٠٤ - ١٨١٣[١٦] • فالمعاهدة التي نحن بصددها كانت فاتحة النفوذ الروسي في بلاد فارس ، غير انها لم تكن بوجه من الوجوه فاتحة نزاع بريطاني - روسي في تلك البلاد ، أو في أية منطقة أخرى من مناطق الشرق الاوسط • فهي انما عقدت بوساطة السفير البريطاني في طهران ، وهي لم تكن تتعارض وسياسة بريطانيا الخارجية حينذاك •

(٢) الوضع في الغرب :

فالسياسة البريطانية كما ذكرنا آنفا ، كانت موجهة لدرء خطر نابوليون ، وكان غير هذا الهدف في ميدان السياسة الخارجية امرا ثانويا في نظرها ، لا بل وفي نظر معظم الدول الاوروبية • ففي ٢٨ شباط ، عام ١٨١٣ ، تم عقد معاهدة كاليش (Kalisz) الدفاعية الهجومية ، بين روسيا وبروسيا • وفي آذار من تلك السنة تعهدت بريطانيا بدفع مساعدات مالية الى السويد لقاء قيام هذه الدولة على نابوليون • ثم في شهر حزيران ولنفس الغرض أيضا، تعهدت بدفع مساعدات مالية لكل من روسيا وبروسيا، وحتى في أواخر عهد نابوليون ، في آذار ، سنة ١٨١٥ - ابان فترة المائة يوم - عقد تحالف رباعي بين بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا ، للقضاء على عدوهم المشترك • وعلى هذا فان ما حدث في تلك الآونة من تسوية روسيا

(15) Sykes, *op. cit.*, II, 314.

(١٦) عقدت المعاهدة فى المعسكر الروسى بالقرب من مدينة كولستان ، فى منطقة قره باغ (١٢ تشرين الاول ، سنة ١٨١٣) ، وصودق عليها فى تفليس (١٥ ايلول سنة ١٨١٤) • للاطلاع على النص ، راجع :
Aitchison, op. cit., XII (1909), Appendix V, pp. XI-XIV.

لعلاقاتها بالدولة الفارسية – وبالدولة العثمانية أيضا[١٧] – لم يكن مما يدعو بريطانيا الى القلق ، لا بل مما يدعوها الى الارتياح لتفرغ حليفتها روسيا الى توجيه جهودها ضد نابوليون • وهكذا يتضح لنا بأن المدة (١٨١٣ – ١٨١٥) لم تشهد ما يدل على « ولادة » تنافس بريطاني – روسي •

ولقد استمرت تلك الدول حقبة من الزمن بعد سقوط نابوليون تؤلف « مجمعا أوربيا » ، وهو ما يدعى بالانكليزية Concert of Europe همه القضاء على معالم العهد النابوليوني ، وارجاع الاحوال الاوربية الى عهدها السابق • وهذا ما كان يرمي اليه التحالف الرباعي (١٨١٥) ، وما اعقبه من مؤتمرات ايكس لاشابيل (١٨١٨) ، وتروباو ، ولايباخ (١٨٢٠– ١٨٢١) ، هذه المؤتمرات التي كانت فيها بريطانيا وروسيا من ابرز المتحالفين • ولم تنسحب بريطانيا من ذلك « المجمع الاوروبي » حتى مؤتمر فيرونا ، في أواخر عام ١٨٢٢ • هذا فضلا عن ان روسيا لم تقم خلال تلك المدة في الشرق الأوسط بما يدعو الى استياء بريطانيا ، او يثير قلقها •

بداية التنافس البريطاني – الروسي (١٨٢٨ – ١٨٢٩)

غير ان الوضع تبدل تبدلا جوهريا عند أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، حينما اقدمت روسيا من جديد على التدخل حربا في شؤون فارس – والدولة العثمانية أيضا – مما اقلق بال بريطانيا ، واثار حفظيتها ، فكانت عندئذ البداية الحقيقية للتنافس بينها وبين روسيا في تلك الربوع • فالحرب التي نشبت ، بسبب مشاكل الحدود ، بين روسيا وفارس خلال المدة (١٨٢٦ – ١٨٢٨) انتهت باندحار الفرس ، وعقد معاهدة (تركمان چاي) • كما ان الحرب التي نشبت بعد ذلك بعام واحد بين روسيا والدولة العثمانية ، بسبب تدخل الاولى في شؤون الاخرى على سبيل مساعدة الثوار

---

(١٧) فبموجب معاهدة بخارست (عام ١٨١٢) انهت روسيا حربا دامت بينها وبين تركيا حوالي ست سنوات بصورة متقطعة • وبموجب ذلك احتلت منطقة بسارابيا ونالت حقوقا واسعة في الافلاخ والبغدان (Wallachia & Moldavia)

في اليونان ، وصربيا ، ورومانيا ، انتهت بانتصار الروس أيضا ، وعقد معاهدة (ادرنة) ، عام ١٨٢٩ ، التى أقرت النفوذ الروسى بدلا من العثمانى في مقاطعتي رومانيا . فكان انتصار الروس على الفرس اتم منه على العثمانيين ، وكانت معاهدة تركمان چاي ، المنعقدة في شباط ، سنة ١٨٢٨ ، اشد وطأة من معاهدة أدرنة .

والذي تم عقده بين روسيا وفارس في تركمان چاي هو في الحقيقة معاهدتان ، واحدة تدعى سياسية ، والاخرى تجارية . والسياسية هي المهمة ، وهي التي تقصد عادة عند ذكر معاهدة تركمان چاي[١٨] . ولقد أقرت المادة الاولى والثانية منها حلول السلم والصداقة بين الطرفين ، والاستعاضة بالمعاهدة الجديدة عن معاهدة كولستان . وبموجب المادة الثالثة ، والرابعة ، والخامسة ، حصلت روسيا على مدينتي أريفان ، وناخجيفان ، وعدلت الحدود بين الدولتين بحيث أصبح في الجانب الروسي جميع الممتلكات التي حصلت عليها روسيا قبلا بموجب معاهدة كولستان[١٩] . ونصت المادة السادسة على ان تدفع الدولة الفارسية غرامة حربية قدرها « ثلاثون مليون روبل فضة » . ولم تتنازل روسيا بغير الاعتراف ، في المادة السابعة ، بالامير عباس مرزا وليا لعهد المملكة الفارسية . وفي المادة الثامنة أجيز لكلتا الدولتين انزال السفن التجارية في بحر الخزر ، الا انه لم يسمح الا لروسيا بانزال السفن الحربية . أما المواد الثمان الاخرى (اذ كانت المعاهدة تتألف من ست عشرة مادة) فانها لم تكن بذات أهمية كبيرة نسبيا . فلقد

---

(١٨) للاطلاع على نص المعاهدتين (باللغتين الانكليزية والفرنسية) راجع : Aitchison, *op. cit.*, XII Appendix VI, pp. XV-XXXIII.
ولا توجد فى المجموعة التالية ، British and Foreign State Papers سوى المعهادة السياسية ، فى المجلد الخامس عشر صفحة ٦٦٩ ـ ٦٧٥ .

(١٩) للحصول على خارطة جيدة لما نالته روسيا من الاقاليم بموجب معاهدتي كولستان وتركمان جاى ، راجع كتاب :
Hertslet, Edward, *Persian Treaties, etc., Concluded between Great Britain and Persia, and between Persia and other powers, wholly or partially in force on the Ist. April,* 1891 (London, 1891) pp. 120-121.

كانت تتعلق بالتمثيل السياسي ، وحماية التجارة ، ودفع الدين الفارسي لروسيا ، وتسوية المشاكل الناجمة عن تعديل الحدود ، وقضية اسرى الحرب ، واعلان العفو ، وتصديق المعاهدة .

ولقد ضمنت المعاهدة « التجارية »(٢٠) الى جانب ذلك تعهدات متقابلة لتسهيل التجارة وحمايتها بين الدولتين ، واستيفاء رسوم كمركية لا تزيد على الخمسة بالمائة . كما انها حددت ما يتمتع به ممثلو كل دولة في الدولة الاخرى من امتيازات . وسجلت تعهد كل منهما بحماية ما في منطقة نفوذها من أملاك وارواح رعايا الدولة الاخرى .

هذه هي معاهدة تركمان چاي التي انذرت في عام **١٨٢٨** بحلول المنافسة بين انكلترة وروسيا في الشرق الاوسط . واذا ما اضفنا اليها معاهدة ادرنة المنعقدة بين روسيا وتركيا في عام **١٨٢٩** حصل لدينا ما يعين منشأ المنافسة الانكليزية ـ الروسية في الشرق بصورة عامة . ومنذ ذلك الوقت اخذ التدخل الروسي في كل من الدولتين الفارسية والعثمانية يتزايد باطراد حتى أواخر القرن التاسع عشر ، وأخذت المقاومة الانكليزية في وجه ذلك التدخل تتزايد باطراد أيضا(٢١) .

---

(20) Aitchison, op. cit., XII, Appendix VI, pp. XXVII-XXXIII.

(٢١) الكتب الثلاثة التالية هى الممتازة فيما يتعلق بالمنافسة البريطانية ـ الروسية بصورة عامة :

A. *Curzon's Russia in Central Asia,*

B. *Boulger's England and Russia*

C. H. C. Rawlinson's *England and Russia in the East* (London, 1875).

ولا يخلو الكتابان التاليان من فائدة قيمة فى هذا الصدد ، هذا رغم ما هو ظاهر على ثانيهما من التحزب الى الجانب الانكليزي :

D. Rambaud's *The Case of Russia,*

E. Arminius Vambéry's *The Coming Struggle for India.*

ومما يدعو الى الاستغراب هو ان ليس فى الكتب الخمسة المذكورة اعلاه اى ذكر لما بين النهرين باعتباره منطقة للتنافس بين تينك الدولتين العظيمتين .

ولاجل أن يقوّى الانكليز موقفهم فيوجه التوسع الروسي من جهة ، ويعززوا صلتهم بالهند من جهة أخرى ، اقدموا في حينه على القيام بمشاريع خطيرة في وادى الرافدين ، تضمن لهم ارجحية المصالح فى هذه الربوع • فتم على ايديهم خلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، جمع معلومات تفصيلية عن مجارى دجلة والفرات ، وعن الكثير من شؤون البلاد الحيوية الاخرى •

٢ ـ منشأ الملاحة البريطانية في مياه الرافدين

التفتيش عن طريق جديد الى الشرق

« لقد اصبح للروس الآن سفن بخارية في نهر الفولغا ، وبحر الخزر ، وسيصبح لهم مثل ذلك في نهر سيحون وبحر آرال ، وعلى أغلب الظن في دجلة والفرات أيضا ••• فهم سيعملون في آسيا كل ما لا نقوم نحن بعمله من الامور النافعة »[٢٢] • هذا هو ما صرح به المفتش الاول بدار الهند في لندن (India House) سنة ١٨٢٩ ، وهو أقدم تصريح متعلق بالمنافسة البريطانية ـ الروسية في وادى الرافدين ، ان لم يكن في الشرق الاوسط على الاطلاق •

ولقد ظهرت بوادر هذا الاتجاه البريطاني نحو دجلة والفرات في مشروع خطير أقدمت على درسه شركة الهند الشرقية البريطانية في أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر • اذ أرادت الشركة البريطانية ايجاد طريق للمواصلات بين الشرق والغرب ، يمـر اما بمصـر واما بوادي الرافدين ، ليكون متمما للطريق القديم المار برأس الرجاء الصالح[٢٣] • وكان لابتداء استعمال القوة البخارية في المواصلات المائية حينذاك ، أثر فيما أرادت الشركة تحقيقه • فالسفن البخارية الاولى كانت لصغرها وضعفها ، أصلح للمواصلات النهرية والساحلية منها للقيام بما كانت تقوم به السفن

---

(22) *Parliamentary Papers*, 1834, No. 478, Appendix I, p. 10.

(٢٣) ابتدأ استعمال الانكليز هذا الطريق منذ اوائل القرن السابع عشر • راجع صفحة (٤٥ـ٤٦) من هذا الكتاب •

الشراعية من الاسفار الطويلة حول أفريقيا • هذا بالاضافة الى ان الرغبة في السرعة والاستقامة أصبحت من أهم مقتضيات عصر استخدام البخار في المواصلات البرية والمائية • فلا غرو ان اتجهت الافكار الى استخدام السفن البخارية لنقل البضائع في البحر المتوسط ومنه في اتجاه واحد من طريقين ، يمر أحدهما بمصر فالبحر الاحمر ، ويمر الآخر بنهر الفرات فالخليج العربى • وكان الاعتقاد سائدا بأن استخدام أي من هذين الطريقين يؤدي الى نقص كبير في تكاليف النقل ومدة السفر ، برغم ما كان يقتضيه كل منهما من نقل برى عبر مصر السفلى في الحالة الاولى وعبر بلاد الشام في الحالة الثانية • غير انهم اعتقدوا في الوقت نفسه بضرورة القيام بدراسات تمهيدية واسعة النطاق لمعرفة افضل الطريقين ، وللتثبت من خطواتهم المقبلة •

مهمة جسني ، ومغامرات أورمسبي

ولقد حدث أن كان الضابط جسني Lieut. Francis Rawdon Chesney (١٧٨٩ - ١٨٧٢) ، من جملة الذين عهد اليهم القيام بالمسح والتحريات التمهيدية • وكان قدومه في بادىء الامر سنة **١٨٢٩** قصد الاشتراك في الحرب الروسية ـ العثمانية[٢٤] ، الى جانب الاتراك ، وفقا لميل السياسة البريطانية حينذاك • الا انه وصل عند انتهاء الحرب ، ولم تكد تمضي على مقدمه بضعة أسابيع حتى أخذ على عاتقه المهمة التي امتازت بها حياته المثمرة المديدة • فلقد عهد اليه السفير البريطاني في تركيا السر روبرت غوردون (Sir Robert Gordon) ، القيام بدراسة الطريقين

---

(٢٤) ولقد كتب فى هذا الصدد كتابه :
The Russo-Turkish Campaigns of 1828-1829: with a view of the present state of affairs in the East (second ed., London, 1854).

وللكتاب اهمية خاصة باعتباره مرجعا انكليزيا معاصرا ، ويتضح فيه ما كان سائدا فى بريطانيا حينذاك من الاعتقاد بأن حماية تركيا من الاعتداء الروسى امر لابد منه للاحتفاظ بالهند ، راجع مثلا الصفحات ٣٤٤ ـ ٣٤٧ •

المصري والفراتي دراسة مقارنة[٢٥] • فابتهج جسني بهذه المهمة وقصد مصر حالا والتقى هنالك بزملاء يعملون للغرض نفسه ، أخذ منهم ارشادات وتوصيات اضافية •

وما أن اشرف جسني على الرحيل صوب الفرات حتى كان الضابط أورمسبي (Lieut. H. Ormsby) قد اتم اربع سنوات في مغامرات استطلاعية في وادي الفرات ، قام بها من تلقاء نفسه[٢٦] ، وفي سبيلها هجر بحرية الهند (Indian Navy) طيلة المدة **١٨٢٦ - ١٨٣٠** ، حتى أن اسمه شطب من قائمة الموظفين • على ان البحرية استعادته عن طيبة خاطر بعد ان اطلعت على ما قام به من أعمال • وفي هذا الصدد كتب اورمسبى (ذكريات عن وادى الرافدين) (Memories on the Rivers of Mesopotamia) وكتب أيضا قصة سفره خلال الصحراء بين هيت ودمشق (Narrative of a Journey Across the Desert from Hit to Damascus)

كما كتب صديقه المدعو ولستد (Wellsted) شيئا ممتعا عن مغامرات أورمسبى بعنوان (اسفار الى مدينة الخلفاء Travels to the City of the Caliphs • فكان لهذه الكتب أثر يذكر في الاعلان عن مغامرات اورمسبى من جهة ، وفى توجيه الافكار من جهة أخرى الى ما هو أهم منها في هذا الميدان من أعمال جسنى •

رحلة جسني الاستطلاعية فى وادى الفرات

ولقد اتم جسنى الدور الاول من دراسته الاستطلاعية فى وادي الفرات والخليج العربى بين حزيران **١٨٣٠** وحزيران **١٨٣١** ، تلك المدة التى ارسل فيها رسالتين مهمتين الى السر روبرت غوردون عن التقدم في

---

(25) Hoskins, H. L., *British Routes to India* (Philadelphia, 1928), 148-149.

(26) Low, C.A., *History of the Indian Navy*, 2 vols. (London, 1877), II, 32.

العمل ، كتب الرسالة الاولى فى بغداد بتاريخ ٢٥ كانون الثانى عام ١٨٣١ ، عند منتصف الرحلة جنوبا ، وكتب الثانية فى شوشتر (Shuster) في الجنوب الغربى من ايران بتاريخ ٣ حزيران ، فى أواخر الرحلة . وقد جمع چسني خلال تلك المدة معلومات واسعة ، وقام بتخطيط عدد من الخرائط المفيدة[٢٧] . وما انتصف عام ١٨٣١ حتى أتم دراساته التمهيدية ، وكان على استعداد لتقديم التقرير اللازم الى المسؤولين في لندن . واجتاز في العودة بلاد فارس والاناضول ، ووصل لندن في أواخر عام ١٨٣٢ .

وصل جسنى الى لندن وهو يحمل فكرة جريئة يستلزم تنفيذها جهدا كبيرا وشيئا غير قليل من المال . تلك هى الفكرة التى استندت الى ما أشارت اليه دراساته من أن الفرات صالح لسير السفن البخارية ، والتى ترمى الى اقناع اولى الامر فى انكلترا بضرورة اتخاذ هذا النهر سبيلا للمواصلات بين البحر المتوسط والخليج العربى . وقد عمل جسنى على تحقيق هذه الفكرة لا لاعتقاده بأهميتها لشركة الهند الشرقية فحسب ، بل لاعتقاده بخطورتها للدولة البريطانية أيضا . فكان لما لديه من المعلومات الواسعة ، والقناعة التامة ، والحجج القوية ، أثر بليغ فى دعم آرائه . ولم تكد تمضى سنة على مسعاه فى هذا السبيل حتى اقتنعت اللجنة الادارية لشركة الهند ، كما اقتنعت الحكومة الانكليزية أيضا ، بصحة دعواه .

وفي ٣ حزيران عام ١٨٣٤ تشكلت لجنة خاصة من مجلس العموم البريطانى لمعرفة أفضل الطريقين ، الفراتى والمصرى[٢٨] . وسرعان ما حصلت اللجنة على معلومات واسعة عن الموضوع ، دونتها في النشرة البرلمانية المهمة ، رقم ٤٧٨ (Parliamentary Papers, No. 478) . وكانت شهادة جسنى بطبيعة الحال هى المعول عليها فيما يختص بالطريق الفراتى ، وان

---

(27) *Parliamentary Papers* 1834, No. 478, Appendix 16, pp. 50-98.

(28) *Parliamentary Debate* 1834, 3rd Series, 24, p. 142.

كانت هنالك غيرها من الشهادات . واخيرا اقترحت اللجنة بتاريخ ١٤ تموز « أن يخصص البرلمان مبلغ ٢٠٫٠٠٠ باون استرليني للقيام بتلك التجربة في أقرب فرصة ممكنة »[٢٩] . وعلى هذا الاقتراح تمت مصادقة البرلمان ، والى ذلك المبلغ أضافت دار الهند من عندها ٥٠٠ باون . والى جسني عهدت مهمة القيام بالاستعدادات اللازمة والاختبار المنتظر ، فلم يتأخر في الشروع بما عهد اليه .

أما ما كان البرلمان الانكليزي ودار الهند يبتغيانه من القيام بتلك « التجربة » فهو انشاء طريق تجاري يمتاز بالقصر والسهولة بين بريطانيا والهند . والى هذه الغاية اشارت معظم التقارير والشهادات التي قدمت الى اللجنة البرلمانية . غير أن ذلك لم يكن الا أحد عاملين رئيسيين ، أرادوا بثانيهما الحيلولة دون ما عسى ان تقوم به روسيا من التوسع صوب الرافدين والخليج العربي . والى هذا اشار المفتش الاول بدار الهند[٣٠] . وبه صرح جسني أمام اللجنة قائلا :

> انه من المعلوم ان التقدم الحربي الى الهند بواسطة أي واحد من الطرق الخمسة المارة أو المحاذية لايران يستلزم تضحيات كبيرة بسبب الطقس وحده على الاقل ، طيلة مسافة تناهز الفي ميل ، بينما في استطاعة الجيش اذا ما سلك وادي الفرات ان يتقدم بسهولة وكفاية الى ميادين القتال . وعلى هذا فان أهمية الفرات في المواصلات السريعة تتضاءل بالقياس لاهميته حاجزا في سبيل روسيا ، حاجزا يستند الى تجارة نامية ، مفيدة لنا ، ولمستعمراتنا الشرقية ، وللبلاد العربية[٣١] .

---

(29) *Parliamentary Papers*, 1834, No. 478 pp. 3-4.

(٣٠) راجع صفحة (١٥١) من هذا الكتاب .

(31) *Parliamentary Papers*, 1834, No. 478, pp. 19-20, app. 16, p. 72.

فهذه هى الاهداف التى قام من أجلهـا جسنى ، وغيره من رجالات الامـة البريطانية ، بالمسح والاستكشاف فيما بين النهرين خلال المـدة ١٨٣٠ – ١٨٦٠[٣٢] .

بعثة جسنى الختامية لدراسة مجرى الفرات

ولقد وصل جسنى سواحل انطاكيا فى أواخر عام **١٨٣٤** ، على رأس زمرة من الموظفين المختصين[٣٣] ، ومعه كل ما كان يحتاجه من الوسائل والادوات المهمة . ومن ثم لاقى رجال البعثة صعوبات كبيرة في سبيل نقل اجزاء باخرتيهما من البحر المتوسط الى أقرب نقطة على الفرات ، عند قرية برهجك Birejik ، حتى انهم اضطروا الى استخدام العشرات من الثيران فى سحب بعض القطع الثقيلة . وعند برهجك جمعوا الاجزاء ، ورتبوا الباخرتين المسماتين (دجلة) و (الفرات) ، وانزلوهما فى النهر . وعلى هذا فان العمل فى الفرات لم يبدأ حتى أوائل سنة **١٨٣٥** .

وعندئذ كانت بداية عمل استغرق حوالى ثلاث سنوات ، انحدرت البعثة خلالها على مهل حتى وصلت أبوشهر (Bushir) على الساحل الشرقى للخليج العربى . فكان ذلك عملا مفعما بالمصاعب والاخطار ، الى جانب الشىء الكثير من الامتاع . وكان من أهم ما قام به هؤلاء البريطـانيون المغامرون ، رسم خرائط مفصلة عديدة ، والاتصال بعدد غير قليـل من القبائل والتعرف على أحوالها . كما انهم دونوا الشىء الكثير من المعلومات

---

(٣٢) للاحاطة بمجمل هـذه الاعمـال راجع الابحـاث القيمـة فى Low, *op. cit.*, II, 31-50, 408-416

(33) Ainsworth, W.F., *A Personal Narrative of the Euphrates Expedition* (2 vols., London 1888).

« قائمة الضباط » موجودة في هذا المصدر ، مقابل صفحة XIV . لقد كان المؤلف طبيب البعثة والمختص فيها بعلم طبقات الارض ، وان كتابه ذا المجلدين هو احسن مرجع فى موضوعه .

عن البلاد وساكنيها ماضيا وحاضرا[٣٤] • ومما يجد بالذكر هو ان ما اصابته البعثة من نجاح يعزى بالدرجة الاولى الى ما امتاز به أفرادها من جلد ، ومن تضحية كبيرة • ولا أدل على ذلك من موقفهم تجاه كارثة عظيمة حلت بهم وهم لا يزالون في أوائل المشروع • فلقد اجتاحتهم عاصفة هوجاء قبيل وصولهم (عنه) ، فأغرقت الباخرة (دجلة) وعددا من رجال البعثة ، وقسما كبيرا من نقودها وأدواتها[٣٥] • فما كان من الباقين الا أن دبروا أمرهم ، واستمروا في العمل بعزم ثابت كأن لم يصابوا بسوء •

غير ان كفاية جسني وزملائه ، ومثابرتهم على العمل طيلة ما يناهز ثلاث سنوات ، لم تأت بالنتيجة المطلوبة • ذلك انهم وجدوا بعد الاختبار الدقيق والقياسات العديدة ، ان نهر الفرات لم يكن صالحا لسير السفن البخارية فيما بين أعاليه ومصبه • وعلى هذا اضطر جسني الى التخلي عما كان يرتئيه قبلا ، والاعتراف بأن الفرات لم يكن بالطريق الاصلح للمتاجرة بين انكلترا والهند •

---

(٣٤) خلد جسنى قصة هذه البعثة بكتاب ذى مجلدين فخمين ضمنا تخطيطات عديدة ، وخارطة واسعة رائعة • راجع :

Chesney F. R., *The Expedition for the survey of the Rivers Euphrates and Tigris carried on by order of the British Government, in the years* 1835-1836, and 1837. (2 Vols., London, 1850).

والكتاب بحد ذاته يشبه موسوعة تبحث عن شؤون الرافدين • ولم يتعلق بموضوعه الخاص من مجموع صفحاته البالغ ١٣٦٢ صفحة سوى ما يناهز الثلث • وعلى هذا فان كتاب Ainsworth عن الموضوع نفسه اقرب منه الى الغرض ، وافضل منه فى هذا الصدد ، بالرغم من عدم بلوغه ما بلغه كتاب جسنى من الفخامة والضخامة •

(٣٥) وصف جسنى هذه الكارثة فى تقرير رسمى نجده منقولا فى كتاب Low, op. cit., II, 38-40. وتعليقا على هذا التقرير يقول صاحب الكتاب « ان هذه الكارثة الشعواء ذهبت بحياة ضابطين ، وثلاثة عشر اوروبيا ، وخمسة من الاهلين ، الا انها لم تثبط ، بوجه من الوجوه ، عزم الباقين على المثابرة فى اعمال المسح والتقدم جنوبا فى نهر الفرات ، حتى كان لهم ما ارادوا ، بالرغم من فقدان باخرة واحدة بما كان فيها من ذخيرة وأدوات ثمينة وفقدان قسم كبير من الجماعة ، والنقود كافة » •

ولئن اخفقت الرحلة في تحقيق ما كانت ترمى اليه ، فانها نجحت فى نواح أخرى ، اذ كانت فاتحة مشاريع بريطانية خطيرة . فان جسنى الذى توجه من أبوشهر (Bushir) ، عند انتهاء الرحلة في عام **١٨٣٧** ، الى لندن لتقديم التقرير المطلوب[٣٦] ، ترك الباخرة (الفرات) بقيادة احد مساعديه المدعو لنج (H. B. Lynch) ، وان هذا اقدم حالا على استكناه نهر دجلة ، فمخر عبابه صعودا وانحدارا ، ومسح ما بين اعاليه وبغداد ، ومن ثم تقدم بالمسح والقياسات الى شط العرب . وكان كل ذلك خلال المدة (**١٨٣٧ – ١٨٣٩**) . ثم قام لنج هذا حوالى عام **١٨٤٠** مع بعض افراد عائلته بتأليف شركة للملاحة فى نهر دجلة .

على ان قضية التحريات والاستكشافات البريطانية التى اجريت فى وادى الرافدين خلال القرن التاسع عشر لم تنته بما تم على يد جسنى ، وعلى يد لنج . فلقد قام بعدهما فلكس جونز (Commander Felix Jones) القائد في بحرية الهند ، بأعمال مهمة أخرى فى هذا السبيل ، خلال المدة (**١٨٤٧ – ١٨٥٣**) ، تناولت بغداد وضواحيها ، والمحلين الآثاريين : بابل ونينوى . وقد ورد فى حديث أحد أعوانه المسمى كولنكود (Collingood) ما يشير الى حراجة الظروف التى احاطت به وبزملائه من اتباع جونز ، في اثناء قيامهم بتلك الاعمال . فهو يذكر متحدثا عن نفسه : « اننى وحدى انجزت تخطيط بغداد ، في ظروف جد عصيبة ، اذ كنت مضطرا الى العمل خفية ... وقد حدث أحيانا ان قمت بتسجيل المواقع والمحلات على قميصى الابيض ، مغتنما الفرصة اذا ما استطعت الحصول حينئذ على قلم الرصاص . وكثيرا ما أوشك أمرى ان يفتضح ، كما لا يخفى عليك ، حتى اننى توسلت

---

(٣٦) فى التقرير البرلماني رقم ٣٥٦ لعام ١٨٣٧ – ١٨٣٨ نجد خلاصة وافية لما قامت به بعثة جسنى من اعمال وما توصلت اليه من نتائج . واننا لنجد فى تقرير برلمانى آخر مجموعة المراسلات المتعلقة بتلك البعثة ، راجع : *Parliamentary Papers*, 1837-1838, No. 356; *Parliamentary Papers*, 1837, No. 540.

بشتى أنواع الحيل لدفع الريبة »[٣٧] .

ثم لما عين جونز في عام ١٨٥٥ مقيما بريطانيا في أبوشهر ، خلفه القائد سلبى (Commander Selby) فى أعمال المسح واستمر فى وظيفته هذه حتى عام ١٨٦٢ . وكانت أهم أعمال سلبى مقتصرة على وادى دجلة بين بغداد وسامراء . وبانتهاء مهمته انتهت ثلاثة عقود من القرن التاسع عشر (١٨٣٠ - ١٨٦٠) كانت خطيرة جدا فى تاريخ وادى الرافدين ، جمعت خلالها معلومات مهمة عن هذا الوادى ، واستقر خلالها نفوذ بريطانيا في هذه الربوع .

٣ - العراق يصبح منطقة نفوذ بريطانية (١٨٣٠ - ١٨٧٨)

تمهيد

لقد تضافرت حوالى سنة ١٨٣٠ حوادث ثلاثة كان لها ابلغ الأثر في توطيد النفوذ البريطانى فيما بين النهرين . ولقد مر بنا تفصيل هذه الحوادث فكان منها أولا قيام روسيا خلال المدة (١٨٢٨ - ١٨٢٩) باحتلال مناطق فارسية واخرى عثمانية ، وتأثير ذلك فى قيام بريطانيا بتعزيز نفوذها في ربوع الشرق درءا لما أخذت تخشاه من امتداد النفوذ الروسى فى تلك الربوع . أما الحادث الثانى فقد اتضح فى محاولة الحكومة البريطانية اتخاذ نهر الفرات طريقا مختصرا الى الهند ، وشروع جسنى باعماله الاستطلاعية في هذا السبيل . وكان الحادث الثالث انتهاء حكم المماليك فيما بين النهرين (فى سنة ١٨٣١) وامتداد سيطرة الباب العالى الفعلية على البلاد ، مما فسح مجال التدخل البريطانى فى شؤون القطر من هذا الباب .

ويجدر بنا أن نعلم بأن أقدم اشارة الى وجود « نفوذ » بريطانى فى وادى الرافدين هى ، على ما يظهر ، تلك التى ذكرها جسنى في تقريره

---

(37) Low, *op. cit.*, II, 409n.

الرسمى الذى كتبه فى بغداد فى أوائل سنة **١٨٣١** ، حيث أشار الى منطقة بغداد بقوله : « ان نفوذنا سائد ومهم الآن فى الباشوية »[٣٨] . غير أن فى هذه العبارة شيئا من المبالغة ، وسبقا للحوادث ، اذ لم تكن تعنى (نظرا للواقع حينذاك) أكثر من تمتع البريطانيين بصيانة أرواحهم وأموالهم ، وانتهاء تعرضهم لدفع رسوم باهضة . وهذا ، كما نعلم ، هو الذى احرزه البريطانيون نتيجة لانتصارهم دبلوماسيا على آخر الباشوات المماليك[٣٩] .

ولقد كانت المدة (**١٨٣٠ - ١٨٦٠**) هى الزمن الذى تأسس فيه نفوذ بريطانيا فى وادى الرافدين ، وذلك لما مر بنا ذكره من قيام البريطانيين بأعمال المسح والتخطيط ، تلك الاعمال التي اقتحموا في سبيلها الاخطار وصرفوا من أجلها الاموال . ولما حدث فى اثناء ذلك من تأسيسهم « شركة الملاحة البخارية في دجلة والفرات » ولما اثير في الوقت ذاته من دعاوة واسعة النطاق لاجل انشاء سكة حديد فراتية ذات خطر متوقع جسيم .

وبعدئذ استقر نفوذ بريطانيا فى ربوع الوادى نظرا لما حدث من توطيد نفوذها في الدولة العثمانية اجمالا منذ مؤتمر برلين سنة **١٨٧٨** ، كما سنلاحظ فى خاتمة هذا الفصل .

تأسيس شركة « بيت اللنج »

أما شركة الملاحة ، وهى ما تعرف عادة بشركة بيت اللنج ، فانها تألفت نتيجة لما نعلمه من قضايا المسح والتخطيط . وذلك أن هنرى بلوس لنج (Henry Blosse Lynch) الذى خلف جسنى فى قيادة الباخرة (الفرات) ، وقام بتخطيطات كثيرة لمجرى دجلة خلال المدة **(١٨٣٧-١٨٣٩)** اقتنع بما لهذا القطر من مستقبل تجارى باهر ، واقنع بذلك اخاه المدعو توماس كار لنج (Thomas Kerr Lynch) فقام الاخوان مع

---

(38) *Parliamentary Papers*, 1834, No. 478, app. 16, pp. 71-72.

(٣٩) اعلاه ، صفحة (١٣٥-١٣٦) الى نهاية الفصل الرابع .

بعض أفراد عائلتهما بتأسيس بيت تجارى (Commercial house) في بغداد حوالي سنة ١٨٤٠[٤٠] •

وكانت بداية أعمال هذا البيت التجارى رابحة حتى ان القائمين به (Messers. Lynch) عرضوا على شركة الهند الشرقية ابتياع الباخرة (الفرات) مع باخرة أخرى عندما أرادت هذه الشركة نقلهما من مياه الرافدين • ولما لم تكن أهمية هذا الاقتراح الاستراتيجية بخافية على شركة الهند ، فانها وافقت عليه ، وتمت مراسيم البيع والشراء ، واصبحت لبيت لنج في أواسط العقد الخامس باخرتان تجاريتان تعملان لحسابه • ومن ثم اتسعت اعمال هذا البيت التجارى اتساعا كبيرا حتى ان الحكومة البريطانية وافقت سنة ١٨٦٠ على قيام اصحابه من عائلة لنج بتأليف شركة تعرف رسميا ب « شركة الملاحة البخارية في دجلة والفرات » • وما أن مضت على تأسيس هذه الشركة زهاء عشر سنين حتى استبدلت باخرتيها القديمتين باثنتين جديدتين ، جلبتهما من انكلترا عن طريق قنال السويس المفتوح حديثا حينذاك ولم تفتأ الشركة بعد ذلك تتسع مالاً ونفوذا •

ولقد استند بيت لنج في بادىء الامر الى فرمان اصدره الباب العالي سنة ١٨٣٤ بناء على طلب الحكومة البريطانية تسهيل مهمة جسني المعروفة[٤١]• فكان الفرمان بمثابة وصية موجهة الى جميع حكام وادى الفرات على اختلاف مناصبهم بألا يعرقلوا بأى وجه من الوجوه قيام البريطانيين بالاستطلاع والملاحة في ذلك النهر • فالوثيقة العثمانية هذه اقتصرت على ذكر الفرات دون دجلة ، ومع هذا فان بيت لنج الذى اقتصرت ملاحته واعماله التجارية على نهر دجلة ظل زمنا غير يسير يعتبرها الاساس

---

(40) Fraser, David, *The Short Cut Rout to India: the Record of a Journey along the Route of the Baghdad railway* (*London*, 1909), 254-256; Hoskins, *op. cit.*, 423-425.

(41) *Parliamentary Papers*, 1837, No. 540, p. 5.

وللاطلاع على نص الفرمان راجع ايضا : Aitchison, *op. cit.*, XIII (1908), 16-17; Hertslet, *Commercial Treaties*, XIII, 838-839.

القانوني لوجوده . والى هذه الظاهرة المرتبكة اشار داود فريزار David Fraser سنة ١٩٠٧ ، أى بعد تأسيس الشركة بما يناهز نصف قرن ، حيث قال : « ليس ثمة ذكر لنهر دجلة وانه لحد هذا اليوم ، حسبما وصل اليه علمى ، تقوم شركة بيت لنج بالملاحة في نهر واحد استنادا الى فرمان يشير الى نهر آخر . والفرمان نفسه فضلا عن ذلك لم يمنح مطلقا الى هذه الشركة ، وانما كان منحه الى الحكومة البريطانية »[٤٢] . على ان هذا التعامل المغلوط قد لا يظهر غريبا بالنظر الى ما كان عليه رجال القسطنطينية من جهل بجغرافية ما بين النهرين وشؤونه الداخلية . كما ان التفريق بين جسنى وبيت لنج ، وغيرهم من المغامرين البريطانيين لم يكن مما يأبه له هؤلاء العثمانيون . وما داموا هم قد سمحوا بالملاحة في أحد الرافدين (وهو الفرات) فانه لم يكن ليهمهم أكانت الملاحة في هذا أو ذاك أو في كلا النهرين .

ثم بعد مضي بضع سنوات على تركيز البريطانيين ملاحتهم فى نهر دجلة حدث أن بعث الصدر الاعظم رسالة بتاريخ **١٣ أيلول سنة ١٨٤٢** طلب فيها من الباشا الحاكم في حلب تقديم المساعدة للباخرتين البريطانيتين « القائمتين بالملاحة في نهر الفرات لاغراض تجارية » . وبعد ذلك ظهر لأول مرة اسم دجلة الى جانب الفرات في صدد حرية الملاحة البريطانية وكان ذلك في رسالة بتاريخ ٢ نيسان **١٨٤٦** موجهة من الصدر الاعظم الى والي بغداد . واخيرا كانت هناك رسالة شاملة جاءت تأييدا لهاتين الوثيقتين ولفرمان سنة **١٨٣٤** ، وكانت موجهة أيضا الى والي بغداد من لدن رئيس الوزراء ، بتاريخ **١٥** كانون الثانى سنة **١٨٦١**[٤٣] .

فالرسالة الاخيرة هذه (وهي الوثيقة الرابعة) كانت خاتمة الوثائق العثمانية في هذا الصدد وكان ما فيها يعتبر تأييدا شاملا لمزاولة شركة بيت لنج أعمالها الواسعة . هذا مع العلم بأن الوثيقة لم تذكر بيت لنج ولم

---

(42) Fraser, *op. cit.*, 256.

(٤٣) للاطلاع على النصوص راجع :
Hertslet, *Commercial Treaties*, XIII, 839-840, 845-846.

تذكر شركتهم ، وان خلاصة ما فيها تأييد السماح للبريطانيين بالملاحـــة في دجلة والفرات ، على الا يكون لهم في هذه المياه أكثر من باخرتين ، وان يكون المركز الرئيسي لهاتين الباخرتين في بغداد • ومن طريف ما ورد في رسالة سنة ١٨٦١ هذه هو ذكرها موقع بغداد على نهر الفرات • على ان المهم فيها حقيقة هو اشتراطها فرض رسوم معتدلة على الباخـرتين المشار اليهما ، كما لو كانتا في خدمة مؤسسة عثمانية ، خلافا لما كان يفرض عادة على البواخر الاجنبية • وبهذه الامتيازات تمسكت الشركة واستفادت منها منذ أن لم يكن قد مضى بعد على تأسيسها أكثر من سنة واحدة •

ولقد اتسع نطاق أعمال الشركة وتعاظمت أهميتها خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، فأخذت تصطدم خلال المدة نفسها بمنافسة محلية كانت عنيفة أحيانا[٤٤] • غير ان هذا مما يتعلق بنمو النفوذ البريطاني وتشعبه بدلا من بداية تأسيسه • ويكفي هنا أن نعلم بأن الشركة اعتمدت خلال الحقبة التي سبقت الحرب العالمية الاولى على حماية الحكومة البريطانية ، وكان في الخلاف المتأصل بين الشركة والسلطة المحلية ما يدعو لتلك الحماية• فالمحاولة المستمرة التي كانت تقوم بها الحكومة العثمانية دون جدوى لمنافسة الشركة في ميدان النقل النهري كانت سببا في الخلاف ، وكان سبب آخر في دعوى الشركة بأن رسوما باهضة كانت تفرض على ما لها من بواخر وبضائع• فلما حاولت السلطة المحلية سنة ١٨٨٣ مثلا تقييد أعمال الشركة فت في عضدها « احتجاج شديد من حكومة صاحبة الجلالة »[٤٥] •

---

(٤٤) ازدادت الملاحة النهرية فى أواخر القرن التاسـع عشر بسبب ازدياد التجارة مع القطر والتجارة المارة فيه • راجع أدناه ، ص١٨٥ ، وكذلك:
Hall, W.H. (ed.), *Reconstruction in Turkey* (New York, 1918), 86-87; Geographical Journal, XLI, 246-248.

(45) Moberly (ed.), *The Campaign in Mesopotamia, I,* 44; *Mesopotamia,* Handbook No. 63, p. 30.

وفى ٢٨ تموز سنة ١٨٦٨ حصلت الشركة على حق امتلاك العقارات فى جميع انحاء ما بين النهرين • راجع :
Hertslet, Edward, *Turkey* (London, 1875), 75-77.

تآزر المشاريع البريطانية

والخلاصة كما يجدر بنا أن نتذكر هو أن تأسيس شركة بيت لنج كانت نتيجة عرضية لما سبق ذكره من قيام البريطانيين بأعمال المسح والتخطيط في دجلة والفرات • وكان هدف هذه الاعمال انشاء طريق مختصر الى الهند يمر بوادي الفرات ويدرأ ما كانت تخشاه بريطانيا من احتمال توسع روسيا في هذه الجهات • وما أن حلت سنة ١٨٣٧ حتى اقتنعت بعثة جسني بأن نهر الفرات لم يكن صالحا لملاحة البواخر بصورة منتظمة • غير ان البعثة على الرغم من اخفاقها في تحقيق الهدف المنشود اصابت نجاحا كبيرا فيما توصلت اليه من معلومات واسعة النطاق عن البلد وأهله مما تمكن الاستفادة منه في مكافحة الخطر الروسي اذا اقتضى الامر • وفي سبيل درء هذا الخطر بالدرجة الاولى جمعت معلومات مماثلة عن نهر دجلة ، هذا النهر الذى لم يكن في الحسبان اتخاذه طريقا مختصرا الى الهند •

ان المصلحة البريطانية في وادى الرافدين كانت مصلحة استراتيجية أولا وبالذات • وان غرض بريطانيا الاقتصادى في هذه الربوع ، وان تعاظم شأنه خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر فانه ظل أمرا ثانويا بالنظر الى غرضها الاستراتيجي • ولقد اتضحت هذه الحقيقة الاساسية في محاولة استخدام مجرى الفرات طريقا مختصرا الى الهند ، ثم ظهرت أشد وضوحا فيما يدعى بمشروع سكة حديد الفرات • وهذا هو المشروع الذى أريد به انشاء خط حديدى يبدأ من نقطة ما على ساحل بلاد الشام فيجتاز وادى الفرات الى نقطة ما تقع على رأس الخليج العربي ، ليصبح اذا ما تحقق حلقة الوصل بين البحر المتوسط والمحيط الهندى •

مشروع سكة حديد الفرات

لقد ظهرت الدعوة لانشاء سكة حديد فراتية أول ماظهرت سنة١٨٥٧، على أثر ثورة السيبوي (Sepoy) في الهند من جهة وحرب القرم من جهة أخرى ، هذين الحادثين اللذين انذرا البريطانيين بضرورة جعل مواصلاتهم

مع الهند اسرع مما كانت عليه ، وبلزوم تعزيز امبراطوريتهم في وجه الخطر الروسي . غير أن المشروع لم يتحقق على الرغم من شدة تحريض محبذبه ومهارتهم ، ذلك لانه كان يفتقر الى تأييد الحكومة البريطانية ، والحكومة هذه احجمت عن تأييده وعن أية مساهمة فيه[٤٦] . فلقد أذعن رئيس الوزراء اللورد بالمرستون (Lord Palmerston) لتأثير نابوليون الثالث الذى عارض فكرة مدّ سكة حديد بريطانية في بلاد الشام ، البلاد التي كانت اشبه بمنطقة نفوذ فرنسية ، وكان معترفا لفرانسا بالحماية على سكانها المسيحيين . هذا في الوقت الذى ساد الوئام فيه بين بريطانيا وفرانسا مما لم يدع مجالا الى تعكيره من أجل مشروع نظري ، ثانوى الاهمية نسبيا . فالصداقة بين الدولتين كانت قد تعززت خلال حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) التي انتصرتا فيها على روسيا ، وكانت المعاهدة التجارية المهمة التي عقدت بينهما سنة ١٨٦٠ ، وهي المعروفة باسم الممثل البريطاني كوبدن (Cobden) تعتبر برهانا على دوام تلك الصداقة .

وعلى هذا فقد أهمل المشروع زهاء خمسة عشر عاما ، حتى أصبحت الفكرة خلال عودة بالمرستون الى رئاسة الوزراء (١٨٥٩ - ١٨٦٥) كأنها ضرب من الخيال . وفي تلك الحقبة كان افتتاح قنال السويس ، الذى تم رسميا في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ وظهر كأنه الضربة القاضية على الدعوة لانشاء الخط الحديدي المنشود . غير ان عزيمة اصحاب المشروع لم تفتر ، وكانت حجتهم أن القنال وحده لا يمكن الاعتماد عليه اذ في استطاعة العدو عرقلته باغراق باخرة أو أكثر فيه . وان ارجحية السكة على القنال من حيث السرعة أمر لا جدال فيه . وان السيطرة على القنال كانت فضلا عن ذلك للفرنسيين .

فلما اثار أصحاب المشروع دعوتهم اليه مرة ثانية خلال المدة ١٨٧١ - ١٨٧٢ ، لم تكن تقف في سبيل دعوتهم مشكلة جديدة سوى وجود

---

(٤٦) يوجد بحث وجيز مفيد عن « سكة حديد وادى الفرات » فيما يلى : Hoskins, *op. cit.*, 331-342 and 446-450.

قنال السويس ، هذه المشكلة التي تصدوا لها بكل جدارة • وعدا ذلك فان حججهم التفصيلية الشاملة لم تختلف جوهريا في هذه المرة عما كانت عليه فى المرة الاولى • خلاصتها أن انشاء سكة حديد فراتية أمر عظيم الاهمية لبريطانيا لانه يختصر طريق الهند أولا ويدرأ تقدم روسيا الى ربوع الرافدين ثانيا ، ويشجع التجارة البريطانية مع بلدان الشرق الاوسط ثالثا[٤٧] • على ان مساهمة الحكومة في المشروع كانت لا تزال تعتبر شرطا أساسيا ، وفي هذه المرة أيضا احجمت الحكومة عن المساهمة فيه فكان نصيبه الاخفاق • على أن البحث فى الموضوع لم ينقطع حتى العقد التاسع عندما قضى عليه مشروع سكة حديد المانية عرفت بسكة حديد بغداد •

ولسنا ها هنا في صدد التأمل فيما كان يحتمل أن تجنيه بريطانيا من الفوائد فيما لو تحقق مشروع سكة حديد الفرات • فالذى تهمنا ملاحظته انما هو ما أحدثه الموضوع من توجيه انتباه نفر من متنفذى البريطانيين الى أهمية وادى الرافدين بالنظر للمصالح البريطانية ، وما نجم عن ذلك من اتساع هذه المصالح في بلدان الشرق الاوسط • واننا لنقرأ في هذا الصدد ما ذكره السر و•ب أندرو (Sir W.P. Andrew) سنة ١٨٧٧ حيث قال : « لقد مضت عشرون عاما منذ أن تقدم وفد الى اللورد بالمرستون وأكد له على أهمية المشروع ، وكان ذلك وفدا لم يسبق أن حضر أكثر منه عددا ونفوذا بين يدي وزير • ثم فى سنة ١٨٧١ - ١٨٧٢ قامت اللجنة المنتخبة البرلمانية برآسة وزير المالية الحالي ، وأيدت ذلك تمام التأييد موصية الحكومة بانشاء سكة حديد فراتية تربط أحد موانىء البحر المتوسط برأس الخليج العربي •

---

(٤٧) راجع **السجلات البرلمانية** (*Parliamentary Papers*) لسنة ١٨٧١ رقم ٣٨٦ ، ولسنة ١٨٧٢ رقم ٣٢٢ ، ولسنة ١٨٧٢ رقم س ٥٣٤ (C 534) • فالسجل الاول والثانى يؤلفان البحث الشامل والمرجع الرسمى عن موضوع سكة حديد الفرات ، والثانى منهما هو الممتاز فى هذا الصدد • أما السجل الثالث (C 534) فانه مجموعة تقارير قنصلية تتعلق برجاحة المشروع • والمصادر الثلاثة هذه تستعرض القضية منذ بدايتها فى سنة ١٨٥٧ •

ولقد استندت اللجنة فى قرارها الى شهادة اللورد ستراتفورد دى ردكليف، واللورد ستراثنيرن ، والسر بارتل فرير ، والسر دونالد ماكليود ، والسر هنرى كرين ، والمستر س • لينك ، والسر هنري تايلر • وشهادة الجنرال جسنى أول من اكتشف الطريق ، واثنين من موظفي البعثة هما الاميرال ر • ن شارلود ، والمستر و • أينزورث • وشهادة السر جون مكنيل والمستر تلفورد مكنيل والمستر س . أ . ماكسويل الذي مسح وقدم تقريرا عن أصعب اجزاء الطريق • وشهادة الكابتن فيلكس جونز الذى مسح كل الطريق من رأس الخليج العربى حتى البحر المتوسط • فلو كان هذا الطريق في غير يد البريطانيين ، فى يد روسيا مثلا، لامكن التحول عن قنال السويس ، ولامكن مد سكة الحديد عبر ايران وبلوجستان الى الهند على الرغم من جميع ما لانكلترا من حصانات في الخليج العربي »[٤٨] •

ان العدد والمكانة الممتازة لهؤلاء الاشخاص الذين آزروا المشروع ، وما دار حوله من مناقشات وتقارير برلمانية مسهبة ، وما تعلق به من مسح وتحريات والقاء محاضرات الى غير ذلك من الاعمال ، كان له ابعد الاثر في تقريب وادى الرافدين من اذهان متنفذي البريطانيين • وكذلك في توجيه الرأي العام البريطاني الى هذه الربوع • وانه كما يجب أن نعلم ، لم يكن اخفاق المشروع دليلا على نقص فى ذلك التوجيه والاهتمام ، بل انه كان دليلا على اعتقاد رجال الحكم اعتقادا قد يكون خاطئا ، بأن المشروع بحد ذاته لم يكن ليستحق المجازفة • وفي هذا الصدد صرح اللورد بالمرستون فى مجلس العموم البريطاني منذ بداية الامر (بتاريخ ١٠ آب سنة **١٨٥٧**) قائلا : « لقد ذكرت ما اعتقدت بأن من واجبي ذكره ـ **متكلما كرجل غير مختص**

---

(48) Andrew, *India and Her Neighbours*, 298.

وللاطلاع على اسماء والقاب ذلك الوفد الممتاز « عددا ونفوذا » ، وهو الذى طالب بالمرستون بتأييد المشروع سنة ١٨٥٧ ، راجع المصدر نفسه ، صفحة ٣٦٨ ـ ٣٦٩ • وفى الملحق الخامس (Appendix E) من هذا المصدر مقتطفات من وثائق مهمة تتعلق بهذا الصدد • ان السر و• ب• أندرو هو موجد فكرة المشروع ورئيس دعاته ، وأبلغ من بحث فيه •

من عامة الناس ـ بأن المشروع في نظرى وهمى عمليا ، وانني اخاله غير مربح تجاريا ، واعتبره فضلا عن ذلك عرضة لموانع سياسية قوية »[٤٩] ٠

أهمية العراق الاستراتيجية

ومهما يكن من أمر فان ما ورد في صدد الدفاع عن المشروع لم يدع أي شك في عظيم أهمية وادى الرافدين من وجهة الدفاع عن الامبراطورية البريطانية وحفظ مواصلاتها ٠ كما أن ما ورد فيه من تقدير كبير لمستقبل البلاد الاقتصادى لم يخل من أثر في تزايد التجارة البريطانية مع هذه البلاد ٠ واذا ما صحب اندثار المشروع ضعف التأكيد على أهمية القطر من وجهة التجارة والمواصلات ، فان أهميته الاستراتيجية في الدفاع عن الامبراطورية البريطانية لم تزدد الا قوة وتأكيدا ٠

« ان أهمية طريق الفرات العسكرية والسياسية لامر في غاية الخطورة، وان علاقته الاكيدة بالدفاع ليس عن تركيا فحسب ، بل عن بلاد فارس وجميع المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وبحر الخزر والمحيط الهندى ، لهي أشد بكثير مما قد يظن لاول وهلة » ٠ هذا ما ذكره السر و ٠ ب ٠ أندرو (W. P. Andrew) سنة **١٨٧٧**[٥٠] قاصدا « بالدفاع » المشار اليه دفاعا ضد روسيا صراحة ، وهذه هي الفكرة التي ناضل من أجلها هو

---

(٤٩) تأكيد الكلمات بالحرف **(الاسود)** من قبل المؤلف ٠ وللاطلاع على النص راجع المناقشات البرلمانية فيما يلى :

Parliamentary Debate, 3rd series CXLVII, 1681.

ان غلادستون الذى اشترك فى تلك المناقشات المسهبة (المرجع نفسه ، ١٦٥٢ ـ ١٦٨٢) والذى كان رئيسا للوزراء ابان الحملة الثانية فى سبيل المشروع لم يكن بأحسن من بالمرستون « كرجل غير مختص من عامة الناس » ولم يكن باقل منه احجاما عن تقديم المساعدة الحكومية المطلوبة ٠

(50) Andrew, *op. cit.,* 327-328.

وزملاؤه منذ سنة ١٨٥٧[٥١] • ولسنا بحاجة لايراد آراء « المختصين » فيما يتعلق بهذه الناحية الحيوية لما في ذلك من تكرار قد يدعو الى الملل • ويكفي أن نشير هاهنا الى ان السر آندرو نفسه كان يألف الاستشهاد برأي وزير حربية النمسا ، ذلك الحجة العسكرى الشهير الفيلد مارشال البارون كون فون كوننفلد (Field-Marshal Lieutenant Baron Kuhn Von Kuhnenfeld)

فلقد صرح البارون فون كوننفلد منذ سنة ١٨٥٨[٥٢] بان الهدف الرئيسي للتوسع الروسي في الشرق الاوسط انما هو الوصول الى الخليج العربى وان روسيا ستحاول تحقيق هذه الغاية بخطوات تدريجية ، فتحتل مناطق ارمينيا ، وتسيطر على خيوا وبخارا ، وتجتاح شمالي بلاد فارس • ومن ثم تتقدم نحو الخليج العربى باتجاه واحـد أو أكثر من الخطوط التالية :

« ١ ـ الخط الممتد من قارص باتجاه الفرات وما بين النهرين ،

« ٢ ـ والممتد من اريفان باتجاه بحيرة وان، فالموصل في وادي دجلة،

---

(٥١) المرجع السابق ، ٣٧٢ ـ ٣٧٥ ، حيث توجد صورة الكتاب الموجه من و• ب• آندرو الى اللورد بالمرستون بتاريخ ٣٠ حزيران سنة ١٨٥٧ • ومما يجدر بالملاحظة ورود العبارة التالية فى آخر الكتاب المشار اليه : « ولابد لى من تبيان الاعتقاد الشائع من أن أيد اخرى ستستحوذ على الطريق الفراتى اذا لم تقم بريطانيا بهذه المهمة • » ولقد استحوذت بعد ذلك « أيد اخرى » على السكة المنشودة ، فكانت المانية بدلا من ان تكون روسية •

(٥٢) مذكور في المصدر نفسه ، ٣٢٨ ـ ٣٣٠ • ولقداستشهد به آندرو قبل ذلك باربع سنين ، فى محاضرة القاها فى « مؤسسة الخدمة المتحدة الملكية » "Royal United Service Institution" فى أيار ، سنة ١٨٧٣ • راجع ايضا الصفحات (٥٧ ـ ٥٩) من المحاضرة التى القاهـا المؤلف نفسه بتاريخ ١٦ حزيران سنة ١٨٨٢ فى النادى الوطنى وكان عنوانها « طريق الفرات الى الهند ، وعلاقته بقضايا مصر وآسيا الوسطى » • وهذا هو عنوانها الكامل بالانكليزية :
Andrew, W. P. Euphrates Valley Route to India, in connection with the Central Asian and Egyptian Questions: Lecture delivered at the National Club on the 16th *June,* 1882 (London, 1882), 57-59.

فما بين النهرين ، متصلا بالخط الاول الى بغداد ،

« ٣ ـ الممتد من تبريز الى شوشتر (Shuster) في وادى الكرخة (Kercha) ، متصلا بما يلى :

« ٤ ـ الطريق المؤدي من طهران في اتجاه اصفهان الى شوشتر ، ومن ثم الى الخليج العربي ••• » •

تلك هى حسب رأي كونفلد « أهم الخطوط » لتقدم روسيا نحو الخليج • وان للخطين المارين بما بين النهرين أهمية ممتازة كما يقول ، لا بسبب اتصالهما بالبحار الجنوبية فحسب، بل لانهما يؤلفان أيضا قاعدة جيدة للسيطرة على جميع المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وبحر الخزر والمحيط الهندي •

استقرار النفوذ البريطاني فى العراق

في هذا الرأى وأمثاله كانت تتلخص أهمية وادي الرافدين الاستراتيجية لبريطانيا • واذا ما كانت السيطرة على هذه الربوع أمرا محبذاً للبريطانيين، فان احتلالهم فيها مركزا يخولهم الحيلولة دون التقدم الروسي في هذه الجهات كان في نظرهم أمرا لابد لهم منه • كيف لا وان ارجحيتهم فى الدولة العثمانية ، وما كان لهم من مصالح في الخليج العربى ، لا بل وان امبراطوريتهم في الهند ذاتها ، كانت جميعها تصبح في خطر داهم لو أن المجال أصبح مفتوحا لاستقرار النفوذ الروسي على ضفاف دجلة والفرات • هذه هي الفكرة التي نشأت في اذهان البريطانيين منذ سنة ١٨٣٠ ، وأخذت تترعرع خلال العقود الثلاثة التى تلت ذلك حتى اذا ما كانت سنة ١٨٦٠ ، وجرى ما جرى في حرب القرم ، تأصلت الفكرة حتى بلغت مبلغ العقيدة •

وعندئذ ، كما يجدر بنا أن نتذكر ،كانت الدعوة لمشروع سكة حديد الفرات على اشدها ، وكانت أعمال المسح والاستطلاع الواسعة مقتربة بنجاح من نهايتها ، وكانت « شركة الملاحة البخارية في دجلة والفرات » تستقبل أوائل عهدها • وكان نتيجة لذلك كله أن أصبحت ربوع الرافدين في الواقع

منطقة نفوذ بريطانية ، يصدق عليها المفهوم المعروف لمنطقة النفوذ : فهنالك مصالح ، وامتيازات ، وارجحية تتمتع بها دولة اجنبية في قطر متأخر في مضمار المدنية(٥٣) .

غير ان مثل هذا الوضع الأجنبي في العراق العثماني كان يستدعي ما يلائمه من وضع لدى الباب العالي . وهذا ما حدث بعد زمن يسير ، حيث بلغ نفوذ بريطانيا ذروته لدى الباب العالي منذ مؤتمر برلين الذى نجم عنه ، في حزيران سنة **١٨٧٨** ، اتفاق بريطاني - عثماني ضمنت بريطانيا بموجبه الحفاظ على الامبراطورية العثمانية من اعتداء روسيا . وأخذت عوض ذلك (compensation) جزيرة قبرص ، وكذلك تعهدا من الباب العالي يقضي باجراء اصلاحات داخلية . واستمر بعدئذ رجحان كفة بريطانيا في الامبراطورية العثمانية عامة ، وفي بلاد ما بين النهرين خاصة ، حتى نهاية القرن - حيث بدأت المصالح الالمانية النامية تنذر المصالح البريطانية بالخطر في « قلب الشرق الاوسط »(٥٤) .

---

(٥٣) راجع بحث فردريك شومان (Frederick L. Schuman) فى مفهوم « منطقة النفوذ » ، وذلك فى الصفحات ٢٩٧ - ٢٩٩ ، المجلد الرابع عشر من دائرة معارف العلوم الاجتماعية .
(*Encyclopedia of the Social Sciences*)

(٥٤) ولعل ريتشارد كوك فى كتابه عن « قلب الشرق الاوسط » هو أول من اطلق هذه التسمية على العراق :
Richard Coke, *The Heart of the Middle East* (London, 1925).

الفصل السادس

تنوع المصالح البريطانية

١٨٧٨ ـ ١٩١٤

١ ـ الرومانسية ، والتخمين(*)

لقد اتضحت نزعة البريطانيين الرومانسية فى العناية بتاريخ العراق القديم ، واتخاذه دليلا على مايكنه القطر لمن يحسن استثماره من خير عميم• وعلى هذا الاساس جرى تخمينهم الفوائد المنتظرة منه على اوسع نطاق • فأخذوا يشيرون الى العراق بعبارة « جنة عدن » ، وأخذت علاقتهم به تتنوع معنى وتزداد رسوخا •

فاذا ما كانت قضية تخمين الفوائد المنتظرة واضحة لمن يمعن النظر فيها ، فان النزعة الرومانسية ليست على هذا النحو من الوضوح • واذا ما كان الانتاج التاريخي غزيرا في موضوع الرومانسية فاننا سنكتفي منه بمجرد التمهيد لما نحن فيه • هذا مع العلم بأن الاثر أبلغ من التعريف في الدلالة على هذه وأمثالها من نزعات الانسان •

(*) الرومانسية ، وتدعى ايضا بالرومانتيكية ، أو الرومانطيقية ـ أو (الابتداعية) كما ترجمها سلامة موسى « وهي أحسن تعبير عربي أعرفه عن هذا المصطلح » كما يقول الدكتور حسين مؤنس الذى أعرض عن هذا المصطلح فى المقال نفسه ، واستعمل كلمة الرومانسية : راجع (الاهرام) بتاريخ ٦ـ٨ـ١٩٦٥ ، صفحة ١٢ ٠ أما (التخمين) فقد استعملت هنا (ولعلها لاول مرة) بمعنى المصطلح الانكليزي (Speculation) فى علم الاقتصاد ٠ ذلك لان (التخمين) فى اللغة يعنى التثمين والتقدير حدسا أو ظنا ٠ وهذا ما يلائم المعنى المقصود بالفوائد المتوقعة على هذا الاساس ٠

ولقد يبدو غريبا الا توجد في الموسوعة البريطـــانية مادة خـاصة بالرومانسية (Romanticism) قبل صدور هـذا الكتاب فى الانكليزية سنة ١٩٥٧ • أما النبذة الموجودة عنها في الموسوعة الاميركية فقد اعتبرتها جزء من ثورة القرن التاسع عشر الفكرية ، وذكرت بأن هذه الثورة الفكرية امتازت بولع تأريخي مشفوع بميل رومانسي نحو المغامرة والاكتشاف • ثم هنالك في موسوعة العلوم الاجتماعية بحث مستفيض نسبيا ، ومتعاضل نوعا ما ، ظهرت في آخره اسماء عدد غير قليل من المراجع •

والافضل من ذلـك عرضا تاريخيا يجده القارىء في جــزئي كتاب (كارلتون هيز) الموسوم بالتأريخ الثقافى والسياسى لاوربا الحديثة ، وخاصة في جزئه الثاني الذى تناول بحث « الرومانسية والقومية » في فصل ناهـز المائة وثلاثين صفحة • ولقد أشار الى فحوى الموضوع بما نقتطف منه الجمل الاربع التالية : « فالرومانسية لم تكن ظاهرة ذات نوع أو طبيعـة واحدة ، وان تأثيراتها كانت معقدة ، كما كانت عناصرها متباينة ••• وقد توجه بعض الرومانسيين الى الطبيعة في سعيهم وراء الحقيقة ، والى الحياة البدائية في السعي وراء الجمال ••• على ان رد الفعل ادى بالبعض الآخر ان ينشدوا الحقيقة والجمال فيما هو تأريخـــي ، وخاصة فيما يرجـــع الى العصور الوسطى ••• واخيرا تغلغلت العواطف القومية في ذلك التركيب »[1] •

ولقد عالج (ايغون فريدل) هذا الموضوع فى كتابه الموسوم بالتاريخ الثقافى للعصر الحديث • وذكر فى سياق البحث : « ان الحركة والفلسفة الرومانسية متلابسة ، وغامضة ، ومعقدة ، حتى اوشك ان يكون استيعابها أو تعريفها مستحيلا »[2] واوضح بعدئذ في الجزء الثالث من الكتاب ان الحركة الرومانسية أثمرت بالدرجة الاولى في ميداني الجغرافية والتاريخ ، وليس

---

(1) Hayes, C.J.H., *A Political and Cultural History of Modern Europe* (New York, 1937 & 1939), II, 152-153. See also pp. 151-280.

(2) Friedel, Egon, *A Cultural History of the Modern Age*: translated from the German by C.F. Atkinson (New York, 1954), II, 417.

في ميادين الشعر والفنون[٣] .

ومهما يكن هنالك من تفسير لطبيعة الحركة الرومانسية ، فانها كانت في الواقع ذات اثر بليغ في تاريخ بريطانيا الداخلي ، وعلاقـاتها الخارجية ، وكذلك كان فعلهـا فى التاريخ الاوربي الحـديث على وجـه الاجمال . واذا ما كان التحديد الزمني لهذه الحركة مدعاة لشيىء من تباين الآراء ، فان ذلك خارج عن صدد بحثنا . ومع هذا يجدر بنا ان نلاحظ ان واحدة من اقدم القصص البريطانية الرومانسية صدرت سـنة ١٧٨٤ ، وكانت بعنـوان « الواثق » ، لمؤلفهـا وليـم بكـفورد (W. Beckford) الذى تناول ذلك الخليفة العباسي وعاصمته سامراء بماشاء له الهوى ان يفعل . أما الفترة المشار اليها في عنوان الفصل الذى بين ايدينا (١٨٧٨ - ١٩١٤) فانها لا تعني أكثر من تحديد نطاق البحث . فاذا ما ظهرت أحيانا بعض الميول الرومانسية في علاقة البريطانيين بالعراق قبل تلك الفترة فان تلك الميـول لم تبلغ أشدها الا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائـل القرن العشرين .

ألف ليلة وليلة

ولقد يتبادر الى الذهن سؤال عن أهمية الف ليـلة وليلة في هـذا الصدد . فالبريطانيون الذين قدموا الى ربوع دجلة والفرات أكثروا من الاشارة الى تاريخ البلاد ، الا انهم قلما اشاروا الى تلك القصص . فلعل شيئا من الكبرياء منعهم من الاستشهاد بها في مواضيعهم الجدية . أو لعل ما عليه القصص من عمق الأثر وغموضه حال دون الاشارة اليه . غير ان السر آرنولد ويلسون نوه بشيىء من هذا القبيل . فلقد ذكر في سـنة ١٩٢٨ ، فى هذا الوقت المتأخر ، « ان قصص الف ليلة وليلة انعكاس خيالي ، غير مخالف للواقع من حيث الأساس ، للحياة المرحة المتعـددة

---

(3) *Ibid*, III, 34-35. See also Hayes, *op. cit.*, "Scholarship in the Age of romanticism," vol. II, 174-182.

الجوانب ، التي كانت عليها المدينة العظيمة [أي البصرة] »[4] • ولابد ان يكون قد خطرت أمثال هذه الفكرة ، لابل وأكثر منها ، لأمثال آرنولد ويلسون خلال الجيل السابق له ، حيث بلغت « الليالي » أقصى مبلغها منزلة وانتشارا بين قراء الانكليزية •

فلقد عولجت ألف ليلة وليلة بأكثر من عشرين طريقة في سبيل النشر ، وذلك من قبيل النقل المجرد الى الانكليزية ، أو المذيل بشروح ، أو المنمّق بتصاوير ، أو على هيئة مقتطفات • وكان معظم ذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مما جعل عددا غير قليل من قراء الانكليزية يقتبسون افكارا وانطباعات رومانسية عن بغداد والبصرة وما جاورهما • ولما كان معظم مؤسسي النفوذ البريطاني في العراق ممن ألفوا القراءة وابدوا ميولا أدبية رومانسية ، فانهم بطبيعة الحال لم يفلتوا من تأثير الف ليلة وليلة • فلعلها لم توح لهم نوعا من الافكار العملية فحسب ، بل لعلها زودتهم أيضا باهداف طريفة للقيام بالمغامرات والمشاريع في مهد تلك القصص التي « لم تكن مخالفة للواقع من حيث الاساس » •

التتبع العلمي

والى جانب القصص الخيالي دخلت العلوم البريطانية ، المترعرعة بفعل القومية والرومانسية ، مدخلا رحبا في سبيل المصالح الخارجية • فكانت هنالك دراسات قيمة في مواضيع اللغة العربية والثقافة الاسلامية ، ذات نتائج علمية مهمة •

فلقد قام (ستانلي لين پول) ، وهو المعروف بكتاباته الممتعة عن ألف ليلة وليلة ، بتنقيح واكمال الأجزاء الثمانية لمعجم عربي ــ انكليزي ضخم كان قد انجزه عمه أدوارد وليم لين (Edward William Lane) خلال العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر • وكان أدوارد لين

(4) Wilson, A.T., *The Persian Gulf* (Oxford, 1928), 68.

قد زار القاهرة أكثر من مرة ، وقضى فيها ما يناهز العشرين عاما منهمكا في تصنيف ذلك المعجم . وهو ، كغيره من المستشرقين ، لم يهمل فرصة التعرف الدقيق على أهل البلد : « على طبائعهم ، وتقاليدهم ، واوصاف مدينتهم » . فكان هو « الحجة العليا التي ترجع اليها انكلترا واوربا في القضايا العربية »[٥] .

وكذلك تقدمت دراسات اللغة العربية ، فشهدت جامعة كمبردج مثلا الدكتور و . رايت (W. Wright) استاذا كبيرا في اللغة العربية خلال العقد الثامن . وعلى ايامه انجز (پالمر) تحفة وجيزة في نحو اللغة العربية ، مذيلة بخلاصة متقنة لعلم العروض[٦] . أما القرآن الكريم الذي كان قد ترجمه الى الانكليزية جورج سايل (G. Sale) سنة ١٧٣٤ ، فقد استرعى في أواخر القرن التاسع عشر اهتمام الباحثين . فانجز ويرى (E.M. Wherry) اربعة اجزاء كتابه الموسوم « تفسير شامل للقرآن : ينطوي على ترجمة سايل ، وعلى بحث تمهيدي » . ولقد توغل (السر وليم ميور) في دراسة المراجع الأصيلة المتعلقة بالخلافة في صدر الاسلام ، وكذلك المتصلة بحياة النبي محمد وبالقرآن ، وانتج في هذه المواضيع بحوثا ذات أثر بعيد[٧] . وفي نهاية القرن نشر السر (ت.و. آرنولد) كتابه القيم عن الدعوة الاسلامية وانتشار الدين الحنيف[٨] .

---

(5) Lane Poole, Stanley (ed.), *An Arabic-English lexicon, derived from the best and the most copious eastern sources*. 8 vols. (1863-1893) vol. 6, pp. XI and XIII.

(6) Palmer, E.H., *A Grammar of the Arabic Language* (London 1874).

(7) Muir, Sir William, *The Life of Mahomet, with introductory chapter on the original sources for the biography of Mahomet and on the pre-Islamic history of Arabia*, 4 vols. (London, 1861); *The Coran, its composition and teaching, and the testimony it bears to the Holy Scriptures* (London, 1878); *Annals of the early Caliphate, from original sources* (London, 1883).

(8) Arnold, Sir T.W., *The preaching of Islam, a history of the propagation of the Moslem faith* (Westminster, Constable, 1896).

فالدراسات العلمية هذه وأمثالها كانت ذات صلة وثيقة بالمصالح البريطانية في بلاد العرب والمسلمين عموما ، ومن ضمنها العراق . ذلك لان خدمة تلك المصالح كانت تقتضي في المدى البعيد معرفة تقاليد أهل البلاد ، وما عليه ثقافتهم الدينية والدنيوية . كما وان معظم المستشرقين كانواذوي ميول قومية واستعمارية ، فكان يهمهم تنوير شعوبهم وحكوماتهم فى سبيل خدمة هذه الاتجاهات[٩] . ولقد كانت النزعة الرومانسية عاملا فعالا في كل ذلك . فقد دفعت بهم الى التوغل فى أزمنة سحيقة وأماكن بعيدة ، والى التبصر فى قضايا تبدو على جانب كبير من الطرافة والغرابة ، والى ما صحب ذلك من بهجة الكشف عن روائع خافية ، والتمتع بعرضها على الملأ .

ولم تقتصر البحوث العلمية على ما اشرنا اليه من فقه اللغة العربية والنحو والعروض ، وعلى تأريخ القرآن وترجمته وتفسيره ، أو على تاريخ حياة الرسول والخلافة في صدر الاسلام ، بل تعدت ذلك بطبيعة الحال الى دراسة الدول الاسلامية التي نشأت بعد ذلك ، وخاصة منها الدولة العباسية وعاصمتها بغداد التي كانت على أيامها اشهر عاصمة والمع مدينة على وجه الارض . ولنا في هذا الصدد مثل بارز في كتاب (غاي لاسترانج) عن « بغداد في عهد الخلافة العباسية »[١٠] . ولا يسعنا في هذا المجال أكثر من التنويه بغزارة ما انتجه المستشرقون من بريطانيين وغيرهم في ميادين الثقافة

---

(٩) وذلك مثل المستشرق الشهير السر وليم ميور (المذكور الآن فى هامش ٧) الذى قضى فى الهند زمنا طويلا ، وأشغل فيها منصبا رفيعا ، وابتهج باعلان الملكة فيكتوريا « امبراطورة الهند » ، ولم يرحل الى بلده الا عندما تقاعد (اعتزل عمله) فى سنة ١٨٧٦ . وكذلك المستشرق المعروف د. س. مرغوليوث الذى سنأتي على ذكره (فى الفصل الثامن ــ القسم الاول) عند الاشارة الى حركة الجامعة الاسلامية التي تعصب هو ضدها مجاراة لسياسة بلاده فى تنافسها مع المانيا قبيل الحرب العالمية الاولى . وفى الاستطاعة ذكر امثلة عديدة من هذا القبيل . وهنالك الشواذ مثل ت. و. آرنولد (المذكور الآن فى هامش ٨) ممن حاول التزام جانب العدل ، دون التأثر بالنزعة القومية ــ الاستعمارية .

(10) Le Strange, Guy, *Baghdad during the Abbasid Caliphate:* from contemporary Arabic and Persian sources (Oxford, 1900).

والتاريخ الاسلامي ، علما بأن الاهتداء الى مفردات ذلك ميسور لمن يرغب فيه[11] •

ولقد دلت تلك الجهود العلمية على اهتمام كبير بما تعلق بماضي العراق ، وأدت في الوقت ذاته الى ما لا يقل عن ذلك من الاهتمام بحاضر القطر ومستقبله • وان ما انجزه غير البريطانيين من بحوث مرموقة في هذا الصدد ، ساعد في تقوية تلك الصلة البريطانية بوادي الرافدين • ولقد بدا ماضي العراق بحد ذاته خلاّبا في عدد غير قليل من الملاحظات • فنهر الفرات ، كما لاحظ السر غور أوسلي (Sir Gore Ouseley) « كان يدعى بالعظيم من قبل قدماء المؤلفين ، ويعرف تأكيدا بمجرد كلمة النهر فى كتاب (يشوع) وفي غيره من كتب التوراة • فالاشتقاق مجهول ، ولو ان الاصل يرجع الى كلمة فرات أوپراث العبرية »[12] • ولنا مثل آخر في تسمية البواخر الاربعة التابعة لبحرية الهند البريطانية ، والتي ظهرت فى « مياه الرافدين الكلاسيكية » في ربيع سنة ١٨٤٠ ، فتلك هى آشور ، ونمرورد ، ونيتوكريس ، والفرات[13] •

الحفر والتنقيب

ولقد قام البريطانيون بسلسلة من الحفر والتنقيب الآثاري ، مدفوعين بمثل الحوافز المشار اليها في بحوثهم العلمية ، ومتوصلين الى نتائج لا تقل عن نظيراتها خطورة ومغزى • فالبريطانيون المغامرون الذين مر ذكرهم

---

(١١) كما نجد فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة التاسعة) التى تذكر أوائل الانتاج فى هذا السبيل • وفى طبعتها (الحادية عشر) أسماء ما ظهر بعد ذلك من كتابات غزيرة • ويجدر بنا ايضا الرجوع فى هذا الصدد الى (دليل الكتابات التاريخية) تصنيف ج• م• دچر وزملائه :

G.M. Dutcher (ed.), *A guide to historical literature* (New York, 1949), pp. 276-294.

وكذلك اسماء المراجع فى العديد من مقالات (دائرة المعارف الاسلامية) •

(12) Low, C.R., *History of the Indian Navy*, 2 vols., (London, 1887), II, 45.

(13) Ibid.

أعلاه في موضوع « منشأ الملاحة النهرية في مياه الرافدين » ، وهم
چسني ، وريچ ، وجونز ، ولنچ ، وسلبي ، وكولنكود ، كانوا الى جانب
أعمالهم المذكورة آنفا في طليعة المنقبين في العراق • ولقد استمرت هذه
الاعمال الآثارية واتسعت بعدئذ على يد غيرهم من البريطانيين أمثال
لوفطس ، ولايارد ، وتايلور ، وراولنسون ، وسميث • ولدينا معلومات
تفصيلية قيمة عما انجزه جميعهم وغيرهم من المنقبين فى كتاب هلپرخت
الذى صدر سنة ١٩٠٤ عن التنقيب فى العراق[١٤] •

ولم تقتصر أعمال هؤلاء البريطانيين على التنقيب وما اليه ، بل كانت
لهم أعمال ومآرب أخرى في العراق • فلقد اشتهر « چسني » مثلا بدراسة
مجرى الفرات ، وتبينت مآربه الاستعمارية في ملاحظات رأينا البعض منها
فيما سبق عنه من حديث • ولقد زامله (لنچ) في أعماله الاستطلاعية ثم
قام بتأسيس مركز تجارى مهم في البلاد • ومما ذكره (لوفطس) في كتابه
الموسوم « اسفار وبحوث فى كالديا وسوزيانا [عيلام] » انه حظي في تلك
الاسفار بما يقتضي من « مساعدة السر هنري راولنسون بوصفه قنصلا عاما
في بغداد ، متمتعا بنفوذ لدى السلطات التركية وشيوخ العشائر »[١٥] •
وختم كتابه بقوله « ان تبدلاً كبيرا قد طرأ في الواقع على سلوك العرب •
فكلما اتصلت بهم ازددت يقينا بانهم مهما كانوا متعصبين ومتهورين ، فان
في قلوبهم استعدادا للمحبة والاحترام تجاه الفرنج »[١٦] •

ومما يجدر بالملاحظة ان الكثير من المغامرين البريطانيين كانوا يوما ما
تابعين لبحرية الهند البريطانية ، وان حديث أعمالهم مذكور تفصيلا في جزئي
كتاب (لاو C.R. Low) عن « تاريخ بحرية الهند »[١٧] وفي هذا

---

(14) Hilprecht, H.V., *The Excavations in Assyria and Babylonia* (Philadelphia, 1904), especially pp. 26-69 and 88-279.

(15) Loftus, W.K., *Travels and researches in Chaldea and Susiana, 1849-1852* (New York, 1857), p. IX.

(16) *Ibid*, 433.

(17) Low, *op. cit.*, vols. I and II.

السفر دلائل كثيرة على نزعة هؤلاء الرومانسية ، كما وان كتاباتهم بحد ذاتها تشير بوضوح الى ذلك • ولا أدل على تلك النزعة من مجلدي چسني الفخمين (المذكورين آنفا ، ص ١٥٧) عن استطلاعاته الفراتية ، بما فيها من حوافز وافكار رومانسية متمثلة في فيض من القصص التاريخي وانواع من التعليق والاستطراد •

ظهور المصالح التخمينية

والى جانب تلك العوامل الرومانسية ظهرت المصالح التخمينية في تقدير مستقبل العراق الانتاجية تقديرا ، مستندا الى شيء من الدرس وكثير من التفاؤل ، ونوع من المقارنة التاريخية • وكان بحث الضابط (مونسيل) المنشور في المجلة الجغرافية سنة ١٨٩٧ من أوائل البحوث التي هي من هذا القبيل • فقد حدد فيه بعض مناطق النفط في العراق ، ورسم خارطة لما في باطن الارض من كنوز معدنية ، وما عليها من خطوط المواصلات النهرية ، واعتبر نهر دجلة ما بين بغداد والخليج منفذا صالحا لتصريف الانتاج المنتظر • واضاف قائلا : « لعل الاضطراب السياسي القائم في تركيا سيزيد في تيسير الحصول على امتيازات لاستثمار بعض هذه الثروات المعدنية المرموقة • وليس هنالك من شك في امكان جعل النفط العراقي يدر انتاجا ذا أهمية تجارية قصوى »[١٨] •

وما ان ابتدأت المنافسة البريطانية ـ الالمانية في مطلع القرن العشرين حتى اخذت علائم نزعة البريطانيين الرومانسية وتقديراتهم التخمينية تزداد وضوحا فيما تعلق بالعراق • ففي سنة ١٩٠٣ اصدر (السر وليم ويلكوكس) وهو البريطاني الحجة في شؤون ري العراق ، بحثا مؤلفا من احدى وسبعين صفحة بهذا العنوان : « اعادة مشاريع الري القديمة على نهر دجلة ،

---

(18) Maunsel, F., ''The Mesopotamian petroleum field,'' *The Geographical Journal,* vol. IX (1897), pp. 528-532.

واحياء [رخاء] الدولة الكلدانية »[19] • ولآراء ويلكوكس أهمية كبيرة في صدد ما نحن فيه ، لا لانه كان حجة في موضوعه فحسب ، بل لان ماجاء به كان مؤيدا لموقف بريطانيا من العراق ، ولانه ثابر على دعـم آرائه ، مقدما في سبيلها أحيانا ايضاحات تبدو على جانب كبير من الاقناع • ففي سنة ١٩٠٩ القى بحثا في الجمعية الجغرافية الملكية عن « العراق في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل » ، ونشر البحث بعدئذ في المجلة الجغرافية ، حيث تقرأ العبارة التالية :

> لقد اوضحت كيفية درء خطر الفيضان ، وكيفية البدء باروا ء ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان (acre) يبلغ انتاجها السنوى ١٫٠٠٠٫٠٠٠ طن من القمح ، و ١٠٠٫٠٠٠ طـن (مليوني cwt) من القطن • بقي علينا ان نبين كيف تنقل هذا الانتاج الى الأسواق حيث يباع • وكيف يكون التصرف بملايين الاغنام ، ومئات الألـوف من الماشـية التي سيحتويها الدلتا [جنوبي العراق][20] •

ثم في سنة ١٩١٣ اشار ويلكوكس الى انه « اذا توجهت مياه الرافدين الى الاراضي القاحلة فان حياة جديدة ستدب في كل مدينة وقرية من مدن وقـرى الدلتا ، وان قيمـة كل فدان سـتزداد الى الضعف والثلاثة اضعاف »[21] • وفي سنة ١٩١٤ نشر فى مجلة (بلاكود) مقالا جمع فيه طرائف من الانجيل والتاريخ القديم الى جانب معلوماته القيمة بشـؤون الري تحت هذا العنوان : « من جنة عدن الى مجرى الاردن » • وما كان أبلغ استشهاده بحديث (الالواح البابلية) عن عقيدة الاقدمين في استصلاح الاراضي النهرية :

---

(19) Willcocks, Sir W., *Restoration of the ancient irrigation works on the Tigris or the recreation of Chaldea* (Caira, 1903).

(20) Willcocks, Sir W., "Mesopotamia: past, present and future," *The Geographical Journal*, vol. 35 (1910), pp. 1-18.

(21) Willcocks, Sir W., "The Baghdad Railway," *The Near East*, June 6, 1913.

فكان النهر يتدفق عريضا كالبحر
عندما انشئت يريدو ، وبنيت يا سغيل ،
يا سغيل في وسط الماء العذب العميق
حيث يسكن الاله ذو المستقر المجيد .
فقد وضع مردوخ البردي في وجه الماء
وكدّس السداد الترابية التي يحميها البردي ،
ليجعل الآلهة تسكن
في المحل الذى تصبو قلوبها اليه[٢٢] .

تاكيد المصالح التخمينية

ولقد اتضح تأكيد تلك المصالح ابّان الحرب العالمية الاولى بعدد من البحوث الدالة على استمرار نفس الحوافز والاهداف . فقد نشر (السر جون جاكسون) سنة ١٩١٥ مقالاً في مجلة الشؤون الامبراطورية تحت عنوان « قضايا هندسية عن العراق وحوض الفرات » تناول فيه المنطقة التي ما بين رأس الخليج العربي جنوبا ، وكل من الموصل وهيت على دجلة والفرات شمالا . وهو في سياق المعلومات العامة التي عالج بها الموضوع ، وخاصة منه سدّ الهندية ، لم تفته فرصة الاشارة الى التاريخ القديم . فقد ذكر بشيء من الثقة الرومانسية « ان الكلس يأتى من مقالع هيت (التي يقول البعض انها هيت المذكورة فى التوراة) . ومن جوارها على وجه التأكيد جاء القير المشار اليه في بناء سفينة نوح »[٢٣] . وفي السنة ذاتها قام البريطانيان (شيستون) وزميله (لي) بنشر مقالهما في مجلة وستمنستر تحت عنوان « مستقبل العراق : كيف يمكن ارجاع أرض العهد القديم الى سابق

---

(22) Willcocks, Sir W., ''From the Garden of Eden to the passage of the Jordan,'' *Blackwood*, vol. 196 (1914), 425-46.

(23) Jackson, Sir John, ''Engeneering problems of Mesopotamia and the Euphrates valley,'' *The Empire Review*, vol. 29 (1915), 193-199.

عظمتها نتيجة للحرب العالمية »[٢٤] •

ولقد عاد ويلكوكس الى الموضوع عام ١٩١٦ بالمقال البليغ « سنتان ونصف في العراق » حيث قال : « ان السيطرة الفعلية على فيضان دجلة والفرات تجعل دلتا النهرين يبلغ من الخصب ما لم يشهد التاريخ له مثيلا »[٢٥] • وفي تلك السنة نشر (مولز ورث) مقالا عن العراق في « مجلة المهندسين الملكية » مؤلفاً من معلومات عامة عن سطح الارض وبعض المدن ، وعن لباس السكان ، وعن الخدم والخيول ، حتى لكأن في هذا المنحى الامبراطوري متعة لهؤلاء المهندسين[٢٦] • وفي السنة ذاتها أيضا نشر (پارفيت) كتابه الموسوم « عشرون عاما في بغداد وسورية ، توضح ماأرادته المانيا من السيطرة على بلاد الشرق » • والكتاب مؤلف من فصول نشرت قبلا لجمهور القراء في جريدة المساء اللندنية[٢٧] •

وفي عام ١٩١٧ ظهر كراس بثمان صفحات عن « مستقبل العراق التجارى » • وكان بقلم السر (مارك سايكس) ، المعروف بعقد معاهدة سايكس - بيكو (١٩١٦) التي خصصت العراق لبريطانيا • ومما يجدر بالملاحظة ان الكراس المشار اليه ظهر عند احتلال بريطانيا لمعظم العراق الى أجل غير مسمى • وان سايكس نفسه بدا في بحثه متأثرا الى حدّ ما بماضي العراق ، كما يتضح من قوله : « وليس القصد احياء آمال كاذبة ، فالبلاد هي اغنى اقطار العالم ••• وانه يجب علينا الا نظن العراق مستعيدا في مدى عشر سنين من يقضته[في ظل بريطانيا] ما كان عليه من عظمة قبل ألف عام • فالزمن اللازم أطول من ذلك كثيرا ، لو كان في الاستطاعة يوما بلوغ ذلك

(24) Shepstone, H.J., and Lee, J.A., "Future of Mesopotamia....," *Westminster* (Toronto), vol. 27 (1915), 213-220.

(25) Willcocks, Sir W., "Two and a half years in Mesopotamia," *Blackwood*, vol. 199 (1916), 304-23.

(26) Molesworth, F.C., "Mesopotamia," *Royal Engineers Journal* (1916), 233-42.

(27) Parfit, J.T., *Twenty years in Baghdad and Syria* ... (London, 1916).

الرخاء »[٢٨] . وفي تلك الآونة اصدر بارفيت كتابه « العراق مفتاح المستقبل »[٢٩] . وقام في اثناء الحرب العالمية بالقاء عدد من المحاضرات عن العراق ، نشرها بعدئذ في مجلد واحد تحت عنوان « بلاد الرافدين المدهشة ، اعجوبة العالم »[٣٠] . وصفوة القول ان الدلائل كانت واضحة في الاشارة الى علاقات البريطانيين الرومانسية والتخمينية بالبلاد التي كانت على حد قولهم « مخزن حبوب العالم » في زمن البابليين[٣١] .

هذه الدلائل وما تعنيه كانت ذات صلة وثيقة بما سبق ذكره في هذا الفصل والذى قبله عن الدراسات العلمية والمغامرات الاستطلاعية . ولقد تأيد مغزى ذلك كله وازداد وضوحا بفعل المنافسة البريطانية ـ الالمانية ، والحرب العالمية . ولا ننسى بان المصالح الرومانسية والتخمينية كانت ذات طابع مادي أصيل ، وهي انما دعيت كذلك نظرا لشدة تعلقها بالماضي وبالمستقبل ، ونظرا لطبيعة مفاهيمها ، وأساليب بحثها ، وما كانت ترمي اليه . ولقد تبيّن فعل تلك المصالح عندما احتل البريطانيون العراق (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) ، وبذلوا الجهد لبقائه تحت سيطرتهم المباشرة ، وقاموا في الوقت

---

(28) Sykes, Sir Mark, *The Commercial future of Mesopotamia* (London, 1917), 6-7: published by the Complete Press, West Norwood, S.E.

(29) Parfit, J.T., *Mesopotamia: the key to the future* (London, 1917).

(30) Parfit, J.T., *Marvellous Mesopotamia: the world's wonderland* (London, 1920).

(31) *Mesopotamia*, Handbook no. 63 (H.M. Stationery Office, 1920).

راجع ايضا جريدة التايمس اللندنية التى خمنت بتاريخ (١ أيار ١٩١٨) انتاج العراق الزراعي بقولها : « انه يبشر باعظم غلة فى التاريخ ... ولعلها اعظم غلة منذ زمن نبوخذ نصر » . لاحظ ما تحمله مثل هذه الاقوال من ذكريات الماضي السحيق ، والتفاؤل فيما يكنه المستقبل القريب .

ذاته ـ وحتى في اثناء الحرب ـ بدراسات موضوعية لاستعادة رخائه المنشود[٣٢] •

٢ ـ علاقات بريطانيا الاقتصادية

لقد استندت علاقات بريطانية الاقتصادية بوادى الرافدين الى مصالح تجارية مع القطر ، وعلى سبيل الترانسيت ، كما استندت الى مصلحة رابحة في ميدان النقل النهري • وقد تمثل ذلك بالدرجة الاولى فيما قام به أفراد عائلة (لنج) من اعمال ذكرنا فيما سبق نشأتها والظروف التي احاطت بها[٣٣]• فكانت البداية سنة ١٨٤١ ضئيلة ، حيث قام الاخوان هنري بلوس لنج ، وتوماس كارلنج ، وستيفن فنس لنج ، بانشاء شركتهم الخاصة (Firm) التي عرفت في لندن باسم (الاخوان لنج المحدودة) ، وفي بغداد باسم (شركة ستيفن لنج المحدودة) • ولم تلبث أن اتسعت اعمالها ، حيث تناولت التجارة في مختلف أنواع البضائع ، وقامت منذ أوائل القرن العشرين بالوساطة التجارية لبعض المؤسسات البريطانية • وهذه هي الاعمال التي تدخل ضمن مصالح بريطانيا التجارية التي سيأتي ذكرها اجمالا في أواخر الفصل الحاضر •

أعمال « شركة بيت اللنج »

ولقد سادت مصالح بيت اللنج في شركة الملاحة التجارية لدجلة

---

(32) *e.g.*, Hewett, Sir J.P., *Report for the Army Council on Mesopotamia* (H.M. Stationery Office, 1919); Buckley, A.B., *Mesopotamia, a country for future development*, (Cairo, Government Press, 1919). Other instances could be cited, but they belong to the next period of Anglo-Iraqi relations, i.e., 1914-1958.

(٣٣) أعلاه ، ص ١٦٠ ، وما بعدها • ولقد ازدادت حركة النقل النهرى منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك على ما يبدو بسبب التزايد الكبير فى التجارة مع العراق ، وعلى سبيل الترانسيت ايضا : راجع :
Hall, W.H., (ed.), *Reconstruction in Turkey* (New York, 1918), 86-87. *Geographical Journal*, XLI, 246-248.

والفرات ، وفي هذا المنحى ابدت الدبلوماسية البريطانية اهتماما مرموقا ٠

فالشركة هذه تأسست بتاريخ ٢٥ نيسان عام ١٨٦١ ، وكانت بادارة هنري بلوس لنج ، واخويه المذكورين آنفا ، وهما توماس (المسمى عادة توم) وستيفن ٠ فلما توفي ستيفن عام ١٨٩٦ بعد وفاة أخويه ، انتخب هنري ف٠ب٠ لنج (وهو الابن الوحيد لتوماس) رئيسا للشركة ٠ ثم عند وفاته سنة ١٩١٣ خلفه جون ف٠لنج (وهو ابن ستيفن) الذى أصبح رئيســا لشركة الملاحة ، ومديرا لشركتهم التجارية الخاصة ، الى حين وفاته سنة ١٩٢٦[٣٤] ٠

بدأت شركة الملاحة برأس مال متواضع قدره ١٥٫٠٠٠ باون سترليني ، مقسم الى ٣٠٠ سهم لكل منها ٥٠ باونا ٠ ثم تزايد رأس المال حتى أصبح ١٠٠٫٠٠٠ باون قبيل سنة ١٩١٤ ، وبلغ ٣٠٠٫٠٠٠ سنة ١٩١٩ ٠ وكانت أولى بواخر الشركة واحدة تدعى (مدينة لندن) واخرى تدعى (دجلة) بدأ استعمالهما على التوالي سنة ١٨٦٢ و ١٨٦٥ ٠ فلما غرقت الباخرة دجلة بفعل عاصفة هوجاء سنة ١٨٧٦ استعيض عنها بعـــد ذلك بسنتين بالباخرة المسماة (بلوس لنج) « وهي سفينة قوية ذات مدختين ، يبلغ طولها ٢٢٠ قدما واقصى عرضها ٤٦ قدما » ٠ ثم أضيفت باخرة ثالثة وهي المســماة (خليفة) سنة ١٨٨٠ ٠ ونظرا لغرق الباخرة (مدينة لندن) بجوار القرنة ، واضافة الباخرة (مجيدية) ، فان البواخر العاملة بقيت ثلاثا[٣٥] ٠ ولما لم تكن السلطات العثمانية تسمح للشركة باستعمال أكثر من باخرتين في آن

---

(٣٤) استنادا الى مقابلة مهمة وممتعة ، ورسالة قيمة : فالمقابلة حدثت فى لندن بتاريخ ١٣ أيلول سنة ١٩٥٤ ، بين مؤلف هذا الكتاب والمستر ولزبى (J.H. Walesby) مدير شركة الاخوان لنج المحدودة ، وهو الذى كان على صلة وثيقة بادارة هذه الشركة طوال نصف قرن تقريبا ٠ أما الرسالة فهي التي ظهرت فى مجلة *The Near East and India* بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ تحت عنوان ''The Story of the Euphrates Company'' ثم نشرت مستقلة على هيئة كراس انيق ، مزدان بالعديد من التصاوير ، وذلك من قبل دار النشر (Burlington Publish. Co. London, E.C. 4)

(٣٥) المصدر نفسه ٠

واحد ، فان استعمال الباخرة الثالثة جرى بالتناوب (أي عند وقوف احدى الاثنتين لأي سبب كان) مما زاد كفاءة النقل الى ما يناهز الخمسين بالمائة •

فباستعمال الباخرة الثالثة تغلبت الشركة على التحديد الوارد في امتيازها الذي نشأ تدريجيا ، وتمسكت به اعتباطا كما تبين في الفصل السابق• غير أن الشركة جابهت مشاكل أخرى كان من بينها الخطر الناجم احيانا من هجمات أفراد القبائل المحاذية للنهر • وعلى هذه المشكلة تغلبت هي أيضا باستعدادها المحكم في الدفاع ، ومؤازرة الحكومة المحلية • ثم كانت هنالك منافسة الحكومة العثمانية التي دخلت ميدان النقل النهري الى جانب هذه الشركة التى رجحت على منافستها في الادارة ، والخبرة ، والتمثيل في محافل الاعمال •

وفي تلك الظروف نشب الخلاف احيانا بين الطرفين ، واشتد عداء الجانب العثمانى للشركة في بعض المناسبات ، كما حدث عندما احتل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ ، وعندما أدانت بريطانيا بشدة ما ارتكبه العثمانيون من أعمال القسوة تجاه الأرمن خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر • ونظرا لما حدث بعدئذ من تفاقم المنافسة العثمانية وقتيا ، الى جانب اشتداد هجمات القبائل على بواخر الشركة « فان الاحراج بلغ من الخطورة ما أدى الى ايقاف حركة النقل خلال سنة ١٩٠٩ مدة شهر واحد ، بينما كان الباب العالى مقدما للحساب »[٣٦] • غير ان أمثال تلك العراقيل لم تؤخر تقدم الشركة التى استمرت فى مجابهة ما يقتضيه النقل المتزايد ، مستندة دائما الى مؤازرة الحكومة البريطانية في الوقت المطلوب •

اهتمام الحكومة البريطانية

لقد اهتمت الحكومة البريطانية بمصالح الشركة اهتماما كبيرا ، كما يتضح في فيضٍ من المراسلات الدبلوماسية • فكانت الجوانب المشاركة في

(36) "The Story of the Euphrates Company," *op. cit.*

وهذه « القصة » كتبت على ما يظهر تحت اشراف الشركة نفسها ، بما فى هذا الاشراف من جدارة ، ومن محذور •

تلك المراسلات تشمل وزارة الخارجية البريطانية ، وسفيرها في القسطنطينية، والقنصل في بغداد ، وغرفة تجارة لندن ، والشركة ذاتها ، وكذلك الباب العالي[٣٧] • وعلى هذا الغرار مثلا كانت الاشارة الواردة في رسالة سكرتير غرفة تجارة لندن ،الموجهة الى وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، حيث يقول : « أرجو ان اعترف بتسلم كتابكم المؤرخ فى الثلاثين من الشهر المنصرم ، المتعلق أيضا بموضوع وسائط النقل في دجلة ، والذى يدل على أن نسخة من كتابي المؤرخ في ٢٣ تموز سترسل الى سفير صاحبة الجلالة في القسطنطينية »[٣٨] • فالمشروع بواقعه ومآله على ما يبدو ينطوي على مصلحة بريطانية جسيمة •

ونظرا لغزارة ماورد في سبيل دعم موقف الشركة من جدل محكم ، ومهارة دبلوماسية ، وبراعة مهنية ، وتحيز ، فان الاقتصار هنا على النزر الضرورى للقصة لم يكن بالامر اليسير • ففى صدد القضية المهمة المتعلقة بالسماح للبواخر بسحب الشاحنات (barges) ثابر الجانب البريطانى فى عرض وجهة نظره والدفاع عنها حتى اضطر الباب العالي اخيرا الى الاذعان• فكانت خلاصة الدعوى ان دجلة اصبح ضحلا في بعض مناطقه ، وذلك بسبب اهمال السلطات العثمانية ، مما ادى الى عرقلة النقل النهري ، وجعل استخدام الشاحنات أمرا ضروريا لاستعادة كفاءة النقل •

والى ذلك أشار القنصل البريطاني في بغداد ، مؤكدا في تقريره لسنة ١٨٩٧ ما أصبح عليه النهر من وضع رديء ، حيث انخفضت مياهه في أماكن عديدة الى عمق يتراوح ما بين اربعة أقدام وثلاثة ونصف • وأعاد القنصل بشيء من القلق ما ذكره في تقريره لسنة ١٨٩٥ من « أن الملاحة تزداد صعوبة سنة بعد أخرى فى منطقة الاهوار من نهر دجلة ، وذلك لتسرب

---

(٣٧) وفى هذا المرجع : *British Archives, F.O. 78, e.g., No. 4889* توجد مجموعة كبيرة من الوثائق المتعلقة بشؤون الشركة خلال المدة (١٨٩٥ – ١٨٩٧) •

(٣٨) المصدر نفسه (No. 4889) • أما تاريخ الرسالة فهو ٤ آب ١٨٩٧ •

مياهه في عدد من الجداول المتفرعة منه ، دون أن تكون هنالك أية تدابير لاصلاح هذا الفساد . كما وأن السنة المنصرمة أوضحت أكثر من أى وقت آخر ضرورة الاسراع في اتخاذ التدابير اللازمة درءً لما اشرفت عليه الملاحة من عرقلة خطيرة »[٣٩] .

ولما لم يكن في وسع الحكومة العثمانية على مايبدو « اصلاح هـذا الفساد » فانها وافقت أخيرا ، وبعد لأي ، على السماح للشركة بسحب الشاحنات . والى ذلك أشار بكل ارتياح سفير بريطانيا في القسطنطينية في رسالة موجهة الى وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ٦ حزيران سنة ١٨٩٩ ، حيث قال :

يطيب لي أن أخبر مقامكم بانه نتيجة للمفاوضات المستمرة مع البلاط العثماني ، ورئيس الوزراء ، ووزير الخارجية ، أخبرني توفيق باشا منذ أمد قريب ، بأن أمرا وزاريا قد صدر الى رئيس الحكومة في كل من البصرة وبغداد للالتزام بالتعليمات الصادرة من قبل وزير البحرية الى قائد البحرية في البصرة ، المسيطر على الملاحة في دجلة ، بان يسمح لبيت لنج بسحب الشاحنات ...
وانني لم أر من المستحسن الدخول في السؤال عما اذا كانت الأوامر الأصلية سمحت [لكل باخرة] بسحب شاحنتين في موسم هبوط المياه ، أم أنها كانت أعم من ذلك[٤٠] .

ولقد أصبح هذا الامتياز نافذا منذ آب ١٨٩٩ ، واستمر كذلك فى جميع المواسم من كل عام ، بقطع النظر عن تخوف السفير البريطانى

---

(39) Consular Report: *Trade of Baghdad* (1897), C8277-182, pp. 4 and 7.

(40) *British Archives: F.O.* 78, No. 5115.

من احتمال اقتصاره على أزمنة هبوط المياه • ومما يدل على مدى نجاح الشركة ، بسفنها البخارية الثلاث وشاحناتها الواسعة ، أنها على الرغم من العراقيل التي جابهتها اوشكت أن تستحوذ على جميع النقل النهري في البلاد[٤١] ولم تخل تلك المصلحة الاقتصادية من نفوذ بريطاني شعروا به فى القسطنطينية على ما يبدو ، وكذلك فى بغداد • ففى سنة **١٩١٣** كتب جريدة المصباح البغدادية أن بريطانيا كانت عازمة على أن تجعل من العراق هندا ثانية ، وأن بيت اللنج كانوا طلائع مستعمرة كبيرة هنا ، ونصحت الناس أن يقوموا بتسليح انفسهم لمكافحة طلائع جيش الاحتلال[٤٢] • وهذه ، كما يجدر بنا ان نذكر عرضا ، كانت ملاحظة صائبة ، وذلك نظرا لما حدث ابان الحرب العالمية وما بعدها مباشرة من محاولة الانبريطانيين استعمار العراق على غرار استعمارهم الهند •

رجحان بريطانيا التجاري

لم تكن التجارة مع القطر ، وعلى سبيل الترانسيت ، تابعة لبيت لنج على غرار النقل النهري بل انها كانت مصلحة بريطانية عامة ، وغير بريطانية أيضا • وكان معظم التعامل التجارى مع بلاد ما بين النهرين يجري على طريق البصرة ، الميناء البحري الوحيد في البلاد • ولقد شملت قائمة البضائع الواردة الى البصرة خلال عام **١٨٩٥** خمسة وثلاثين نوعا من

---

(٤١) راجع مثلا *Trade of Baghdad* (1901), *Cd.* 786-188
حيث نلاحظ أن جميع الواردات لسنتي ١٩٠٠ و ١٩٠١ « نقلت [داخل القطر] بواسطة شركة الملاحة البخارية لدجلة والفرات » • غير ان الشركة خسرت كثيرا اثناء الحرب العالمية الاولى ، اذ وضعت نفسها تماما فى خدمة الهجوم البريطانى على العراق • ثم أنه على الرغم من مضاعفة رأسمالها سنة ١٩١٩ الى ثلاثة أمثاله فانها هزلت تدريجا بسبب منافسة القطار ، وعراقيل الملاحة ، وغير ذلك من العوامل الاقتصادية ، حتى أنها قررت سنة (١٩٥٠) ان تقوم من تلقاء نفسها بتصفية اشغالها وانهاء اعمالها •

(٤٢) جريدة (المصباح) بتاريخ ١٤ آذار ١٩١٣ : Ireland, P.W., *Iraq: a study in political development* (New York, 1937), p. 44n.

البضائع ، بلغ مجموع قيمتها ١٫٣٩٩٫٤٦٥ باونا استرلينيا . وكان الوارد خلال عام ١٨٩٦ يشمل نفس أنواع البضائع تقريبا ، وكان مجموع القيمة ١٫٠٦٤٫٤٧٣ . فالى جانب الاقمشة ، وهي المادة الكبرى في قائمة الواردات ، نجد أكياس الجوت ، والنيلة ، وقضبان الحديد والفولاذ ، والتوابل ، والشاي ، والسكر ، والخشب ، والقرطاسية ، والغزل ، والخيوط ، وبضائع أخرى أقل شأنا . وهنالك ما يشير الى رجحان كفة بريطانيا في تلك الواردات ، على الرغم من أن الاحصاءات كانت بعيدة عن الكمال . ففي سنة ١٨٩٥ بلغت قيمة الاقمشة ، وهي بمجموعها مصنوعات انكليزية ، ٦٧٤٫٥٦٥ باونا سترلينيا ، وفي سنة ١٨٩٦ بلغت القيمة ٣٨٠٫٦٥٠ ، مما يؤلف في كلتا الحالتين نسبة عالية جدا لمادة واحدة فقط من مجموع قيمة الواردات(٤٣) .

أما صادرات القطر سنة ١٨٩٦ فانها شملت الصوف ، والقمح ، والتمر ، والعفص ، والسمسم ، وجلود المواشي ، والخيل ، وأنواع الحبوب ، وكانت بريطانيا وتوابعها في طليعة المستوردين لتلك البضائع . وفي السنة نفسها « شملت صادرات الموصل بالدرجة الاولى الصوف ، والعفص ، والمرعز ، والصمغ ، والجلود . وكان معظمها ، وخاصة المرعز ، مرسلا الى انكلترا »(٤٤) . أما صادرات التمور فقد بلغت حينذاك ٦٠٠٫٠٠٠ صندوق ، منها ٤٩٠٫٠٠٠ الى لندن ، و ٥٣٫٠٠٠ الى نيويورك ، و ٥٧٫٠٠٠ الى بومباى والى بعض موانيء البحر المتوسط .

ولقد كان رجحان كفة بريطانيا على غيرها من الدول أشد من ذلك وضوحا وأدق تسجيلا في ميدان النقل البحري بين بلاد ما بين النهرين وباقي انحاء العالم . والى هذه الحقيقة تشير مختلف التقارير القنصلية ، ومن بينها تقرير سنة ١٨٩٦ الذى نقتطف منه الجدول التالي عن حركة النقل في ميناء البصرة خلال العام :

---

(43) Consular Report: *Trade of Baghdad* (1897), C8277-182.
(44) *Ibid*, p. 10.

الجنسية	السفن الشراعية		السفن البخارية		المجموع	
	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن
بريطانية	٥٣	٥ر٧٠٧	١١٠	١٣٠ر٩٨٦	١٦٣	١٣٦ر٦٩٣
عربية وتركية	١٩٨	٦ر٩٧٨	٤	٥ر٥٢٠	٢٠٢	١٢ر٤٩٨
فارسية	٢٤٢	٨ر٦٦٩	—	—	٢٤٢	٨ر٦٦٩
فرنسية	١٧	١ر٧٦٢	٣	٣ر٠٧٨	٢٠	٤ر٨٤٠
المانية	—	—	١	٦٩٦	١	٦٩٦
نرويجية	—	—	١	١ر٩٢٦	١	١ر٩٢٦
زنجبارية	٣١	٥ر٢٤٤	—	—	٣١	٥ر٢٤٤
المجموع	٥٤١	٢٨ر٣٦٠	١١٩	١٤٢ر٢٠٦	٦٦٠	١٧٠ر٥٦٦

ولم يحدث هنالك تغير جوهري عند نهاية القرن فى ميدان التجارة أو النقل النهري الخاص بالبلاد • ولم تزل الاحصاءات حتى ذلك الحين قاصرة عن تبيان مصادر الواردات ، ووجهات الصادرات • فكانت تشمل مجرد الاتجاهات العامة والقيم العامة للتجارة ، كأقصى ما فى الاستطاعة التأكد منه حينذاك • فالاتجاهات العامة والقيم العامة للتجارة كانت خلال عام **١٩٠٠** كما يلي : من بريطانيا والغرب **١ر٣٧٢ر٤٤٦** باونا استرلينيا ، الى بريطانيا والغرب **٥٧٥ر٢٦٤** • من الهند **١٢٢ر١٦٢** باونا سترلينيا ، الى الهند وغيرها من موانيء الشرق **١٤ر٢٩١** • وكانت التجارة خلال عام **١٩٠١** من بريطانيا والغرب **١ر٣٦٢ر٠٣٥** باونا سترلينيا ، الى بريطانيا والغرب **٤٨٦ر٥٩١** • من الهند **٧٦ر٥١٧** باونا سترلينيا ، الى الهند **١٨ر١٦٧** ، والى موانيء الشرق الاخرى **٤٥ر٨٣٨**[٤٥] •

احصائية سنة ١٩٠٣

ولم تبدأ التقارير القنصلية البريطانية بتعيين نصيب بريطانيا وتوابعها

(45) Consular Report: *Trade of Baghdad* (1901), Cd. 786-188.

في تجارة ما بين النهرين حتى سنة ١٩٠٣ . ففى هذه السنة اشتد اهتمام بريطانيا برجحان منزلتها في البلاد ، نظرا لتسرب نفوذ المانيا في أرجاء الدولة العثمانية - كما سيتضح في الفصلين التاليين . ويكفي هنا أن نلاحظ بأن التقرير القنصلي المتعلق بتجارة البصرة لعام ١٩٠٣ يمثل نقطة تحول في عناية البريطانيين بتقدير مصالحهم التجارية في البلاد . فهنالك نقرأ « أنه بالنظر لعدم وجود سجلات كمركية ، أو معلومات يوثق بها عن منشأ الواردات واثمانها ، أصبح عسيرا تبيان النسبة المئوية بشيء من الدقة لتجارة بريطانيا بين البصرة وبغداد . فالبضائع التى تهم المملكة المتحدة بالدرجة الاولى هي : المنسوجات القطنية والصوفية ، الفحم ، النحاس ، الحديد والفولاذ ، المكائن ، العقاقير ، الأصباغ ، الميرة ، المشروبات الروحية ، الغزل ، الخيوط ، وماشاكل ذلك » . ثم يأتي التقرير بهذه الملاحظة المهمة ، حيث يقول :

> اننا لو اتخذنا قوائم الشحن في البواخر القادمة اساسا لمعرفة كميات هذه البضائع ، وقمنا جهد المستطاع بتقدير ما يخص بريطانيا منها حسب الاسعار الاسمية المحلية ، لاتضح لدينا من تحليل ذلك بصفة تقريبية أن ماينـاهز (٤٣) بالمائة من مجموع الواردات خلال سنة ١٩٠٣ كانت بريطانية المنشأ ، ومستوردة في بواخر بريطانية . ولو اتبعنا الطريقة نفسها فى تقدير البضائع المستوردة من الهند ومستعمراتنا الاخرى لوجدناها تبلغ (١٧) بالمائة من مجموع الواردات ، وتلك هي البضائع المتألفة بالدرجة الاولى من فحم الخشب ، وأقمشة الحرير ، واكياس الجوت ، والنيلة ، والعقاقير ، والميرة ، والرز ، والحبال ، والخيوط ، والتوابل ، والسكر ، والشاي ، والاعمدة الخشبية ، والدعائم ،

والالواح الخشبية ، والغزل ، والخيوط ، وما شاكل
ذلك • ان هذا الحساب الذى هو مجــرد تجربة
عرضة للانتقاص ، يدل على أن مايناهز (٦٠) بالمائة
من مجموع واردات البصرة وبغداد وتجارة المرور
على طريق شط العرب الى الحدود الفارسية ، هى فى
ايدي المملكة المتحدة والهند ومستعمراتنا • فالنسبة
المئوية هذه قد تكون ناقصة نوعاما ، ولكنها مع ذلك
ذات دلالة خطيرة على مبلغ تفوقنا التجاري فى بلاد
ما بين النهرين ، وعلى مصلحتنا فى ملاحة شـــط
العرب والمحافظة على صـــــلاح وكفاءة وسائط
النقل[٤٦] •

ومنذ سنة ١٩٠٣ اشتدت عناية بريطانيا بالمصالح التي كانوا يرعونها في البلاد • فلم يعد اهتمامهم مقتصرا على الشؤون الكبرى والمصالح القائمة، بل تعداه الى اسداء النصح في سبيل التوسع التجارى ، كما حدث سنة ١٩٠٤ من تقديم اقتراح يرمي الى تأسيس محـــل لبيع الخـــرداوات (haberdashery) وآخر لبيع ملابس السيدات (millinery) فـي بغداد ، وما ورد فى دعم ذلك من القول بأن « السكان الاوروبيين [فـي المدينة] زهاء ٣٠٠ نسمة ، وان مجموع السكان ١٨٠ر٠٠٠ نسمة ، وأن عدد المقبلين من أهل البلاد على اللباس الاوروبي يتزايد باطراد » • وكذلك الاقتراح المقدم في الوقت نفسه لجلب مضخات يدوية وحيوانية ، وبضائع نحاسية ، نظرا لوضوح الطلب المتوقع لذلك[٤٧] • وصفوة القول أن الميل البريطانى أصبح شديدا نحو الافادة القصوى من مكانتهم فى القطر ، وقد عملوا لذلك بكل اهتمام • كما وأن المنافسة الالمانية الناشئة ـ التى سيأتى

(46) Consular Report: *Trade of Basra* (1903), Cd. 1766-102, pp. 5-6.

(47) Consular Report: *Trade of Baghdad* (1904), Cd. 2682-2, p. 7.

ذكرها في محل آخر – أصبحت همهم الأكبر في هذا المجال •

ازدياد رجحان بريطانيا التجاري

غير أنه على الرغم من المنافسة الالمانية ، والمقاومة العثمانية احيانا ، فان « تفوق » بريطانيا التجاري استمر ، لا بل وازداد ايضا ، خلال السنوات العشر التالية (١٩٠٤ – ١٩١٤) • وذلك ما يتضح في سلسلة التقارير القنصلية المتعلقة بتجارة كل من البصرة وبغداد • وعلى وجه الاجمال فان هذه التقارير تشير الى أن المعدل السنوي لمجموع تجارة بغداد خلال تلك المدة بلغ ٣٫٢٥٠٫٠٠٠ باونا استرلينيا ، بينما تراوح نصيب بريطانيا وتوابعها ، حسب تقديرات اخرى ، ما بين (٦٠) و (٩٠) بالمائة من هذا المعدل خلال المدة نفسها •

ولقد بلغت تجارة بغداد ، وهي التي تمثل معظم تجارة القطر ، ٣٫٥٩٠٫٣٣٧ باونا استرلينيا خلال سنة ١٩١٠ البارزة في هذا الميدان • وذلك يعني زيادة قدرها ٦٧٢٫٢٥٧ على سنة ١٩٠٩ ، وزيادة قدرها ١٫١٢١٫٦٣٧ على سنة ١٩٠٨ • والزيادة في السنة الاخيرة من هذهالسنوات الثلاث « تعزى بالدرجة الاولى الى تحسن التجارة في اوروبا ، وامريكا ، وبلاد فارس »[٤٨] •

اما تعيين نصيب بريطانيا في تلك الاحصاءات العامة فانه لم يكن مستندا الى سجلات كمركية ، وانما كان يجرى بصورة تقريبية استنادا الى مقادير الواردات في قوائم الشحن حسب تقدير اثمانها في الجهة المشحونة اليها • وعلى هذا الاساس « يمكن تقدير حصة المملكة المتحدة بمبلغ ١٫٥٦٠٫١٣٩ باونا استرلينيا » من المجموع العام لقيمة تجارة بغداد البالغة ٣٫٧٤٠٫٥٢٤ خلال سنة ١٩١٣ • ولقد كان الاحصاء المقتصر على الواردات أدق من ذلك بطبيعة الحال • ومنه نعلم أن حصة بريطانيا كانت ٥٠٫١ بالمائة من واردات بغداد البالغة ٢٫٨٢٢٫٨١٧ خلال سنة ١٩١٢ ،

(48) Consular Report: *Trade of Baghdad* (1910), Cd. 5465-89, p. 2.

وانها كانت ٤٥ر١ بالمائة من الواردات البالغة ٢ر٩١٤ر٠٣٦ خلال سنة ١٩١٣ • اما نصيب الهند فكان ٢٣ر٦ بالمائة و ١٩ر٦ بالمائة فى كل من السنتين على التوالي • والقليل الذي بقي من النسبة المئوية لواردات بغداد في كلتا الحالتين كان استيراده من خمسة عشر قطرا آخر(٤٩) • وعلى تلك الشاكلة كان رجحان كفة بريطانيا فى ميدان النقل البحرى ، لا بل وأرجح من ذلك فى بعض الاحيان •

على ان تلك الاحصاءات لم تقدم حسابا شاملا لصادرات القطر التى كان معظمها يذهب الى انكلترا وتوابعها • كما لم تذكر تجارة الترانسيت المهمة ، وما كان يصحب ذلك التفوق التجاري من نفوذ • وعلى سبيل الاشارة الى هذه النواحي نذكر ما ورد فى مجلس اللوردات سنة ١٩١١ من تصريح اللورد كرزن ، حاكم الهند السابق المعروف ، حيث قال : « ان ما يقرب من (٩٠) بالمائة من التجارة الصاعدة الى بغداد بريطانية او هندية ••• وفي بغداد نفسها كان لنا مقيم منذ مائة عام ، أي قبل ظهور اي ممثل لدولة اجنبية على المسرح بثمانين عاما • فهنالك كان المقيم ولا يزال تصحبه سفينة حربية وحرس من الهنود »(٥٠) •

ولعل رجحان بريطانيا كان أشد من ذلك فى تجارة الترانسيت • فلقد لوحظ حوالي سنة ١٨٩٢ « أن ما يتراوح بين ٢٠ر٠٠٠ و ٢٥ر٠٠٠ من البغال المحملة تدخل بغداد وتخرج منها عبر هذا الطريق » في اتجاه الشمال الشرقي الى بلاد فارس ، وفي عكس هذا الاتجاه • وان ما يناهز ٧ر٥٠٠ من تلك الحمولة الداخلة بلاد فارس كانت بضائع مصنوعة ، وكان معظمها من صنع مانجستر • هذا الى جانب ما يدخلها عبر ذلك الطريق من الفلفل ، والقهوة ، والشاي ، والسكر ، والنيلة ، والنحاس ، والخارصين • أما الصادرات الفارسية التى كانت تمر فى بغداد فقد شملت الصوف ، والقطن ،

---

(49) Consular Report: *Trade of Baghdad* (1913), Cd. 7620-17, pp. 1 and 12.

(50) *Parl. Deb.*, House of Lords, 5th S., vol. VII, 1911, pp. 586-587.

والسجاد ، والأفيون ، والصمغ ، والفواكه المجففة ، وبضائع أخرى أقل شأنا[٥١] • والمهم في ذلك انما هو نظرة البريطانيين الجدية الىهذه التجارة ، كما يستبان من البيان الرسمي الصادر سنة ١٩٠٨ ، والذي نقرأ فيه مايلي :

> تبعا للترتيب نفسه من الغرب ، نتفق مع ما كتبه (السير م • دوراند) عن أهمية العناية بالتجارة عبر طريق بغدد فكرمنشاه الى طهران • انها تجارة بريطانية تناهزقيمتها ٠٠٠ر٠٠٠ر١ باونا استرلينيا في العام • وهذا طريق ذو أهمية خاصة لكل من تجارة بريطانيا والهند ، مما يحتم علينا الاحتفاظ أبدا بسيطرتنا عليه[٥٢] •

ولقد ذكر اللورد كرزن فى اثناء مناقشة برلمانية حدثت سنة ١٩١١ أن القيمة السنوية لتجارة المرور فى بلاد ما بين النهرين كانت ٠٠٠ر٠٠٠ر١ باونا استرلينيا أيضا ، ولاحظ الى جانب ذلك أن مجموع حصة « الدول الاوربية الاخرى لم تزد كثيرا عن عُشر ذلك المقدار »[٥٣] •

وصفوة القول أن بريطانيا تمتعت برجحان اقتصادى واضح المعالم فى ربوع الرافدين حتى سنة ١٩١٤ • وذلك ما اتضح طوال العقدين الذين سبقا هذا التاريخ ، فيما كان يجرى من نقل بحري ، ومن تجارة مع القطر ، وعلى سبيل الترانسيت ، وكذلك فى مصلحة النقل النهري التى قامت بها شركة دجلة والفرات للملاحة البخارية • والى جانب تلك المصالح الاقتصادية المهمة كانت لبريطانيا مصالح أخرى قد لا تقل عنها خطورة،وهى التىاتصفت بالرومانسيةواتضحت فيالمساعى العلميةوالتقديرات المدروسة للخيرات الكامنة فى البلاد • يضاف الى ذلك ما سبق ذكره من اعتبارات استراتيجية خطيرة ، ومشاريع واسعة النطاق •

---

(51) Curzon, G.N., *Persia and the Persian Question* (London, 1892), vol. II, pp. 577-578.

(52) *Parliamentary Papers* 1908, Cd. 3882, vol. CXXV, p. 5.

(53) *Parl. Deb.*, House of Lords, 5th S., vol. VII, 1911, p. 585.

الفصل السابع

مصالح المانيا وقلق بريطانيا

١٨٩٠ ـ ١٩١٤

١ ـ المقدمات

لقد ابدى الالمان اهتماما ملحوظا بالدولة العثمانية (ومنها العراق) قبل ان تكون لهم اية مشاريع توسعية • فكان لتلك المقدمات المبكرة ، فضلا عن مفاهيمها الآنية ،اثر فيما تلا ذلك من اعتبارها اساسا لما حدث مؤخرا من حركة المانية توسعية فى تلك الارجاء ، وما نجم عن هذه الحركة من قلق فى نفوس البريطانيين •

ففى سنة ١٩١١ مثلا ، فى هذه السنة المتأخرة تكلم (الفيكونت مولري) فى مجلس اللوردات مخاطبا احد الاعضاء بقوله : « لعل حضرة اللورد يعلم بان الجنرال فون مولتكه كان فى بيره‌جك مع القوات التركية سنة ١٨٣٩ وكان حينذاك مفتتنا بما رأى فى الاستطاعة عمله على ضفاف الفرات • ان هذا الحادث والاسلوب الذى كتب فيه مولتكه فعلا ، اثر فى خيال الالمان تأثيرا عجيبا منذ ذلك الحين »[١] •

رحلة فون مولتكه

ولقد كانت رحلة هلموت فون مولتكه (H. Von Moltke) الى الدولة العثمانية اول بادرة مرموقة فى سبيل اهتمام الالمان بهذا الجزء من العالم •

---

(١) محاضر مجلس اللوردات (5th S.) ، المجلد السابع ، سنة ١٩١١ ، ص ٥٩٩ ـ ٦٠٠ •

فهو عندما تعين برتبة رئيس (Captain) في الجيش سنة ١٨٣٥ ، اخذ اجازة لمدة ستة اشهر وسافر عبر جنوب شرقي اوربا حتى وصل القسطنطينية . وهنا طلب منه السلطان محمود الثاني الاشتغال في مملكته ، فقبل ذلك عندما تسلم الموافقة الرسمية من برلين . وظل في خدمة الدولة العثمانية يساعده بضع افراد من مرؤوسيه الالمان حتى سنة ١٨٣٩ . وفي اثناء مكوثه سنتين في القسطنطينية قام بمسح هذه العاصمة وكذلك الدردنيل والبسفور ، وتعلم الى جانب ذلك اللغة التركية .

كما وانه سافر مع حاشية السلطان في كل من بلغاريا ورومانيا وقام بالعديد من الاسفار في جانبي الدردنيل والبسفور من البلاد العثمانية . ثم اتيحت له فرصة التوغل في البلاد سنة ١٨٣٨ عندما اصبح مستشارا للقائد التركي المكلف بالحملة ضد محمد علي باشا « فركب بضعة آلاف من الاميال في اثناء اسفاره ومخر تيارات الفرات الخطرة ، كما وانه زار ورسم خرائط الكثير من المناطق التي لم يسبقه اليها اوربي منذ زمن زينوفون (Xenophon) » . وهو في سلسلة الرسائل التي بعث بها الى اخته جاء بفيض من الملاحظات القيمة عن تركيا ثم اعاد النظر في تلك الرسائل ونشرها تحت عنوان « رسائل عن الاحوال والحوادث في تركيا خلال السنوات ١٨٣٥–١٨٣٩ » . والى هذه الرسائل اشار الاستاذ ويلكنسون H.S. Wilkinson استاذ التاريخ العسكري في جامعة اوكسفورد ، حيث قال سنة ١٩١٠ : انه « لا يوجد كتاب له مثل نظراته العميقة في طبيعة الامبراطورية العثمانية ، وليس ثمة بين كتب الرحلات ما هو اجدر منه اعتبارا في عداد الكلاسيك الالماني »(٢) .

والذي يمعن النظر في مجلدي مولتكه تحت عنوان « مقالات ، واحاديث ، ومذكرات » ، يجد الشيء الكثير من الحقائق والآراء المتعلقة مثلا بهذه المواضيع : المانيا وفلسطين ، الشعب الكردي واقليمه ، وضع الامبراطورية

---

(٢) مقال ويلكنسون عن مولتكه ، وهو المقال المركز الذي استغرق اكثر من ستة أعمدة في « دائرة المعارف البريطانية » الطبعة الحادية عشر .

العثمانية العسكرى والسياسى ، رشيد وعزة والباب العالى[٣] • وكان من بين ملاحظاته الخاصة ان الامبراطورية العثمانية لن تصمد طويلا فى وجه التجزئة فكتب فى هذا الصدد انه : « لا يعقل ان تدوم الامبراطورية العثمانية طويلا الا اذا اقتصرت على حدودها الطبيعية • وما عدا ذلك فانه لا يدوم ، مهما كانت دعوى السلطات به صحيحة • ان بغداد ، وديار بكر ، وأورفه لتبدو بمثابة جزر فى بحر عربى – كردى غريب »[٤] • ولقد كانت البلاد العثمانية تبدو مغرية بالتنمية والاستثمار على ايدى اناس اكثر مهارة من ابناءها • وذلك لتأخرهم من جهة وما كان لبلادهم من مزايا وخيرات كامنة من الجهة الاخرى • غير ان الوقت لتقدم الالمان الى هذه المرحلة التوسعية لم يحن بعد ، فكانت لهم مقدمات اخرى تلت ما قام به فون مولتكه من طلائع الاعمال •

دراسات تمهيدية

ولقد اتضحت خلال الجيل التالى اهمية هذه الدراسات التمهيدية فى عدد غير قليل من المطبوعات الالمانية القيمة : ففى العقد الخامس تناول كارل ريتر (Karl Ritter) اعالى وادى الرافدين فى القسم العاشر والحادى عشر من كتابه الشهير عن الجغرافية • وظهرت فى الوقت ذاته دراسة غربى فارس وبلاد ما بين النهرين ، بقلم كارل زمر (K. Zimmer) • ثم فى العقد السادس اصدر كيبرت (H. Kiepert) مكاسب انكليزية جديدة فى آشور ، وكتب ساندريشكي (C. Sandereczki) رحلة الى الموصل • وفى

---

(٣) Moltke, Count Helmuth von, *Essays, Speaches, and Memoirs*, 2 vols. (New York, 1893) • والمرجع هذا مترجم من الالمانية الى الانكليزية على النحو التالى : « المقالات » بقلم ماكلمفا (F.C. McClumpha) و « الاحاديث » بقلم بارتر (C. Barter) و « المذكرات » بقلم مارى هرمز (Mary Herms) • وفى صفحات المجلد الاول (٢٦٩–٣٠٣) نجد المواضيع الاربعة المشار اليها عندنا على سبيل المثال •

(٤) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٢٩٥ ، وكذلك الصفحات (٢٧٢–٢٧٣) و (٣٠١) •

العقد السابع كتب بيترمان (H. Petermann) اسفار الى الشرق ، تناول فيها آسيا العثمانية . وفي تلك الآونة ظهرت دراسة الجغرافية الطبيعية لجنوبى وادى الرافدين ، بقلم شليفلي (A. Schläfli) . وكان في سنة ١٨٧٠ صدور رحلة من البصرة عبر وادى الرافدين الى الموصل بقلم بكر (L. Becker) . وفى سنة ١٨٧٥ ظهرت « بعثة المهندس جوزيف سيرنك للدرس التكنولوجى في اراضى دجلة والفرات » ، ونشرها فون شمفايغر - ليرشنفلد (A. von Schweiger-Lerchenfeld) في مجلدين[٥] .

بوادر النزعة التوسعية

على ان اهتمام الالمان بوادى الرافدين وغيره من آسيا العثمانية لم يكن حينذاك متصفا بنزعة توسعية . ولم تبدأ هذه النزعة تتضح وتشتد الا منذ العقد الثامن ، اى منذ ان توحدت المانيا واصبحت فى عداد الدول العظمى . وعلى شيء من هذا القبيل يدل كتاب الاستاذ ساخاو (Sachau) الذى ظهرسنة ١٨٨٣ تحت عنوان « رحلة الى سوريا وما بين النهرين » ، وفيه معلومات قيمة عن البلاد وسكانها ، وقائمة بمقاييس الوزن والكيل المحلية ملحقة به ، الى جانب خارطتين مفصلتين احداهما لسوريا والاخرى لشمالي العراق . وقد تناول الاستاذ ساخاو فى بحثه عن منطقة الموصل مثلا مختلف القرى بما فيها تلكيف والقوش والمسيحيين السريان ، والاكراد ، وقبائل شمر ، ولم ينس الناحية الطبوغرافية للبلاد . وان المرء ليحس بالدافع القومى وشيء من النزعة التوسعية من وراء هذا الانتاج العلمى الذى قدمه

---

(٥) وفيما يلى اسماء هذه المؤلفات الثمانية بلغتها الالمانية ، حسب ترتيب ذكر مؤلفيها أعلاه :

Geography (Berlin, 1844). *West-Persien und Mesopotamien* (Berlin, 1843). *Neue Aufnahmen der Englander in Assyrien* (Berlin, 1856). *Reise nach Mosul* (Stuttgart, 1857). *Reisen im Orient*, Book II (Leipzig, 1861). *Zur physikalischen Geographic von Unter-Mesopotamien* (Schweizer Denkschriften, 1864). *Reise von Basra durch Mesopotamien nach Mosul* (Braunschweig, 1870). *Ingenieur Joseph Cernik's Technich Studienexpedition durch die Gebiete des Euphrat und Tigris*, 2 Bde, (Gotha, 1875).

المؤلف الى صاحب الجلالة القيصر ، بكلمة اهداء ورد فيها قوله :

فكما ان الحماية التى تسبغها شهرة اسم جلالته تجعل فى المستطاع القيام بدراسات المانية فى اقاصي بلاد العالم ، وتجلب انتباهنا دائما الى ميادين جديدة ، كذلك نجد فى هذه القضية ان المصروفات الضخمة جعلت فى الامكان دخول العمل الالمانى ميدانا كان معظم العمل فيه مقتصرا لحد الآن على جيراننا ، وخاصة منهم الانكليز والفرنسيين الذين تربطهم ببلاد الشرق مصالح عملية(٦) .

وكانت اوضح من ذلك معالما رسالة شبرنكر (A. Sprenger) الصادرة سنة ١٨٨٤ بعنوان مشروع استعمارى ، حيث نجد فيها تأكيدا على اهمية الهلال الخصيب ، وما اصابه من اهمال السلطات التركية ، وما ينتظره من مستقبل زاهر اذا ما توجهت العناية المطلوبة اليه . وقد توسع شبرنكر نفسه فى هذه الآراء ونشرها بعدئذ بصيغة مؤثرة تحت عنوان بلاد بابل اغنى الاقطار فى الماضى ، واشدها جاذبية للاستعمار فى الوقت الحاضر(٧) .

ومما يجدر بالذكر الى جانب ذلك ثلاث دراسات ظهرت لمؤلفها (داين) خلال العقد التاسع من القرن التاسع عشر وهى : (١) المانيا وبلاد الشرق من حيث العلاقات السياسية ـ الاقتصادية . (٢) اتجاه المانيا نحو الشرق . (٣) المانيا وطريق الشرق . وفى تلك الآونة ايضا اصدر (موريتز) جغرافية وأثنوغرافية جنوبى بلاد الرافدين(٨) .

---

(٦) Sachau, E., *Reise in Syrien und Mesopotamien,* (Leipzig, 1883.

(٧) Sprenger, A., *Kolonisationproject* (Heidelberg, 1884), passim, e.g., pp. 5-6; *Babylonien, das reichste Land in der Vorzeit un das lohendste Kolonisationfeld fur die Gegenwart* (Heidelberg, 1886).

(٨) Dehn, P., *Deutschland und Orient in ihren Wirtschafts-politischen Beziehungen* (Munich, 1884); *Deutschland nach Osten* (Munich, 1886); *Deutschland und die Orientbahn* (Munich, 1883). Moritz, B., *zur Geographie und Ethnographie von Sudmesopotamien* (Verhandlungen d. Gesellsch. f. Erdkunde, XV, Berlin, 1888), pp. 185-200.

وبناء على دعوة من السلطان عبدالحميد ، قدمت الى تركيا بعثة عسكرية المانية برئاسة القائد الشهير (فون دير جولتز) لغرض تنظيم الشؤون العسكرية فى الامبراطورية العثمانية • فعملت البعثة هذه على انجاز المهمة بمقدرة ممتازة طيلة اثنتي عشر عاما (١٨٨٣ - ١٨٩٥) ارسلت خلالها تقارير دورية الى المانيا عن الاحوال فى تركيا والآمال المتعلقة بذلك[٩] •

ونظرا لهذه وغيرها من المقدمات فقد تعرف الالمان على شؤون البلاد العثمانية وألفوها ، ولم يكن نصيب وادى الرافدين من تلك العناية ضئيلا • ان العراق الحديث ، كما يجدر بنا ان نتذكر ، ليجد الكثير من المعلومات القيمة فى دراسات هؤلاء الالمان وغيرهم من الاجانب ، مما يتعلق بماضيه القريب • وان الحركة العلمية المعاصرة لتفيد كثيرا من العناية بذلك الانتاج الذى كانت بواعثه قومية بكل وضوح ، سواء اكانت القومية المانيـــة ام بريطانية[١٠] • ولا ننسى ان العلم ينطبق عليه المثل المعروف من انه بمثابة سيف ذى حدين ، قد يستعمل كأداة للخير او كوسيلة للشر • وهو فى ايدى (عصبة عموم الالمان) كما سنلاحظ بعد قليل اصبح وسيلة لبلوغ

---

(٩) Anotonius, George, *The Arab awakening* (New York, 1939), p. 76; Lord Eversly, *The Turkish Empire* (London, 1924), p. 370. For detailed information, see von Schmiterlow's *General-Feldmarschall Freiherr Colmar von der Goltz Pasha, Leben und Briefe* (1926).

(١٠) ومما يجلب الانتباه على سبيل المقارنة ، اهتمام الولايات المتحدة الاميركية منذ اواسط القرن العشرين بدراسات الشرق الاوسط دراسة جدية ، لا بواسطة وزارتها الخارجية فحسب ، بل بواسطة دوائر بعض الجامعات الشهيرة أيضا ، مثل جامعتى كولمبيا وهارفرد ، وبمساعدة مؤسستي روكفلر وفورد ، وغير ذلك من الوسائل • ولسنا هنا فى صدد تقدير هذه الدراسات « التى كانت الحركة العلمية الاميركية فى غفلة فادحة عنها ••• والتى اصبحت المصلحة الوطنية فى أمس الحاجة اليها » • وهذه العبارة المنقولة هنا وردت فى وثيقة وقع عليها اكثر من عشرة علماء بهذه الدراسات ، وقدموها تكريما الى الدكتور ارنست ياك (Dr. Ernest Jackh) مستشـار دائرة الشرق الادنى والاوسط فى جامعة كولمبيا ، وذلك بمناسبة يوم ميلاده الثمانين بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٥٥ •

اهداف قومية مطلقة العنان ٠

لا « اندفاع نحو الشرق » قبل سنة ١٨٩٠

ان المتأمل فيما سبق ذكره من بوادر الاعمال الالمانية ، قومية كما هي في الواقع ، ليجد انها لم تكن تؤلف بصفة عامة حركة توسعية ، فالحركة التوسعية الالمانية ، في اتجاه الامبراطورية العثمانية على الاقل لم تبدأ الا منذ حوالى سنة ١٨٩٠ ٠ وعلى هذا فقد اصطلحنا « المقدمات » لكل ما سبق هذا التاريخ التقريبي من اعمال ٠ غير ان الكتّاب على اختلاف درجاتهم وقومياتهم اغفلوا هذه الظاهرة الكبرى ، متأثرين بتطورات متأخرة جسام ٠ فالكتّاب الالمان انفسهم اعتادوا على ايام القيصر وليم الثاني ان يستندوا الى تلك الاتصالات القديمة في سبيل دعم مطالب توسعية حديثة ٠ فاحتذى الغير حذوهم حتى بدا وكأن التقدم في اتجاه آسيا العثمانية كان موجودا من قبل ان ينجز الالمان وحدة بلادهم ذاتها ٠ وعلى هذا فقد اشاروا مثلا الى ان العالم الاقتصادي روشير (W. Roscher) المتوفي سنة ١٨٩٤ ذكر بأن آسيا الصغرى ستكون حصة المانيا في حالة اقتسام الامبراطورية العثمانية ، وان العالم الاقتصادي فردريك ليست (List) المتوفي سنة ١٨٤٦ اقترح توسع الالمان بمحاذاة السواحل الشمالية لاسيا الصغرى ٠ أو بعبارة اخرى ان سلسلة هذا التوسع كانت قد بدأت منذ اواسط القرن التاسع عشر اذا لم تكن ترجع في بدايتها الى بعثة مولتكه الشهيرة منذ العقد الرابع(١١) ٠

---

(١١) كتاب (لوين) عن « طريق الالمان الى الشرق » ص ٢٥ وما بعدها:
Lewin Evans, *German Road to the East* (London, 1916), pp. 25ff.

وفيما يتعلق بالاقتصادي روشير ، يستند (لوين) الى كتاب (شرادام) عن « المسئلة الشرقية » André Cheradame's La *Question d'Orient* (1903)

وفيما يتعلق بالاقتصادي (ليست) نجده يستند ايضا الى كتاب (شرادام) الذي ينقل بعض ما ورد في كتاب (داين) عن « المانيا وطريق الشرق » :
Paul Dehn's *Deutschland und die Orientbahn* (1883).

وهكذا يبدو هؤلاء المؤلفون الثلاثة ، الانكليزي والفرنسي والالماني ، مشغولين بفكرة بعيدة عن الواقع ٠

غير ان ذلك كله لم يتناول التطور التاريخي على الوجه الصحيح •

ولعله من قبيل الخيال ان نرجع بحركة الاندفاع نحو الشرق المشتهرة بالعبارة الالمانية "Drang nach Osten" الى ما قبل سنة ١٨٧٠ • كما وانه لا يمكن ارجاعها بشىء من التأكيد الى زمن بسمارك الذى استمر عهده بعد هذا التاريخ بما يناهز العشرين عاما • فاذا ما وجدت حين ذاك بعض الميول الفردية التوسعية ، كما لاحظنا عند شبرنكر ، وداين ، فان الحركة بمعناها المعلوم لم يكن لها وجود • ولن يؤثر فى جوهر هذه الدعوى ما ظهر من بحوث عديدة ، وخاصة منها بحث (ماري تاونسند) من انتقال بسمارك الى مرحلة الاستعمار خلال العقد التاسع[١٢] •

لقد اتجه بسمارك فى أواخر عهده نحو الاستعمار ، ولكن بشىء غير قليل من الحذر ومراعاة الظروف ، فكان ذلك من قبيل رد الفعل تجـــاه البريطانيين الذين لم تبدوا امبراطوريتهم العالمية ملائمة لنمو التجارة وراس المال الالمانى • وعلى هذا فانه حاول ان يرعى بحركته الاستعمارية طبقة ذات نفوذ كبير من رجال الاعمال ، واصحاب رؤوس الاموال الى جانب مراعاة المطالب القومية • غير انه حرص فى الوقت نفسه على ان لا يثير عداء بريطانيا بسبب قضايا استعمارية ، كما وانه لم يسمح لمثل هذه القضايا ان تعرقل تكتلاته الاوربية • فالوكلاء البريطانيون مثلاهم الذين كانـــوا يلامون ، وليست الحكومة البريطانية ، لما كان يحدث من عرقلة المصالح الالمانية فيما وراء البحار • وعلى حد قول بسمارك نفسه « ان الشبكـة الاستعمارية لبريطانيا بلغت حدا من السعة والشمول جعل قيامها بالاشراف على اعمال جميع وكلائها ضربا من المستحيل »[١٣] • وحتى فى أواخر

---

(١٢) كتاب (تاونسند) عن « منشأ الاستعمار الالمانى الحديث » :
M.E. Townsend,
Origins of modern German Colonialism (New York, 1921).
وكذلك (وارتايمر) عن « عصبة عموم الالمان » : Wertheimer, M.S.,
Pan-German League (New York and London, 1924), 22-26.

(١٣) (وارتايمر) ايضا ، ص١٩٠-١٩١ وكذلك ص ١٨٧-١٩٣ :
Wertheimer, *ibid*, pp. 190-191, also 187-193.

عهده (فى ٢٦ كانون الثانى ١٨٨٩) نجد بسمارك يصرح فى مجلس النواب الالمانى عن العلاقات الالمانية البريطانية بقوله : « اننا نعمل بانسجام تام مع الحكومة البريطانية فى زنجبار وفى ساموا ... انه لا يوجد تحالف بيننا وبين انكلترا ... ومع ذلك فانا ارغب فى ان نبقى على اتصال تام بانكلترا فى المسائل الاستعمارية ايضا »(١٤) .

ولما كان الاستعمار البسماركى حذرا ومحدودا نسبيا ، فانه لم يمتد الى آسيا العثمانية . وان بسمارك ، كما نعلم ، لم يكن على استعداد للاساءة الى روسيا مثلا بسبب التقدم فى هذا الاتجاه . ومع ذلك فان حركاته الاستعمارية اجمالا ، ورعايته للنعرة القومية ، كان بمثابة مقدمات خطيرة لما تلا عهده مباشرة من حركة توسعية ذات طابع جديد(١٥) .

٢ - نزعة المانيا التوسعية (١٨٩٠ - ١٩١٤)

دلائل الاتجاه الجديد

ان تولى القيصر وليم الثانى الحكم سنة ١٨٨٨ ، وزيارته الاولى للقسطنطينية سنة ١٨٨٩ ، وعزله بسمارك عن الحكم سنة ١٨٩٠ ، كانت حوادث ذات مغزى خطير بالنسبة لاسيا العثمانية ومن ضمنها بلاد الرافدين . فلقد اصبح القيصر رمزا للصداقة الالمانية التركية التى استمرت طوال

---

(١٤) كتاب (باركر) عن « الاسس الالمانية » Barker, J. Elis, *The Foundations of Germany* (London, 1908), p. 141.

(١٥) ولعل شيئا من هذا الاختلاف بين العهد البسماركى والعهد الذى تلاه يبدو فى تصريح ادلى به بسمارك لصحيفة (Leipziger Neuste Machrichten) فى كانون الاول سنة ١٨٩٧ ، أى قبل وفاته بشهور ، حيث قال : « ان العمل بسياسة السمعة يلائم طبيعة الفرنسيين اكثر مما يلائم طبيعة الالمان . فلاجل السمعة ذهبت فرانسا الى الجزائر وتونس والمكسيك ومدغشقر . ولو اتبعت المانيا مثل هذه السياسة يوما ما فانها لن تخدم بذلك اية مصالح المانية ، وانما تعرض خير الامبراطورية ومكانتها فى اوروبا للخطر » : نقلا عن « الاسس الالمانية » لمؤلفه (باركر) المذكور آنفا ، ص ١٤٥ (Parker, op. cit., p. 145) .

حكمه ، فكان لها ابلغ الاثر فى « الاندفاع الالمانى نحو الشرق » . وكان فى سبيل انشاء هذه الصداقة ان قام بزيارته الاولى لتركيا ، خلافا لما ترتضيه روسيا ، ولما تقتضيه سياسة بسمارك . ثم انه بعد قيامه فى السنة التالية بعزل بسمارك أصبح بدون اى منافس فى توجيه سياسة الدولة . ومما يجلب الانتباه ، فضلا عن ذلك ، هو تأسيس (عصبة عموم الالمان) سنة ١٨٩٠ ، تلك العصبة التى عرفت بنزعتها التوسعية العارمة . وعلى ذلك كله فقد اعتبرنا هذه السنة نقطة تحول من « المقدمات » الى دور الاندفاع الصريح فى سبيل الشرق .

الآثار القديمة والمعارف الحديثة

ولقد ظهر اهتمام الالمان الجدي بالآثار القديمة فى وادى الرافدين منذ سنة ١٨٧٣ ، غير ان بعثتهم الاولى لم تبدأ اعمالها الآثارية حتى سنة ١٨٨٧ ، عندما قدم البلاد كل من الدكتور مورينز (B. Moritz) والدكتور كولدافيك (R. Koldeweg) ومايـر (L. Meyer) ، وقاموا باعمالهم « حوالى مركز تلو على بعد عشرين ميلا تقريبا شمال شرقى الشطرة » فى جنوبى البلاد[١٦] . ثم تقدمت اعمال التنقيب تقدما كبيرا خلال العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، وذلك برعاية القيصر « الذى كان سندا كريما للتنقيب فى بابل واشور » . وكان تحت رعايته ان بلغت الجمعية الالمانية الشرقية ، المؤسسة عام ١٩٠٠ ، « شهرة القيام باعمالها على وجه أكمل وأنظم من كل ما سبق »[١٧] . وعلى هذا الطراز الممتاز ، كما نعلم ، كان الانتاج الالمانى المعاصر في ميادين الدراسات الاسلامية والعربية . ولم يكن ذلك كله بأقل تأثيرا فى نفوس الالمان مما كان لمثل تلك الاعمال من تأثـير فى نفوس البريطانيين : وذلك من حيث الاعجاب بماضي البلاد القديم ، واتخاذ العبرة

---

(١٦) Hilprecht, H.V., *The Exacavations in Assyria and Babylonia* (Philadelphia, 1904), pp. 280-281.

(١٧) Morris, Jastrow, *The Civilization of Babylonia and Assyria* (Philadelphia and London, 1915), p. 54.

التاريخية فى تقدير خيراتها الكامنة ، والنظرة الرومانسية لما يتوقعونه لها من مستقبل زاهر اذا ما حضيت بالعناية المطلوبة ، وما صحب ذلك من ملاحظات قيمة ودراسات آنية لشؤون البلاد المعاصرة •

فاذا لم يكن بعض ذلك الانتاج الالمانى توسعى النزعة خلال المدة (١٩٠٠ ـ ١٩١٤) فانه كان متأثرا بشيء من التطرف القومى ، وكان ظهوره ابان الحركة التوسعية سببا قويا فى دعم هذه الحركة • ففى العقد الاخير من القرن التاسع عشر ظهرت مؤلفات على جانب كبير من العناية بشؤون آسيا العثمانية وخاصة منها بلاد الرافدين ، نذكر منها : (١) وسائل النقل فيما بين النهرين • (٢) رحلة فى قلب البلاد العربية ، وكردستان ، وارمينية • (٣) من القفقاس الى الخليج العربى • (٤) دجلة والفرات • وكانت هذه الاربعة على التوالى بقلم موريتز (B. Moritz) ونولدا (E. Nolde) ومولر سيمونز (P. Muller-Simons) وساخاو (E. Sachau) • ثم في أوائل القرن العشرين ، اى قبيل الحرب العالمية الاولى وفى اثنائها ، ظهرت هذه المؤلفات: (١) فحص الطبوغرافية التاريخية لمنطقة دجلة ، والزاب الصغير ، وجبل حمرين • (٢) الاقتصادالمائي في بابل (العراق العربى) في الماضى ، والحاضر والمستقبل • (٣) الامبراطورية التركية جغرافيا واقتصاديا • وكانت هذه الثلاثة على التوالى بقلم هرتسفلد (E. Hertzfeld) ، وتولنز (R. Tholens) وهاسرت (E.K. Hassert) •[١٨]

---

(١٨) والمؤلفات السبعة المذكورة عندنا باللغة العربية نجدها فيما يلى بلغتها الالمانية حسب ترتيب ذكرها أعلاه :
Die Verkehrsverhaltnisse in Mesopotamien, Mitthlgn. Geograph. Gesellsch. (Hamburg, 1890), s. 146-165. *Reise nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien* (Braunschweig, 1895). *Vom Kaukasus Zum Persischen Meerbusen* (Mainz, 1897). *Am Euphrat und Tigris* (Leipzig, 1900). *Untersuchungen uber die Historiche Topographie der Landschaft am Tigris, kleiner Zab und Gebel Hamrin;* Memnon I, 89-143 and 217-38 (Leipzig, 1907). *Wasserwirtschaft in Babylonien (Iraq Arabi) in Vergangenheit, Gegenwart und Zukunft;* Ztschr. d. Ges. f. Erdkunde (Berlin, 1913). *Das Türkische Reich, geographisch und wirtschaftlich* (Tubingen, 1918).

وعلى وجه الاجمال فقد امتازت هذه الدراسات السبعة برفعة المستوى العلمى ، وكانت سندا قويا للحركة التوسعية المعاصرة • ومن الامثلة البارزة فى هذا الصدد كتاب الفون اوبنهايم (von Oppenheim) الذى صدر بمجلدين سنة ١٩٠٠ تحت عنوان « من البحر المتوسط الى الخليج العربى » متضمنا مشاهدات المؤلف ودراساته لكل من بلاد الشام وما بين النهرين[١٩] • ففى المجلد الخاص بوادى الرافدين نجد المؤلف على علم بنخبة المراجع المتعلقة بالموضوع ، ومطلعا بصفة خاصة على ما قام به البريطانيون قبلا فى ربوع الوادى من اعمال المسح والاستطلاع • فهو ينقل خارطة بغداد نقلا متقنا عن تلك الخارطة الممتازة التى انجزها القائد فيليكس جونز سنة ١٨٤٧ ـ ١٨٥٣ • ويبدو على علم تام بما قام به جسنى فى بعثته الفراتية الشهيرة • ويعرض الى جانب ذلك اربعة خرائط أصيلة لواضعها الالمانى الدكتور كيبرت (Dr. R. Kiepert) .

وبالاضافة الى استيعابه خلاصة ما سبق بحثه فى الموضوع فان الكتاب على جانب كبير من الاصالة القيمة • ولعل خارطته لسوريا ولبلاد الرافدين هما احسن ما ظهر من نوعهما حتى ذلك الحين[٢٠] هذا الى جانب ما تناوله البحث من أوصاف الجبال والوديان والسهول ، وكذلك أوصاف السكان • فالشعب مثلا مقسم الى سكان المدن وهم الاقل عددا ، وسكان الارياف وهم الاكثرية الساحقة المقسمة هى ايضا الى قسمين ، أقلية استوطنت القرى واكثرية كانت لا تزال فى طور الترحل والبداوة • وهنالك اوصاف دقيقة لكل من هذه الاقسام الاجتماعية وخاصة منها جماعات البدو الذين ألفهم

---

(١٩) Oppenheim, M. von, *Vom Mittelmeer zum Persischen Golf durch den Hauran, die Syrische Wüste und Mesopotamien*, 2 vols. (Berlin, 1900).

(٢٠) لاحظ مراجع المقال عن بلاد ما بين النهرين (Mesopotamia) فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشر) •

صاحب الكتاب واصبحت له مع بعض المشاهير من شيوخهم صداقة وثيقة[٢١] .

ويمتاز الكتاب ايضا فى كثير من تفاصيله الفرعية . فالقبائل المستقرة مذكورة مع تعداد نفوسها فى كل واحدة من قراها العديدة ، والقبائل الرحل مع تعداد خيامها على اعتبار كل خيمة تمثل عائلة واحدة . وحتى الانواع البارزة من المفاتيح المستعملة فى القطر مذكورة مع اوصافها ، وكذلك مختلف أنواع الاسلحة ، ومختلف اجناس الخيول والجمال ، ومختلف انواع الحشائش والاعشاب ، معروضة جميعها بكل وضوح ، ومصحوب بعضها بأجمل التصاوير . وفيما تعلق بتجارة القطر نجد احصاءات تفصيلية عن الصادرات والواردات ، وخاصة فى الفصل الاخير المتعلق بالخليج العربى . والناحية هذه تجلب الانتباه نظرا لما أظهره الالمان على اثر ذلك من نشاط تجارى فى منطقة الخليج وما نجم عن هذا النشاط من ارتياب البريطانيين ومناوأتهم لذلك .

وعلى شاكلة هذا المثل معنى ومغزى ، وان لم يكن من طرازه سعة وموضوعا ، كان غيره من الانتاج الالمانى المعاصر . ففى سنة ١٩١٦ ، اى فى اوج التوسع الالمانى اصدر ايوالد بانز (Ewald Banse) كتابه عن جغرافية تركيا ، حيث تناول القسم العربى من الامبراطورية العثمانية بجدارة ممتازة ، وخصص لوادى الرافدين زهاء اربع وستين صفحة مركزة المادة والتعبير[٢٢] . وعن طريق فهرسه الابجدى (Index) يستطيع المرء الاهتداء الى العديد من القضايا المتعلقة بالمصالح الاجنبية . فلا غرو ان يلقي داعية التوسع الالمانى

---

(٢١) هذا ما تبين لي فى صيف (١٩٣٨) عند زيارتى دار الفون أوبنهايم الواقعة فى مدينة برلين . ومما يجلب الانتباه فى تلك الدار وجود غرفة كانت بمثابة متحف ثمين لنماذج ممتازة من أثاث البدو ، ولباسهم ، وأدواتهم المنزلية ، وما يستعملونه من سلاح .

(٢٢) Banse, E., *Die Türkei; eine Moderne Geographie* (Berlin, 1919), Copyrighted in 1916.

حينذاك نظرة ابتهاج على هذا الانتاج العلمى وما سبق ذكره من دراسات ولسان حاله يقول : « ان المصلحة الوطنية لفي حاجة ملحة الى ذلك »[٢٣] •

المؤلفات التوسعية

غير ان أمثال هذا الانتاج العلمى لم يكن مما يوضح الحركة التوسعية التى نجدها واضحة المعالم فى عدد غير قليل من البحوث الداعية الى التوسع صراحة وبكل حزم • فكان من هذه البحوث ما ظهر ابان العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، مثل « رحلة القيصر وليم [الاولى] وما تعنيه للتجارة الالمانية » بقلم انجلبر ختن (C.U.v. Engelbrechten) و «آسيا الصغرى ميدان للاستعمار الالمانى » بقلم كرجر (K. Kaerger) • و « العمل الالمانى في آسيا الصغرى » بقلم منز (R. Menz) • و « ورسوم انضولية » بقلم كيرته (A. Körte) • و « عبر سوريا وآسيا الصغرى » بقلم اوبرهومر (R. Oberhummer)[٢٤] •

وفى تلك الآونة ايضا اصدرت (عصبة عموم الالمان) رسالة مثيرة حول « مطلب ألمانيا فى ميراث تركيا » • ومن بعدها أصدر هاسه (E.H. Hasse) « السياسة العالمية الالمانية » ، وادموند (B. Edmund) « مركز المانيا العالمى »، ولير (A. Lehr) « لماذا يجب توسيع البحرية الالمانية » ، وجونترام ـ شولتايز (Fr. Guntram-Schultheiss) « عموم ألمانيا عند نهاية القرن » ، وشلاجنفايت (M. Schlagintweit) « الجهود الاستعمارية الالمانية فى آسيا الصغرى » • وفضلا عن ذلك فان (جريدة عموم الالمان) الاسبوعية كانت طوال

---

(٢٣) راجع اعلاه ، متن الصفحة (٢٠٣) والهامش رقم (١٠) •

(٢٤) وفيما يلى عناوين هذه المؤلفات الخمسة بلغتها الالمانية ، مذكورة هنا حسب ترتيب ذكرها اعلاه :
Kaiser Wilhelm's Orientreise und deren bedeutung für den deutschen Handel (Berlin, 1890). *Klein Asien, ein deutsches Kolonisationfeld* (Berlin, 1892). *Deutssche Arbeit in Kleinasien* (Berlin, 1893). *Anatolische Skizzen* (Berlin, 1896). *Durch Syrien und Kleinasien* (1898).

المدة ١٨٩٤ - ١٩١٨ هى المعبر البليغ عن طبيعة الحركة التوسعية واهدافها[٢٥] .

ففى عدد ٨ كانون الاول سنة ١٨٩٥ مثلا كتبت جريدة عموم الالمان :

« ان المصالح الالمانية تقتضي على الاقل ان تكون تركيا الاسيوية تحت الحماية الالمانية . ولذا فان أفيد خطوة لنا هى الاستيلاء على كل من سوريا وبلاد ما بين النهرين ، وبسط الحماية على اسيا الصغرى على ان تنشأ فى الاقطار التى تقع ضمن منطقة النفوذ الالمانية سلطنة يتمتع سكانها بمنتهى الاستقلال الذاتى »[٢٦] . ولقد تحقق بعدئذ ، كما يجدر بنا ان نتذكر عرضا ، ما يشبه هذا الغرض على ايدى كل من بريطانيا وفرنسا فى كل من وادى الرافدين وبلاد الشام . ولم يكن الالمان بطبيعة الحال يجهلون انجازات منافسيهم واتجاهاتهم فى شتى ميادين الاستعمار : فكان لعلم الالمان بهذه الناحية اثر كبير فى استيائهم من بريطانيا كلما اعترضت سبيل مشاريعهم التوسعية التى ايقنوا بتواضعها قياسا على ما قامت به بريطانيا نفسها من انجازات استعمارية خطيرة . ومن ثم نشأ نوع من شعور الالمان بالغبن ، وما كان لهذا الشعور من اثر بليغ فى خططهم التوسعية ، ودعاوتهم الواسعة ، ومؤلفاتهم الشهيرة[٢٧] .

---

(٢٥) وفيما يلى عناوين هذه المؤلفات الستة بلغتها الالمانية ، مذكورة هنا حسب ترتيب ذكرها اعلاه :

Deutschlands Ansprüche an das Turkische Erbe (München, 1896). *Deutschlands Welpolitik* (München, 1897). *Deutschlands Weltstellung* (München, 1899). *Warum die Deutsche Flotte vergrossert werden muss* (Munchen, 1899). *Alideutschland an der Jahrhundertwende, 1800-1900* (München, 1900). *Deutsche Kolonisations-bestrebungen in Kleinasien* (München, 1900).

(٢٦) راجع (لوين) المذكور آنفا ، ص٣١ (Lewin, *op. cit.*, p. 31) .

(٢٧) راجع الايضاح القيم فى كتاب الاستاذ (كرام) عن « المانيا وانكلترا » حيث يشير المؤلف الى مواقف أكابر المؤرخين الالمان من هذا الشعور بالغبن ، وبراعة اساليبهم فى تأييد ذلك :

Cramb, J.A., *Germany and England* (New York, 1914), pp. 14; 18-26; 75-108, and Passim.

والى جانب شعورهم بالغبن كانت لدى الالمان حوافز توسعية اخرى نجمت عن منزلتهم كدولة عظمى ، وعن تلك « المقدمات » التى افتتحت علاقاتهم المباشرة بالدولة العثمانية ، وعن مفاهيمهم الخاصة لرسالتهم الثقافية ومصالحهم الاقتصادية • وذلك ما يجابهنا تارة بعد اخرى فى فيض محكم التفكير من مؤلفات الالمان المتعلقة بتلك الحركة مباشرة او بصورة غير مباشرة •

وعلى سبيل المثال نلقى نظرة على الرسالة المذكورة آنفا عن « مطلب المانيا من ميراث تركيا » • فالرسالة هذه تشير فى مطلعها بكل وقار الى ما ذكره القيصر من صيرورة المانيا دولة عالمية ، وانتشار مواطنيها فى مختلف ارجاء العالم ، وقيامهم بنشر طراز الحياة الالمانية دون التخلي عن صلتهم الوثيقة بالوطن • ثم تشرح هذه الفكرة القيصرية بما يبرر مآرب المانيا التوسعية فى ميادين الاقتصاد والثقافة ، وهى المآرب التى اهتم بها الالمان دون المطاليب الرامية الى الدمج والسيطرة المباشرة • وهذا يصدق خاصة (حسب تأكيد دعواهم) على علاقاتهم بالدولة العثمانية منذ بدايتها على يد فون مولتكه فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر • وبعد الاعتزاز بهذه البداية المبكرة ، تشير الرسالة بصفة عابرة الى كل من روشير Roscher وليست List و لاسال Lassalle ورودبرتوس Rodburtus باعتبارهم ممهدين لما اصبح يراد من تركيا • ثم تعنى بذكر شبرنجر Sprenger وكرجر Kaerger وبرسل Pressel وسيدن هورست Südenhorst ودى لاجارد de Lagard الذين كانوا من ابرز دعاة « الاندفاع نحو الشرق » • وهكذا فان الرسالة تنطوى على ما يمثل الاسس العامة فى الكتابات التوسعية ما بين اواخر القرن التاسع عشر وانهيار الدولة الالمانية سنة ١٩١٨ •

وكان ما ظهر من هذه الكتابات فى اوائل القرن العشرين يشمل : « سكة حديد بغداد وعلاقتها بفلاحي سوابيا فيما وراء القفقاس وفلسطين » بقلم جروتى H. Grothe • « سكة حديد بغداد » بقلم روورباخ P. Rohrbach. « برلين ــ بغداد » بقلم مارتن R. Martin • « مستعمرات المانيا » بقلم

هاسرت K. Hassert • « تركيا الاسيوية والمصالح الالمانية » بقلم جروتي H. Grote • « برلين ـ بغداد : اهداف جديدة لسياسة اوربا الوسطى » بقلم فنترشتتن R. v. Winterstetten ، وكذلك « مجلة الشرق الجديد » القيمة التى كانت تصدر مرة واحدة في كل شهرين خلال المدة ١٩١٧-١٩٢٢[٢٨] •

فالمؤلفات المشار اليها هنا عن سكة حديد بغداد لكل من جروتي ، وروورباخ ، ومارتن ، تناولت الى جانب موضوعها الخاص اهداف الالمان التوسعية فى الدولة العثمانية بالدرجة الاولى • وان ما كتبه هاسرت عن المستعمرات الالمانية « بدأه بست صفحات تمهيدية ذات علاقة وثيقة بما نحن فيه » • اما آلبرت ريتر Albert Ritter المذكور هنا باسمه المستعار فنترشتتن فقد جاء بخلاصة دوافع الالمان نحو الشرق • وامتازت اعداد مجلة الشرق الجديد بالمهارة فى معالجة شؤون الشرق الاوسط • وهكذا فقد ظهرت نزعة الالمان التوسعية على اتم ما يكون من القـوة والوضـوح طـوال المدة من ١٨٩٠ - ١٩١٨ •

عصبة عمـوم الالمـان

ولقد كان معظم ذلك الانتاج التوسعى كما يجدر به أن يكون على هيئة رسائل وجيزة وكتب صغيرة سهلة التداول دبجتها اقلام نفـر من الكتاب ممن كانوا ينتمون الى عصبة عموم الالمان "Alldeutscher Verband" او من كانوا يعطفون عليها • وكانت الدولة العثمانية عامة وبلاد ما بين النهرين خاصة ، كما اشرنا آنفا ، من ابرز ما تناولته تلك الاقلام • ومن

---

(٢٨) وفيما يلى عناوين هذه المؤلفات الستة (وكذلك المجلة) بلغتها الالمانية ، مذكورة هنا حسب ترتيب ذكرها اعلاه :
Die Baghdadbahn und das schwabische Bauernelement in Transkauksien und Palestina (München, 1902). *Die Bagdadbahn* (Berlin, 1902). *Berlin-Baghdad* (Stuttgart, 1907). *Deutschlands Kolonien* (leipzig, 1910). *Die Asiatische Türkei und die deutschen Interessen* (Halle, 1913). *Berlin-Bagdad: Neue Ziele mitteleuropaischer Politik* (München, 1914). *Der Neue Orient* (first issue dated April 7, 1917).

هذا القبيل كان موضوع سكة حديد بغداد بمفهومه العام ، كما سنلاحظ فى سياق الحديث . وعلى هذه الشاكلة ايضا كانت بعض المقاصد الاساسية لعصبة عموم الالمان وهى المنظمة التى عملت بكل نشاط وعنجهية لاعلاء شأن المانيا وتعاظمها فى الداخل والخارج .

ولنكتفي هنا بكلمة عابرة عن هذه العصبة الخطيرة التى نجد عنها دراسة وافية بقلم ملدرد ورتايمر Mildred Wertheimer . والذى يجلب الانتباه فى هذا الصدد يتعلق بتباين هذه الآراء حول مكانة هذه المنظمة القومية واهمية اعمالها ، كما يبدو فى عديد من الكتب وفيض من الجرائد والمجلات ومحاضر مجلس النواب ـ الرايشستاك ـ Reichstag . فلقد ادعى البعض ان العصبة لم تكن تمثل سوى أقلية ضئيلة من الشعب ، وأنها لم تكن بأى حال من الاحوال تمثل الاتجاهات الالمانية المعاصرة . والدليل على ذلك كما يقولون يتضح فى قلة عدد اعضاءها ، وفى ضآلة تمثيلهم فى مجلس النواب وعدم تبني القيصر اعمالهم[٢٩] .

ومع ذلك فان المنظمة كانت من حيث الاساس تمثل النزعة القومية والحركة التوسعية السائدة حينذاك فى المانيا على شاكلة اقل اعلانا واكثر حذرا واقرب منالا . فالعصبة باعتبارها نواة الحركة وكونها جماعة توجيهية ومركزا لدعاية لم تكن تعوزها العضوية الكافية من حيث العدد والمكانة ، وهى التى انتظم فيها اساتذة ورجال الاعمال وموظفون واطباء ، واعضاء مجلس امة ، ومحررون ، وتقنيون ورجال جيش ، ومحامون ، وملاك ، ونبلاء ، ورجال دين ، وغيرهم[٣٠] . وهى نظرا لكونها مؤسسة غير حكومية لم تر

---

(٢٩) كتاب (ورتايمر) عن « عصبة عموم الالمان » ، حيث نجد ما تعلق بالعضوية فى الصفحة (٦٥) وما بعدها . وما تعلق بالتمثيل النيابى فى الصفحة (١٣٣) وما بعدها . وما تعلق بموقف القيصر فى الصفحة (٢١٦) :
Wertheimer, M.S., *The Pan-German League*
(New York and London, 1924), pp. 65 ff, 133ff, and 216.

(٣٠) (ورتايمر) ايضا ، حيث نجد فى الصفحة (٧٠) اسماء الحرف التى كان ينتمى اليها اعضاء المجلس التنفيذى للعصبة ، وهنا بلغ تعدادها اثنتى عشر حرفة من مختلف الانواع : *Ibid*, p. 70 .

بأسا فى الاعلان عن مقاصدها ، كما وان اهتمامها بالدعاوة بين جميع الالمان جعلها اميل الى الغلو والتعصب الذى دأبت عليه .

ولم يكن من المنتظر بطبيعة الحال ان يتبنى القيصر او حكومته شيئا من هذا القبيل ، غير ان الحكومة افادت من المنظمة كما افادت « من اية منظمة تؤيد سياستها » . ومن الجدير بالذكر ان اعضاء العصبة ممن كانوا فى الوقت ذاته اعضاء فى مجلس النواب كانوا اكثر اعتدالا فى معالجة الشؤون الوطنية من زملائهم الذين لم تكن لهم مثل هذه الصفة الرسمية . ومما يجلب الانتباه ايضا انتساب هؤلاء النواب الى مختلف الاحزاب والكتل السياسية الممثلة فى المجلس ، وكونهم « موالين لاحزابهم السياسية اولا ، ولعصبتهم من بعد ذلك »[٣١] .

ولقد كان الاستاذ كوليج Archibald Coolidge مصيبا على ما يبدو في قوله « ان منتسبي عموم الالمان يعبرون بحرية عن المتطرف من الطموح الذى يضمره لحد ما كثير من الوطنيين الهادئين » . ولكن سفير المانيا فى الولايات المتحدة الكونت فون برنشتورف Count von Bernstorff خالف هذه الفكرة ، وذم العضويين بصراحة فى سياق خطاب القاه فى فيلادلفيا فى ٦ تشرين الثانى ١٩٠٩ . وسرعان ما اجتاحت المانيا موجة من السخط على هذه الملاحظات ، ونقد لاذع للسفير الذى جازف بها . فلم يكن دفاع مجلس الامة عن العصبة الوطنية بأقل شأنا من دفاع الصحافة عنها ، وقامت الحكومة نفسها باصلاح ذات البين . فقد صرح وزير خارجية المانيا البارون فون شون Baron von Schoen « **انه لمن دواعي الشرف لكتّاب عموم الالمان ان لا يكون** هنالك شيء ابعد عن اذهانهم من الاساءة لمصالحنا خارج المانيا ، أو من جعل مهام دبلوماسينا الصعبة اكثر صعوبة »[٣٢] .

وهكذا نجد الحكمة تنسب على سبيل التودد الى المؤسسة التى تمثلت

---

(٣١) هذه العبارة والتى قبلها منقولتان عن (ورتايمر) من الصفحتين (٢١٦) و (١٣٧) .

(٣٢) راجع خلاصة القضية مع المهم من اسانيدها فى الصفحات (١٥١ ــ ١٥٥) من كتاب (ورتايمر) : *Ibid*, pp. 151-155.

فيها ، ولو بشيء غير قليل من العنجهية ، اهداف القومية الالمانية المعاصرة .

تخـــوف البريطانيين

اما البريطانيون فقد اعتبروا حركة الالمان التوسعية حقيقة راهنة ، ذات عواقب وخيمة بقطع النظر عن مقدار تأثرها بعصبة عموم الالمان او بغيرها من المنظمات التى بلغ تعدادها زهاء ثمانين منظمة وطنية(٣٣) . وبقطع النظر ايضا عما ظهر خارج نطاق العصبة من غزارة الكتابات المغالية فى القومية ، فان ما تقدم ذكره من أمثلة نموذجية يكفى للدلالة على مآرب توسعية تدعو الى القلق . وكان الى جانب تلك المآرب ان قامت المانيا بخطوات عملية جعلت هنالك معنى واقعيا لتخوف بريطانيا وقيامها باتخاذ خطوات معاكسة .

٣ ـ مواقف الاضـــداد

التنافر البريطانى ـ الالمانى

ولقد كانت السياسة الخارجية البريطانية ، كما يجدر بنا ان نتذكر ، تهدف عادة الى تحقيق غرضين اساسيين اولهما الاحتفاظ بنوع من التوازن الدولى داخل القارة الاوربية ، وثانيهما الاحتفاظ برجحان كفة بريطانيا فيما وراء البحار . فكان لهذه السياسة ابعد الاثر فى العلاقات البريطانية الالمانية ، واليها يعزى موقف الحزم الذى وقفته بريطانيا فى وجه التوسع الالمانى تجاه الشرق خاصة ، وما اتخذه الالمان من خطوات معاكسة فعالة . ومن ثم نشأ عند الالمان اعتقاد جازم بان اصرار بريطانية على الاحتفاظ

---

(٣٣) فى الصفحة (٥٦) وما بعدها من الكتاب : (Handbuch, 1914) توجد قائمة باسماء الاتحادات والجمعيات الالمانية ، وهـذه منقولة فى الصفحات (٢٣٧ ـ ٢٣٩) من كتاب (ورتايمر) المذكور آنفا ، والذى نجد فى صفحاته (٢٤٠ ـ ٢٥٢) قائمة أخرى : وهى باسماء جميع النشرات ذوات النعرة القومية (Chauvinist publications) التى لم تكن من ضمن منشورات « عصبة عموم الالمان » .

بسيطرتها العالمية والدفاع عنها ، يتنافى مع حقوقهم المشروعة فى التوسع ، وكان لهذا الاعتقاد الجازم ايضاح فى ميدان الفكر وآخر فى ميدان الاقتصاد .

(١) الايضــاح الفكري :

فالحركة الالمانية المعاكسة كانت ضخمة وفعالة فى شتى ميادين الفكر وهى لم تكن موجهة ضد سياسة بريطانيا فيما وراء البحار فحسب ، بل تناولت بطريقة او بأخرى صفات البريطانيين القومية وما اتخذوه من وسائل مريبة لتقوية بلادهم في الداخل والخارج . ولقد اصبح نفر من ابـرز المؤرخين بمثابة القادة لهذه الحركة التى اكدت على ان حق بريطانيا فيما احرزته من نفوذ عالمى لم يكن بارجح مما كان يحق لالمانيا ان تحرزه فى هذا المجال . وكان المؤرخ الشهير ترايتشكه (Treitschke) فى طليعة تلك الزمرة التى شملت كلا من درويسن (Droysen) ، وهويسر (Haüsser) وسايبل (Sybel) وشلوسر (Schlosser) ودالمان (Dahlman) وكذلك برتس (Pertz) صاحب سيرة شتاين Stein ودلبروك (Delkruk) صاحب سيرة كنايزهناو Gneisenau . والى جانب هؤلاء كان الفلاسفة وغيرهم من رجال الفكر الالمانى مؤيدين لذلك الاتجاه .

ولدينا عن تفاصيل هذه الحركة الفكرية وما انطوت عليه من شدة التنافر بين الطرفين كتاب قيم بعنوان « المانيا وانكلترا » ظهر لاول مرة على هيئة محاضرات القاها احد الاساتذة الانكليز سنة ١٩١٣[٣٤] . فالكتاب على الرغم من ميوله الانكليزية حافل بالحقائق والملاحظات المهمة ، كقوله مثلا « ان ممتلكات انكلترا ، وان كبرياء انكلترا فى عرض البحار وتمسكها بالامبراطورية العالمية ، ان ذلك كله يعتبر فى نظر المانيا اهانة لها واحتقارا لم تجابه باسوء منه فى سالف الايام » . وفى الكتاب نفسه ايضاح مسهب

(٣٤) Cramb, J.A., *Germany and England* (New York, 1914)

لما يعرف بالمدرسة البروسية فى التاريخ (وهى التى ينتسب اليها معظم الذين ورد ذكرهم الآن) ، وفيه تبيان لشتى العوامل والاهداف . فلم يكن امثال هؤلاء المؤرخين وحدهم ، كما يشير المؤلف ، هم الذين اعتبروا انكلترا الدولة السارقة الكبرى : « فالفكرة هذه تغلغلت تدريجا وعلى شاكلة ما ، فى جميع الطبقات . واتضحت احيانا فى شخصية قصصية ، وتارة فى قصيدة شعرية ، واخرى فى بحث تاريخى او اقتصادى أو فى قاعة المحاضرات فى بون ، او هايدلبرك ، أو برلين ، وتارة فى خطبة سياسية »[٣٥] .

(٢) الايضاح الاقتصادى :

والى جانب ذلك ايقن الالمان بضرورة اتصالهم بالاسواق العالمية ، والاحتفاظ بهذه الصلة فى اوقات السلم والحرب . غير ان بريطانيا ، حسب رأيهم ، انكرت عليهم هذا المطلب الحيوى ، واساءت اليهم بما التزمت به من رجحان قوتها البحرية . والى مثل هذا الموقف الخطير أشارت الجريدة المهمةفرانكفوتر زايتونج Frankfurtr Zeitung ، فذكرت بتاريخ ٧ كانون الثانى سنة ١٩١٤ : « ان حربا مع انكلترا وفرنسا وروسيا فى آن واحد تبدو لحسن الحظ بعيدة الوقوع . غير انه من الممكن حدوث مثل هذه الحرب ، فلذا وجب على الساسة المحنكين ان يحسبوا لها الحساب ... فاذا ما حدثت المعركة فان وارداتنا البحرية تتضائل بسرعة نظرا لانقطاع المواد الاولية [بسبب رجحان كفة العدو البحرية] . وان ما يهدد الوطن بالدمار ، كما يدل عليه وضعنا الحاضر لا يقتصر حينذاك على فقدان الخبز واللحوم . فلقد اصبحت حاجاتنا الضرورية تشمل الفحم والحديد وغير

---

(٣٥) (كرام) ايضا (Cramb, J.A.) ، الصفحات (٢٤ ـ ٢٥) و (٣٧ ؛ ٨٢ ؛ ١٠٢) . ففى الصفحة (١٥) نجد العبارة التالية منقولة عن المؤرخ الشهير ترايتشكه (Treitschke) حيث يقول : « وفى سنة ١٨٣٩ ، فى اثناء زمن يسوده السلام ، سرق العش الصخرى فى عدن ، مفتاح البحر الاحمر ونظير جبل طارق فى بلاد الشرق » .

ذلك مما يعلمه الله »[٣٦] .

ان هـذه الحاجة الاقتصادية الملحة وما يدعمها من مقـارنات فعالة لمفاهيم التطور القومى تعارضت مع مصالح بريطانيا العالمية ، فكانت الجواب المحكم لسياستها الخارجية المعهودة . والموقف المتقـابل هـذا مع ملابساته الدقيقة ، هو ما يجدر بنا ان نتذكره لفهم العلاقات الالمانية ـ البريطانية بالنسبة لشتى القضايا ومختلف الاقطار . فلا غرابة ، بالنسبة لبلاد الرافدين مثلا ، ان نلاحظ قضايا صغيرة نوعا ما يكبر قدرها بين الطرفين ، ومشاكل مهمة نوعا ما تبدو بينهما على جانب عظيم من الخطورة .

ولقد حدث تقدم الالمان الى بلاد الرافدين عن طريق القسطنطينية من جهة ، وعن طريق الخليج العربى من جهة اخرى ، وكان ذلك فى كلتا الحالتين بمثابة حركة مضادة لمصالح بريطانية عريقة . فاذا لم يكن تغلب الالمان على البريطانيين متوقعا فى حوض الخليج ، فانه كان يبدو متوقعا فى الامبراطورية العثمانية ، واذا ما شملت الناحية الجنوبية مصالح تجاريـة بالدرجة الاولى ، فان الناحية الشمالية تناولت مصالح اوسع واعمق مـن ذلك . ومن ثم تخوفت بريطانيا دون ان تشعر بالخطر فى الحالة الاولى ، ولكنها شعرت فى الحالة الثانية بحدة المنافسة وخطورة الموقف[٣٧] .

ظهور الالمان في منطقة الخليج العربى

فكان فى سنة ١٨٩٩ على اثر زيارة القيصر وليم الثانى لتركيا ، ان قامت الباخرة الالمانية اركونا Arcona بزيارة منطقة الخليج لغرض المسح والاستطلاع وشىء من الدعاية . وسرعان ما تسلم المقيم البريطانى فى المنطقة وهو العقيد (ميد) Lieut.-Col. M.J. Meade امرا بالحيلولة دون اتصال شيخ

---

(٣٦) راجع النص في مقال سيد حسين عن « تركيا والرأسماليين الالمان »:
Hussain, (S.), "Turkey and German capitalists", *Contemporary Review* (April, 1915), vol. 107, p. 493.

(٣٧) راجع أدناه ، الفصل الثامن .

الكويت بالالمان • فعمل المقيم على تنفيذ ذلك ونجح فى استمالة الشيخ ، فاصبح مرفأ الكويت (البالغ زهاء عشرين ميلا فى عشرة اميال طولا وعرضا) فى يد صديق لبريطانيا • والمرفأ هذا ، كما نعلم ، يسيطر على المدخل البحرى الوحيد لبلاد ما بين النهرين[٣٨] •

وبعدذلك بسنةواحدة تقريبا جاءروبرتفونكهاوس Robert Vönkhaus الى الخليج العربى للتعامل فى اللؤلؤ والصدف ، فكان هو أول تاجر المانى يعمل في هذه المنطقة ، حيث انشأ مخزنا فى لينكه Lingah (بالقرب من بندر عباس) ، ثم انتقل سنة ١٩٠١ الى البحرين • وهنا لم يستطع الالمان الدخول فى مفاوضات مع شيخ البحرين ، كما انهم اخفقوا فى محاولة انشاء مركز لهم فى الجزيرة الصغيرة هلول Halul ، على بعد ٧٠ ميلا من رأس ركيم [ركان] الواقع فى النهاية الشمالية من شبه جزيرة قطر • وكذلك اخفقوا فى محاولة انشاء مركز لهم فى جزيرة ابي موسى الواقعة فى بداية ما يدعى بحاجز اللؤلؤ الكبير • ولقد رفض شيخ المحمرة الذى كان على وئام مع البريطانيين منحهم امتيازات لانشاء مشروع للرى على نهر الكارون • ولا غرابة فى ذلك الفشل الالمانى المتلاحق ، لان البريطانيين كانوا يتمتعون بمكانة ممتازة فى هذه المنطقة التى حرصوا على مكانتهم فيها ، واصبحوا يغارون عليها من اى تدخل[٣٩] •

خط همبورغ ـ امريكا وعلاقته بوادى الرافدين

ومع ذلك فان حركة المانيا التجارية استمرت فى التقدم وكان لها اثر يذكر فى بلاد ما بين النهرين • فالمؤسسة التى اصبحت تعرف بشركة (فونكهاوس) التجارية استمرت بالاتساع حتى اندلاع الحرب العالمية

---

(٣٨) (لوين) المذكور آنفا ، ص (٨٠) : (Lewin, *op. cit.*, 80)
وقد نشر المقدم (ميد) نفسه قصة بعثته فى رسالة الى احدى المجلاتالبريطانية وظهرت بتاريخ ٢٥ كانون الثانى ١٩١٦ فيما يلى : (*Pall Mall Gazette*, January 25, 1916).

(٣٩) (لوين) ص٨٦ ـ ٨٧ ، حيث يشير المؤلف الى الصفحة ٢٩٥ وما بعدها فى « دليل الخليج العربى » : *Persian Gulf Pilot*, 295ff.

الاولى ، واصبحت لها فى تلك الآونة فروع فى كل من البصرة ، وابو شهر ، والمحمرة ، والاهواز • وبواسطة فرعها فى البصرة استطاع خط همبورغ – امريكا للنقل البحرى ان يتصل بوادى الرافدين بصورة منتظمة ابتداء من سنة ١٩٠٦ واعتبارا من هذه السنة ، كما يجدر بنا ان نلاحظ ، اخذت التقارير القنصلية البريطانية تعنى بذكر التعامل التجارى الالمانى مع بلاد ما بين النهرين ، بينما لم تكن هذه التقارير تعنى قبلا بمثل ذلك بالنسبة لالمانيا أو لاية دولة اخرى •

ولقد اتضح لاول مرة ان حمولة السفن الالمانية فى ميناء البصرة ، بلغت الدرجة الثانية بعد حمولة السفن البريطانية التى احتفظت بالدرجة الاولى وبتفوق كبير • فكانت هذه ٢١٨ر٧١١ طنا ، والاخرى ٩ر٤١١ طنا خلال سنة ١٩٠٦ حسب تقرير القنصل البريطانى المتعلق بتجارة البصرة فى هذا العام • واننا لنقرأ فى تقرير القنصل البريطانى عن تجارة بغداد للسنة نفسها « ان اسعار النقل البحرى انخفضت على وجه الاجمال عما كانت عليه فى سنة ١٩٠٥ ، وان لاتصال بواخر همبورغ – امريكا بمنطقة الخليج اثرا يذكر فى هبوط اسعار النقل الى الموانىء الاوربية »[٤٠] • فعلى هذه الشاكلة كانت الاسباب المادية لقلق البريطانيين من اعمال الالمان في المنطقة • غير انهم بالغوا فى الحذر ، بينما كان لهم المركز الممتاز فى المنطقة والتفوق الكبير فى تجارة وادى الرافدين وحركة النقل المتعلق بذلك •

الناحية التجارية

فاذا لم يستطع الالمان زعزعة ذلك التفوق البريطانى ، فان براعتهم كانت مشهودة فى مضمار الاعمال ، وكان تقدمهم بحد ذاته غير قليل • ففى سنة ١٩٠٧ بلغت قيمة واردات البصرة منهم ١٦٨ر٠٠٠ باونا استرلينيا ، وصادراتها اليهم ١٣٥ر٠٠٠ باونا • وكان نقل تلك الواردات والصادرات فى بواخر

---

(٤٠) تقرير القنصل البريطانى عن « تجارة البصرة لعام ١٩٠٦ » ص ٦ و ١٢ ؛ وتقرير القنصل البريطانى عن « تجارة بغداد لعام ١٩٠٦ » ص ٣ : (Cd. 3283-126 and Cd. 328-134 respectively) .

المانية بما فيها البضائع التالية : الشخاط والمنسوجات الصوفية ، والقرطاسية ، والسكر ، والقند ، والملابس الداخلية hosiery والخرداوات heberdashery والجلود ، والرصاص ، والصفيح، والحرير، والقطيفة ، والحديد والفولاذ ، والاطعمة ، والصابون ، والنفط « وكانت زيادة هذه البضائع كبيرة خلال الاشهر الستة المنتهية في ٣١ كانون الاول » ١٩٠٧ قياسا على الستة اشهر الاولى . اما قيمة واردات بغداد من المانيا فقد بلغت ٤٩ر٤٨٤ باونا استرلينيا سنة ١٩٠٨ ، وفى سنة ١٩٠٩ بلغت ٣٦ر٧٠٥ . فبينما احتلت المانيا المنزلة السادسة فى قائمة واردات بغداد ، نجد بريطانيا تحتل المنزلة الاولى بتفوق كبير ، حيث بلغت فى السنة الاولى ٩٣١ر٤٢٤ باونا استرلينيا وفى السنة التالية ١ر٢٠١ر٣١٦[٤١] .

ولقد بلغت حمولة البواخر الالمانية الدرجة الثانية بعد البريطانية فى ميناء البصرة سنة ١٩١٠ فكان مقدارها ٢٣ر٤٤٠ طنا ، ومقدار الحمولة البريطانية ١٥٥ر٣٥٤ . وفى سنة ١٩١١ بلغت الالمانيــة ٤١ر٢٤٩ طنا ، والبريطانيــة ٢٦٥ر٣٠٨ . وفى سنة ١٩١٢ كانــت ٣٠ر٩٤٨ مقابــل ٢٦٧ر٨٩٩[٤٢] . ولا ننسى بان ميناء البصرة هو المنفذ البحرى الوحيد لبلاد ما بين النهرين . واذا ما ارتفعت هنالك حمولة البواخر الالمانية الى الدرجة الثانية بعد البريطانية فان الفرق بينهما ظل شاسعا وظلت بريطانيا تتمتع بالتفوق الكبير فى هذا المضمار . وعلى هذه الشاكلة كان تفـوق بريطانيا فى التعامل التجارى مع بلاد الرافدين . فتجارة المرور عبر هذه البلاد كانت فى يدها دون غيرها تقريبا ، كما نعلم[٤٣] . والنسب المئوية

---

(٤١) تقرير القنصل البريطانى عن « تجارة البصرة لعام ١٩٠٧ » ص ٧ و ٨ . وتقرير القنصل البريطانى عن « تجارة بغداد لعام ١٩٠٩ » ص ٨ : (Cd. 3727-107 and Cd. 4962-94, respectively) .

(٤٢) تقارير القناصل البريطانيين عن « تجارة البصرة لعام ١٩١٠ » ص ٩ و ١٧ . و « تجارة البصرة لعام ١٩١١ » ص ١٧ . و « تجارة البصرة لعام ١٩١٢ » ص ١١ و ١٢ . والارقام الرسمية لهذه التقارير هى على التوالى : (Cd. 5465-123. Cd. 6005-153. Cd. 6665-126) .

(٤٣) راجع اعلاه ، ص ١٩٦-١٩٧ .

لقيمة البضائع المستوردة الى بغداد خلال السنوات الثلاث (١٩١٠ - ١٩١٢) تشير الى ٤٤٫٤ من بريطانية و ٢٠٫٩ من الهند (التابعة لها) و ١٥٫١ من المانيا • اما النسب المئوية لقيمة البضائع الصادرة من بغداد خلال هذه السنوات فقد كانت ٢٩٫١ الى بريطانية ٢٢٫٧ الى الهند ، ١٢٫٣ الى المانيا • فاذا ما التفتنا الى قيمة البضائع الواردة الى بغداد خلال ١٩١٢ لوجدناها كما يلى : من بريطانيا ١٫٤٥١٫٢٨٨ باونا استرلينيا ، ومن الهند ٦٦٦٫١٥٣ ، ومن المانيا ٤٨٢٫٥٠٥ • ولوجدنا صاردات بغداد الى بريطانيا خلال السنة نفسها تبلغ ما قيمته ٢٨٥٫٦٢٠ باونا استرلينيا ، والى الهند ٢٢٢٫٨٢٥ ، والى المانيا ١٢٠٫٦٤٦[٤٤] • وعلى هذا فقد احتلت المانيا الدرجة الثالثة فى قائمة استيراد بغداد لتلك السنة والدرجة الرابعة فى قائمة التصدير ، حيث كانت الولايات المتحدة الامريكية فى المنزلة الثالثة بين الاقطار التى ذهبت اليها حينئذ صادرات بغداد • اما فى ميدان النقل البحرى ، فقد ازدادت حركة البواخر الالمانية زيادة ملحوظة فى ميناء البصرة خلال سنة ١٩١٣ « فقد حلت فى هذا الميناء خلال سنة ١٩١٣ عشرون باخرة المانية تبلغ حمولتها المسجلة ٥٥٫١٤٩ طنا ، بينما كان العدد خلال سنة ١٩١٢ اثنتي عشر باخرة والحمولة ٣٠٫٩٤٨ طنا » • غير ان ذلك لم يكن بالشىء الكثير قياسا على ما بلغته بريطانية خلال تلك السنة فى هذا الميدان • فقد كان لها ١٦٣ باخرة بلغت حمولتها ٢٥٤٫٧١٤ طنا يضاف اليها ما حمولته ١١٫٥٩٥ طنا من السفن الشراعية[٤٥] •

وفى ميدان التجارة مع القطر خلال ١٩١٣ احتفظت بريطانيا ايضا بمركزها الممتاز • وعلى سبيل المقارنة نكتفى بذكر ما تعلق بالواردات دون الصادرات التى لم تتبين وجهاتها • ففى تلك السنة احتلت المانيا المنزلة الخامسة فى قائمة واردات بغداد ، بينما امتازت بريطانيا بالمرتبة الاولى • وقد

---

(٤٤) تقرير القنصل البريطانى عن « تجارة بغداد لعام ١٩١٢ » ص ١١ و ٢٤ : (Cd. 7048 41) .

(٤٥) تقرير القنصل البريطانى عن « تجارة البصرة لعام ١٩١٣ » ص ١١ و ١٤ : (Cd. 7048-168) .

بلغت قيمة الواردات من بريطانيا حينذاك ١٣٨ر٣١٤ر١ باونا استرلينيا ، ومن الهند ٧٦١ر٥٧٢ ، ومن بلجيكا ٧١٩ر٣٢٨ ، ومن النمسا والمجر ٢٣٤ر٢٦٤ ، ومن المانيا ١١٥ر١٤٤ • اما النسب المئوية لقيمة البضائع المستوردة الى بغداد من هذه الاقطار الخمسة خلال السنوات الثلاث (١٩١١ – ١٩١٣) فانها كانت ١ر٤٥ من بريطانيا ، و ٦ر١٩ من الهند ، و ٢ر١١ من بلجيكا ، و ١ر٩ من النمسا والمجر ، و ٥ فقط من المانيا[٤٦] • ولا ننسى بان تجارة بغداد كانت خير دليل على مبلغ تجارة القطر اجمالا ، كما وان حركة النقل البحرى فى ميناء البصرة كانت الدليل الوحيد على مبلغ هذه الحركة بالنسبة لبلاد الرافدين •

حذر بريطـــانيا

ومهما يكن من امر فقد اعتبرت الاعمال الالمانية فى مضمار الشحن والتجارة مناقضة لمصالح بريطانيا ، ومنذرة بما لا تحمد عقباه • ولقد لوحظ شيء من هذا القبيل منذ سنة ١٩٠٦ « عندما ادى اتصال خط همبورغ – امريكا بالخليج العربى الى انخفاض كبير فى اسعار الشحن الى المانيا » حسبما ورد فى تقرير تجارى لحكومة الولايات المتحدة الامريكية • ولوحظ ايضا بان مصالح بريطانيا فى ميادين النقل البحرى عموما « قد اصيبت بضرر جسيم من جراء المزاحمة الالمانية »[٤٧] • ويشير التقرير الى كفاءة الالمان الاقتصادية فيما اتبعوه من طريقة الاجور الشاملة « التى تنظم النقل البرى والبحرى حسب اجور تشمل جميع مراحـل المسـافة بين المعمـل وميناء التصريف » • فمقدرة الالمان فى ادارة الاعمال كانت تعتبر خطرا شديدا على منافسيهم ، كما يستبان مثلا من هذه الفقرة الجامعة التى وردت فى المجلد الحادي والعشرين من « تاريخ الحرب [العالمية الاولى] لمؤسسة

---

(٤٦) تقرير القنصل البريطانى عن « تجارة بغداد لعام ١٩١٣ » ص ١ و ١٢ : (Cd. 7620-17) .

(٤٧) « تقرير عن التجارة رقم (٥٠) » الصادر فى (واشنطن ، ١٩١٩) ص ٩٥٢ :
Commerce Report, No. 50 (Washington, D.C., 1919), p. 952.

التايمز » اللندنية :

لقد اكتسبت السياسة الخارجية قبيل الحرب معنى مشؤوما ، هو الاسواق ... ولقد احرزت المانيا قصب السبق فى بعـــض الصناعات ، وكانت تحرز تقدما يوميا فى البعض الذى كانت لا تزال متأخرة فيه . وقد اظهر الالمان أينما كانوا مساع مرموقة فى التحرى عن اسواق جديدة ، وفى ازاحة المنافسين الجدد ، وفي خلق طلبات جديدة ، وفي مجاراة الحاجات المحلية ، كما وانهم نضموا الصناعات وسيطروا على الانتاج . فاذا ما شعروا بوطئة المنافسة تقدمت الحكومة اليهم بالمساعدة اللازمـة لدعم الصناعات الناشئة حديثا . وكان لديهم نظام مصرفي على أوسع ما يكون من التفرع واستقاء الاخبار السرية لمساعدة التجار الالمان فى الاسواق الاجنبية[٤٨] .

فنظرا لمثل هذه الاعتبارات وما يدعمها من سوء تفاهم جذرى بين المانيا وبريطانيا لم يكن غريبا ان تتخذ الثانية منهما موقف التخوف والحذر من اتصالات الاولى بوادى الرافدين حتى وان لم تكن هذه الاتصـالات خطيرة . فالحركات الالمانية فى الخليج العربى مثلا لم تكن بحد ذاتهـا خطيرة ، ولكنها كانت في نظر البريطانيين تحمل معنى ينم عن نظرتهم الخاصة الى علاقات الالمان بوادى الرافدين ، لا بل وبغيره من ارجاء العالم . «فهنالك القضية بكاملها [اى في حوض الخليج] وهى صورة مصغرة لسياسة المانيا العالمية . فكل حادثة كانت طفيفة على انفراد ، ولكنها مجتمعة كانت تعني الشيء الكثير »[٤٩] . غير ان المانيا كما يجدر بنا ان نتذكر لم تنفرد هى

---

(٤٨) « تاريخ الحرب [العالمية الاولى] لمؤسسة التايمس [اللندنية] » المجلد الحادى والعشرون ، ص ٣٢٣ . راجع ايضا (هوفمان) عن « بريطانيا العظمى ومنافسة المانيا التجارية » (فيلادلفيا ، ١٩٣٣) :

The Times History of the [first world] *war*, vol. XXI, p. 323. See also Hoffman, R.J.S., *Great Britain and the German trade rivalry* (Philadelphia, 1933).

(٤٩) *The Times history of the* [first world] *war*, vol. III, p. 101.

وحدها باتخاذ نظرة عالمية لمصالحها الخاصة • فلقد كان لبريطانيا ايضا مثل هذه النظرة التى جعلتها تشتهر بالانانية الصارمة فى سياستها الخارجية •

ما بين القسطنطينية والخليج العربى

تلك هى المصالح الالمانية فى بلاد الرافدين ، من حيث مقدماتها البارزة ، ووسائلها الملحوظة ، وهى سواء كانت فى تركيا ام فى بلاد الرافدين ، وسواء كان ظهورها في أواخر القرن التاسع عشر ام في أوائل القرن العشرين ، فانها كانت مصحوبة بنزعة توسعية عارمة • ومن ثم اكتسبت هذه المصالح اهمية خاصة عند ظهورها على هيئة نقل بحرى وتجارة ، ودعمها منذ سنة **١٩٠٨** بتأسيس قنصلية المانية في بغداد(٥٠) • ومع ذلك فان استياء البريطانيين من تلك الاعمال لم يبلغ يوما ما حد المنافسة الخطيرة بين الطرفين ، اذ لم يكن جانب الخليج ملائما لتفوق الالمان •

فلقد كان جانب القسطنطينية هو الميدان الذى ترعرعت فيه بينهما منافسة خطيرة شملت جميع بلاد الرافدين كما يشير الفصل التالى بشىء من التفصيل • وانه ليجدر بنا ان نلاحظ بان حوادث القسطنطينية من جهة والخليج من جهة اخرى وربوع وادى الرافدين نفسه ايضا ، كانت فى الواقع حوادث مترابطة ، لا بل وكانت تجرى متحدة احيانا • غير انه كان لابد لنا من تتبع شؤون كل جهة على انفراد جهد المستطاع ، وذلك تجنبا لارتباك المعاني فى قضية هى بحد ذاتها على جانب غير قليل من التعقيد •

---

(٥٠) Hoffman, *op. cict.*, p. 152.

الفصل الثامن

التنافس البريطاني ـ الالماني
١٩٠٣ ـ ١٩١٤

١ ـ صداقة المانيا وتركيا

العوامل الاساسية

لقد ترعرعت الصداقة بين المانيا وتركيا بواسطة الزيارة الشهيرة التى قام بها القيصر للسلطان ، وبواسطة تأييد المانيا لقيام تركيا برعاية الجامعة الاسلامية ، وكذلك بواسطة القيام بانشاء سكة حديد الحجاز . يضاف الى ذلك ما كانت عليه سياسة المانيا الخارجية من ملائمة لوحدة الامبراطورية العثمانية ، خلافا لما كانت عليه سياسة بريطانيا الخارجية . كما وان ما سبق ذكره من اتصالات الالمان بتركيا ، على غرار بعثتى مولتكه (Moltke) وجولتز (Goltz) ، كان تمهيدا صالحا لهذه العوامل التى بلغت نجاحا كبيرا فى تقوية اواصر الصداقة الالمانية ـ التركية من جهة ، وفى اضعاف مركز بريطانيا فى الدولة العثمانية من جهة اخرى ، كما سيتضح فى سياق الحديث .

زيارة القيصر

فبعد مرور زهاء عقد كامل على زيارته الاولى لتركيا ، قام القيصر وليم الثانى بزيارته الثانية لها خلال تشرين الاول والثانى سنة **١٨٩٨** . فكانت الزيارة شهيرة ومهمة ، وعليها عقد كل من العاهلين الامال . فلقد

توقع السلطان من صاحبه ان يكون له سندا فى الاحتفاظ بالملك الشاسع والنفوذ الواسع ، بينما توقع القيصر من صاحبه ضمانا لتوسع اقتصادى وثقافى يرجى منه الخير لكلا الطرفين • ولم يكن بخاف مقام كل واحد من العاهلين فى دولته ، وتمتعه فيها بالسلطة العليا • غير ان البعض رأى فى تلك الزيارة غير ما رأياه ، واساء البعض الاخر تقدير ما كانت ترمي اليه وخاصة فيما يتعلق بميول القيصر المكثر في التصريح • ولم يكن الالمان انفسهم على ثقة من الامر ، حتى كانت لبعض افراد حاشية القيصر نفسه نظرات سطحية لما جرى بين ظهرانيهم من حادث خطير[١] •

ولقد تناولت الزيارة كلا من القسطنطينية وبيت المقدس ودمشق على التوالى ، وكانت محفوفة بالحفاوة البالغة ، حيث قوبل العاهل الالمانى فى الحل والترحال بالاستقبالات والتوديعات الرسمية الفخمة ، وكذلك بالهتافات الشعبية المدبرة رسميا من وراء الستار ، ولم يكن هو فى الاجابة على كل ذلك بأقل منه مودة ، وتقديرا ، وحماسا • وفى مقدمة حاشية القيصر كانت الامبراطورة التى ، كما نذكر عرضا ، قامت بزيارة حريم السلطان ، فاستغربت خمول هذه الزمرة من سيدات باديات الحسن والسمنة والميل لتناول الحلوى ، متزينات على شاكلة ما بأزياء باريسية • وكان الشخص الآخر البارز فى جماعة الامبراطور هو الفون بيلو (Price von Bülow) الذى اعتقد بأن القيصر بالغ نوعا ما فيما كان يأمل ، كما بالغ فى التصريحات وفى مظاهر الابهة • اما البعض من افراد الحاشية فانه لم يكن مكترثا بشىء من ذلك ، حتى ان واحدا منهم ابرق الى زوجته فى بوتسدام قائلا : « سئمت هذه المهزلة • مشتاق اليك والى شواء أرنب » فكانت فكاهة ابهجت

---

(١) راجع الملاحظات القيمة عن هذه الزيارة القيصرية ، فى الفصل السادس عشر من « مذكرات » الامير فون بيلو :

Bülow, Prince von, *Memoirs, 1897-1903*, English translation by F.A. Voigt (London and New York, 1931), chapter XVI on "the Kaiser's visit to Turkey".

الباقين[٢] • غير ان المهم بطبيعة الحال انما هو القيصر الذى تقدم فى الامر عن رغبة صادقة وبعد نظر •

فقد استطاع وهو فى القسطنطينية ان يمهد السبيل لحصول الالمان على امتياز سكة حديد بغداد ، مما جعل بلاد الرافدين بمرور الزمن مركزا خطيرا للمنافسة الالمانية ـ البريطانية • وفى بيت المقدس حضر كنيسة بروتستانتية واخرى كاثوليكية ، وظهر فيهما بكامل هالته الامبراطورية ، ووعد فى الثانية منهما بالحماية للمسيحيين الالمان على اختلاف مذاهبهم وفى كل مكان • واخيرا بلغت الزيارة ذروتها فى مدينة دمشق حيث القى القيصر خطابه الشهير الذى ورد فيه قوله « ليطمئن السلطان ، وكذلك الثلثمائة مليون مسلم المنتشرين فى ارجاء الارض ، والذين يبجلونه خليفة عليهم ، بأن الامبراطور الالمانى سيكون وسيبقى صديقهم فى جميع الاوقات »[٣] • ولقد تشاءم البريطانيون والفرنسيون من هذا التصريح الذى رأوا فيه تهديدا لمصالحهم لا فى الدولة العثمانية فحسب ، بل وفى ارجاء امبراطوريتهما الشاسعتين ايضا ، حيث يقطن ملايين المسلمين • ومن ثم نشأ الموقف المناوىء لزيارة القيصر فى ميدان الصحافة البريطانية والفرنسية على الاقل •

ولما كان القيصر هو المسؤول عن كل ذلك فقد توجهت اليه شخصيا شتى انواع النقد المغرض ، ما بين الوضيع كما جاء على لسان صحيفة الضحك الفرنسية ، والمحكم التدبير كما ورد فى رسائل جريدة التايمس اللندنية • فلقد نشرت صحيفة الضحك Le Rire الاسبوعية مجموعة يوميات خيالية ، بذيئة ، ولكنها لاقت رواجا بين مختلف القراء ، وظهرت بعدئذ مترجمة الى الانكليزية تحت عنوان « العلي الاعلى يذهب الى بيت المقدس » وفى مقدمتها يشير المترجم الى انه : « لما كانت المانيا وفرنسا فى حالة سلم نظريا ، فقد بذلت الحكومة الفرنسية شيئا من الجهد لمنع النشرة ،

---

(٢) برقية الهر فون لوكانوس (Herr von Lucanus) المصدر نفسه : von Bülow, *Memoirs* ، ص ٢٥٦ •

(٣) مجموعة « خطابات القيصر » وليم الثانى ، ص ٣٢١ :
William II, Emperor, *The Kaiser's Epeaches,* translated into English by W. von Schierbrand (New York and London, 1903), p. 321.

غير ان كل فرد حصل على نسخة منها ، وساد الضحك بين الناس على حساب القيصر »[٤] . اما جريدة التايمس اللندنية فانها نشرت اربع مقالات لمراسلها الخاص مع الركب الامبراطورى ، ورد فى الرابعة منها هذا التعليق على التصريح الدمشقى المعهود : « وهنا نجد عاهل المانيا المسيحية ، الذى وعظ قبل اسبوع واحد فقط من محراب كنيسة بروتستانتية ثم رفع علمه فوق جبل صهيون رمزا لحمايته الكثلكة الالمانية ، نجده الان يتعهد علنا بالصداقة الابدية لخليفة المسلمين « وللثلثمائة مليون محمدى » الذين يعترفون له بالسيادة »[٥] . وعلى هذا النحو المدسوس جاء الطعن بمواقف القيصر التى لم يكن صدقها فى هذه القضية بالذات يسمح بطعن صريح معقول :

فبالنسبة للقيصر ، على الاقل ، لم يكن هنالك على ما يبدو فى زيارته أى داع الى المواربة ، أو حتى الى الكتمان . ولم يكن ثمة بطبيعة الحال ما يحول دون اعتباره نفسه حامى المسيحيين الالمان ، واحتفاظه مع ذلك بالصداقة للمسلمين . كما وأنه لم ير بأسا في الحصول على فوائد اقتصادية في الدولة العثمانية ، ما دامت هذه الفوائد تأتى عن طريق التفاهم والصداقة . وعلى هذا نجده يسمح بأن يكون فى حاشيته مراسل كبرى الجرائد البريطانية ، وكذلك رجلين على الاقل من ابرز البريطانيين . ولقد نشر بعدئذ أحد هذين الرجلين ، وهو السر تريلور (Sir W.P. Treloar) مذكراته باحدى وثلاثين صفحة تحت عنوان « مع القيصر في بلاد الشرق »[٦] .

---

(٤) Dearborn, F. (translator), *The All-Highest Goes to Jerusalem* (New York, 1918).

(٥) *The* [Lonon] *Times*, November 23, 1898, p. 8. See also Lewin, E., *The German Road to the East* (London, 1916), pp. 100-101.

(٦) Treloar, Sir W.P., *With the Kaiser in the East* (London, 1915): First published in 1898:

وفى الصفحة (٧) من الطبعة الاخيرة يقول السر تريلور : « انه بفضل صديقى القديم جون م. كوك (J.M. Cook) دعيت للذهاب معه ومع الامبراطور والامبراطورة فى زيارتهم لفلسطين وسوريا » . وهذا البريطانى الآخر (وهو بن توماس كوك الشهير) كان حسب قاموس الاعلام البريطانيين (Dictionary of National Biography) هو الذى « اعد ترتيبات سفر الامبراطور الى البلاد المقدسة عام ١٨٩٨ » .

ولقد نجحت الزيارة منذ يومها ، فاستمر النجاح • وفى هذا الصدد يقول الفون بيلو (von Bülow) متأملا فى ذكريات الحادث : « اننى رحلت عن تركيا مقتنعا بحصولنا هناك على مجال واسع للحركة الاقتصادية ، وكذلك على صديق شجاع فى الملمات »[٧] ، وكان لمشروع سكة حديد بغداد المستند الى تلك الزيارة اهمية قصوى ، سنأتى فى (القسم الثانى) على ذكر ما يخص موضوعنا منها • اما الصداقة التى نشأت حينذاك بين الطرفين فقد استمرت دونما وهن فى ايام السلم والحرب ، وكان لثبوتها المستمر اخطر العواقب •

الجامعة الاسلامية

ولقد كانت حركة الجامعة الاسلامية من العوامل الاساسية فى تقوية أواصر الصداقة بين تركيا التى اخذت على عاتقها رعاية هذه الحركة ، والمانيا التى أيدتها وتمنت لها النجاح • وكانت لهذا المنحى علاقة وثيقة بالخلافة الاسلامية التى انتقلت من العباسيين الى العثمانيين منذ زمن السلطان سليم الاول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠)[٨] • فازداد بعدئذ الاهتمام بها منذ زمن السلطان عبدالحميد الثانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) حتى الحرب العالمية الاولى ، لا من اجل وحدة المسلمين ورفعتهم فحسب ، بل ومن اجل دعم امبراطورية امست مزعزعة الاركان • أما التآلف بين الخلافة والجامعة الاسلامية فكان هو المظهر المعتاد ، وكان الفصل بينهما من قبيل الشاذ عن المألوف •

وهنا يجدر بنا ان نتذكر الاسس والقضايا الدينية التى تجمع بين المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها على ممر العصور • فالكل يعتقد بالله

---

(٧) Bülow, *op. cit.*, p. 248.

(٨) عندما سقطت الخلافة العباسية فى بغداد سنة ١٢٥٨ ، التجأ أحد افراد هذه السلالة الى مصر واصبح يعرف بالخليفة الحاكم بامر الله • فاستمرت الخلافة العباسية هنا متمعة بالاسم والمظاهر الخاصة بهذا المقام ، بينما كانت الحكومة فعلا فى ايدى المماليك • وظلت الحال كذلك حتى افتتح السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ وتسلم الخلافة (كما يقال) من المتوكل على الله ، فكانت على هذا الاساس بداية دعوى الخلافة العثمانية •

واحد هو الله ، وبمحمد خاتم الانبياء والمرسلين ، وبالقرآن كلام الله .
والقرآن محفوظ لديهم بصيغة واحدة منذ صدر الاسلام . وهم جميعا
مؤمنون بما يترتب على كل مسلم ومسلمة من فروض الصوم ، والصلاة ،
والحج ، والزكاة[٩] . ولهم جميعا شهر رمضان هو شهر الصيام ، كما
وانهم يتجهون وجهة واحدة ، الى الكعبة ، فى اثناء الصلاة . وفى العاشر
من ذى الحجة ، ثم فى بداية شوال ، يبدأ عيد الاضحى اولا ، وعيد الفطر
ثانيا ، لجميع المسلمين فى شتى ارجاء العالم .

ولم يقتصر هدف الجامعة الاسلامية على اذكاء شعور المسلمين بأسس
وحدتهم الدينية ، بل تناول ايضا اذكاء شعورهم بضرورة الاصلاح الدينى
والاجتماعى ودفعهم الى التعاون الوثيق فيما بينهم للتغلب على ما اصابهم من
سيطرة اجنبية عاتية . ولقد كانت مجلة (المنار) الشهرية ، التى اصدرها
رشيد رضا فى القاهرة منذ **١٨٩٨** هى الناطق الامثل باسم هذه الحركة التى
تجد الكثير عنها فيما ظهر على صفحات المجلة من مقالات خاصة وبحوث
مترجمة أو ملخصة . وكان عبدالرحمن الكواكبى (المتوفى سنة **١٩٠٢**)
من ابرز دعاة الحركة وان لم يكن على وئام مع السلطان الذى حال دون
ما اراده من عقد مؤتمر اسلامى فى مكة لتلك الغاية .

اما جمال الدين الافغانى (**١٨٣٨ – ١٨٩٦**) ، وهو اكبر دعاة الجامعة
الاسلامية ، فانه كان على وئام مع السلطان ، وكان يعمل لتلك الغاية فى شتى
اقطار الشرق الاوسط ، واحيانا فى اوربا حيث اصدر فى باريس جريدته
المعروفة باسم (العروة الوثقى) . وفى هذه الصحيفة ظهرت ، ابتداء من
سنة **١٨٨٤** ، مقالات محمد عبده ، الرائد الاخر فى الدعوة الى الاصلاح[١٠] .

---

(٩) راجع مثلا كتاب « الوعظ الاسلامى » لمؤلفه ت.و. آرنولد :

Sir T.W. Arnold, *The Preaching of Islam : a history of the propagation of the Moslem faith* (Westminster, Constable, 1899) or later editions.

(١٠) *Mohammedan History*, H.M. Stationery Office (Handbook, No. 57: official), Section on the "Pan-Islamic movement," pp. 40-64.

ولقد رعى السلطان عبدالحميد هذه الحركة منذ اوائل عهده ، ولا سيما بعد ان اتضحت فى سنة **١٨٧٨** حاجته القصوى لدعم نفوذه . ففى تلك السنة ، كما نعلم ، استبدلت معاهدة سان ستفانو بمعاهدة برلين ، وتبينت هيمنة روسيا والدول الغربية على مصير الدولة العثمانية . وكانت بريطانيا ، وليست المانيا ، هى التى حصلت حينذاك على جزء من هذه الدولة .

فتلك هى الظروف التى احاطت باعلان القيصر عن صداقته الابدية للسلطان « وللثلثمائة مليون مسلم المنتشرين فى ارجاء الارض ، والذين يبجلونه خليفة عليهم » . يضاف الى ذلك ان المانيا لم تكن تسيطر على مناطق اسلامية ، مما جعل كفتها ترجح على بريطانيا فى استمالة تركيا . فلم يعد ، والحالة هذه ، فى استطاعة بريطانيا ان تتغلب على ذلك التفوق الجوهرى بمثل ما حدث فى لندن سنة **١٩٠٣** من تأسيس جمعية للدعوة الى الجامعة الاسلامية ، او بغير ذلك من ملامح الصداقة .

فلما تغلبت جمعية الاتحاد والترقى على السلطان عبدالحميد سنة **١٩٠٨** ، بدا وكأن تبدلا جوهريا قد طرأ على الموقف . وحينئذ تولى زمام الامور قادة الاتحاديين ، وهم ممن لم تكن تهمهم قضايا الجامعة الاسلامية ، لا بل وكانوا دنيويين « وماسونيين دون استثناء » . غير أنه لم يلبث ان حدث الغزو الايطالى لطرابلس الغرب سنة **١٩١١** حتى تبينت لهؤلاء الاتحاديين اهمية الرابطة الدينية . فهنالك قام عرب طرابلس في وجه الغزاة ودافعوا عن حوزتهم دفاعا مجيدا ، مؤازرين في ذلك حكامهم الاتراك المسلمين « وانهالت على تركيا فى هذه الحرب مساعدات مادية من الجمعيات الاسلامية فى مختلف ارجاء العالم حتى بلغت حدا لم يكن فى الحسبان »[١١] .

وعندئذ عادت تركيا الى رعاية الحركة الاسلامية فى عهد السلطان محمد الخامس (**١٩٠٩ – ١٩١٨**) الذى بقيت له المنزلة الاسمية العليا فى الدولة ، وظل بطبيعة الحال متمتعا بلقب خليفة المسلمين . ولقد حاولت جمعية الاتحاد والترقى ان توفق بين المبدأ المستحدث فى القومية التركية من

---

(١١) *Ibid*, pp. 57-58.

جهة ، والمبادىء العريقة فى الجامعة الاسلامية من جهة اخرى ، فاتخذت لذلك قرارا في تشرين الاول سنة ١٩١١ ورد فيه ما يلى : « يجب ان تكون طبيعة الامبراطورية اسلامية ، وان تحترم المؤسسات والتقاليد الدينية ... ان نشر اللغة التركية هو الوسيلة المثلى لتعزيز السيادة الاسلامية ، ودمج العناصر الاخرى »[١٢] . وهنا يجدر بنا ان نتذكر ما حدث بعدئذ من دخول تركيا الحرب الاولى الى جانب الالمان ، واعلانها الجهاد المقدس على بريطانيا وحلفائها باعتبارهم مضطهدى العالم الاسلامى . ولسوف يأتى فى حينه ذكر هذه المرحلة المتأخرة فى تطورات الاحداث .

فلما لم يبق هنالك غموض فى مغزى الجامعـة الاسـلامية بالنسبة لبريطانيا من جهة والمانيا من جهة اخرى شرع بعض مشاهير العلماء من كلا الطرفين تفسير الحركة وتعليلها ، كل حسبما يتفـق وسياسة بلاده الخارجية . (وانه لمؤسف حقا ، كما يجدر بنا ان نلاحظ عرضا ، ان نجد من قادة الفكر انقيادا لاهواء سياسات معاصرة ، كما لا يزال يبدو حتى فى الانتاج الفكرى لأرقى البلدان) . ومن ابرز الامثـلة على ما نحن فى صدده ، تلك المحاضرة التى القاها المستشرق البريطانى الاستاذ مرغوليوث (D.S. Margoliouth) فى الجمعية الآسيوية فى لندن سنة ١٩١٢ ، تحت عنوان الجامعة الاسلامية ، محاولا فيها اظهار العالم الاسلامى بانه مجبول على الانحطاط والتبعية . فهو يقول عن ثقة مريبة : « ان الاقطار التى يسود فيها الاسلام ، أو انه كان سائدا فيها يوما ما ، يجب ان تؤخذ نموذجا لعدم الكفاءة السياسية ، كقوة سياسية . وان البلاد العربية ومعها مراكش حيث الوضع على هذه الشاكلة ، ذهبت مثلا لسوء الحكم ، وانعدام الامن على الارواح والاموال ، ومثلا على الجمود ان لم تكن مثلا على التقهقر » . ثم فى أواخر المحاضرة نجد المستشرق المعروف يتحف سامعيه ومن بعدهم جمهرة القراء بما لا يسنده معقول او منقول : « فالدين الاسلامى » حسب

---

(١٢) المصدر نفسه ، ص (٨٨–٨٩) : *Ibid*, 88-89 . والقسم المتعلق بالحركة الطورانية فى المصدر نفسه ، ص ٧٥–٩٩ .

دعواه « ينتشر فى البلاد التى تتمتع بالحماية الاوربية اسرع من انتشاره فى البلاد التى تفتقر الى تلك الحماية »[١٣] ٠

وهذا ، لعمر الحق ، يناقض احدى اوليات التاريخ ٠ فالدين الاسلامى بلغ اقصى مداه انتشارا فى ارجاء المعمورة منذ ان لم تكن « الحماية الاوربية » شيئا مذكورا ٠ اما فى صدد عبارته الاخرى ، فان الدور المظلم الذى كان العالم الاسلامى فيه على ايام مارغوليوث لم يكن بالمظهر الثابت لهذا العالم الذى ازدهرت فيه المدنية حينما كانت اوربا تتخبط فى عصورها المظلمة ٠ ولكن بقطع النظر عن تحريفه المنطق والتاريخ فان ما جاء به العلامة البريطانى كان منسجما مع سياسة بلاده الخارجية ٠

وكان للعلماء الالمان موقف يختلف عن ذلك ٠ فهم لم يتدخلوا فيما يمس طبيعة المسلمين وديانتهم ، ولم يسلكوا سبلا ملتوية فى البحث ٠ وكان جل همهم موجها الى ايضاح الصداقة الالمانية للعالم الاسلامي ، والتأكيد على انه لم يكن فى وسع دولة مثل انكلترا او فرنسا ان تخلص في صداقتها اليه ٠ وفي هذا الصدد اوضح جروتي (Grothe) في رسالة عن « المانيا وتركيا والاسلام » ، ان المانيا وحدها من بين الدول الغربية الكبرى هى التى لم تكن فى نزاع مع المسلمين ، لا بل وكانت محتفظة معهم بعلاقات حسنة ايضا ٠ وأشار بعدئذ بصراحة الى ان الاحتفاظ بهذه العلاقات الحسنة لم يكن ناجما عن وشائج دينية ، وانما عن مصالح عملية تهم الطرفين[١٤] ٠

والى مثل هذا اشار العالم الالمانى كارل بكر (Carl Becker) فى رسالة امتازت بالتركيز والشمول ، وكانت بعنوان « المانيا والاسلام » ، حيث تناول المؤلف فيما يناهز الاثنتى عشر صفحة الاولى مرد الصداقة الالمانية ـ التركية

---

(١٣) د٠س٠ مرغوليوث ، « الجامعة الاسلامية » ، محاضرة فى جمعية آسيا المركزية (لندن ، ١٩١٢) ص ٦ و ١٦ :
Margoliouth, D.S., *Pan-Islamism,*
Proceedings of the Central Asian Society (London, 1912) pp. 6 and 16.

(١٤) Grothe, Hugo, *Deutschland, die Türkei, und der Islam*
(Zwischen Krieg und Frieden, No. 4, Leipzig, 1914), pp. 39-41.

الى عوامل تاريخية وعلاقات طبيعية • وبين الى جانب ذلك مبلغ اختلاف انكلترا عن المانيا التى لم « تسلب » يوما ما أى جزء من الامبراطورية العثمانية • وتطرق من بعد ذلك الى المركز الممتاز الذى تمتعت به تركيا فى العالم الاسلامى ، ثم عاد الى ذكر العلاقات الالمانية بهذا العالم ، مؤكدا انها علاقات اقتصادية وثقافية ، تختلف جوهريا عما كان لبريطانيا وفرنسا هنالك من سيطرة ونفوذ(١٥) •

سكة حديد الحجاز

وكان من ابرز مظاهر التعاون بين المانيا وتركيا انشاء سكة حديد الحجاز ، ذلك المشروع المهم الذى استغرق انشاؤه زهاء ثمانية اعوام (١٩٠١ - ١٩٠٨) ، وكان عزت باشا ، وهو السكرتير الثانى للسلطان عبدالحميد ، فى مقدمة الداعين اليه • « ولعل ابتكار مشروع سكة حديد الحجاز » على حدل قول احد المطلعين ، « كان احسن ما بدر منه في ميدان الاعمال • وسواء نشأ الاقتراح من عنده أم من عند الفون دير جولتز باشا (von der Goltz Pasha) فان عزت هو الذى ادخل فى روع السلطان امكان تقوية الخلافة بهذا المشروع الذى يشد من قبضته على الاماكن المقدسة ويعززها باذكاء شعور المسلمين فى مختلف ارجاء العالم »(١٦) فاذا ما اسهم الفون دير جولتز بنصيب فى ابتكار المشروع ، فان القيام بانجازه يعود الى المهندسين الالمان منذ البداية حتى النهاية • واخيرا كان الاحتفال بافتتاح السكة ما بين دمشق والمدينة المنورة فى اليوم الاول من ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٨ ، وهذه مسافة تناهز (٨٢٠) ميلا ، وقف الخط عندها على بعد (٢٨٠) ميلا من مكة المكرمة(١٧) •

---

(١٥) Decker, C.H., *Deutschland und der Islam* (Stuttgart, 1914).

(١٦) تقرير المستر (السر منذ ١٩١٩) هارى لام ، المترجم الاول فى السفارة البريطانية فى القسطنطينية • راجع النص فيما يلى :
British Docunents on the Origins of the War, 1898-1914, vol. V, p. 8.

(١٧) *Ibid*, (British Documents), V, p. 283; *Encyclopedia Britannica*, 11th ed., under: Hejaz Railway.

ولقد كانت سكة حديد الحجاز ذا تفائدة استراتيجية قيمة للحكومة المركزية • فالمسافة التى كانت تقطعها القوافل بما يناهز الاربعين يوما ، والبواخر باثنتى عشر يوما تقريبا اصبح القطار يجتازها فى خمسة ايام على اراضى جميعها عثمانية ، متجنبا قناة السويس • وفضلا عن ذلك فقد كانت فائدة الخط عظيمة للحجاج الذين يقصدون مكة والمدينة ، وبذا تأيدت قضية الجامعة الاسلامية • ومما يجلب الانتباه بصفة خاصة : « ان ما يربو على ثلث مجموع النفقات البالغة زهاء ثلاثة ملايين باونا استرلينيا جاءت على هيئة تبرعات من مختلف ارجاء العالم الاسلامى »[١٨] •

تباين الدبلوماسيتين الالمانية والبريطانية

وعلى نقيض سياسة بريطانيا الخارجية كانت الدبلوماسية الالمانية فى التزامها جانب الدولة العثمانية • فلقد انتقدت بريطانيا وحلفاؤها بكل شدة وعلانية سياسة السلطان القاسية تجاه الارمن • ولكنها استساغت من الجهة الاخرى قيام اليونان بالحرب ضد تركيا ، ثم « تدخلت » كما يعترف تقرير دبلوماسى بريطانى « للحيلولة دون اقتطاف تركيا ثمار انتصاراتها العسكرية ونيل اليونان العقاب على سياستها العدائية • وبعد هذا بفترة وجيزة أقرت استقلال كريت الذاتى »[١٩] • فاذا لم يكن فى وسع الامبراطور الالمانى درء هذه الحوادث الدولية ، فانه قام بزيارته الشهيرة لتركيا سنة **١٨٩٨** ، « وعمل جهد المستطاع » على حد قول التقرير نفسه « لتبرئة ساحة السلطان امام اوربا » • واستمرت المانيا بعدئذ فى دعم كيان الامبراطورية العثمانية •

ولقد مرت فترة من الزمن داعب فيها خيال البريطانيين شيء من الامل فى حدوث تباعد بين تركيا والمانيا ، على اثر سقوط عبدالحميد سنة **١٩٠٨ ـ ١٩٠٩** • فالاطاحة بصديق القيصر ، وارتياب قادة تركيا الفتاة من ميل المانيا نحو السلطان المخلوع ، وما سبق لهؤلاء القادة من صلة بالحلفاء ،

---

(١٨) Antonius, George, *The Arab Awakening* (London, 1945), p. 74.

(١٩) Annual report for Turkey, 1907: *British Documents*, V, p. 43.

بدت مجتمعة وكأنها تشير الى تبدل خطير • وعندئذ خامرت الدبلوماسية البريطانية نشوة الامل ، واستند بعدئذ بعض المؤلفين الى مثل هذه النظرة السطحية فى تقديرهم الوضع الجديد • غير ان ما حدث فعلا لم يتجاوز نوعا من الغموض في سياسة تركيا الخارجيـة ابـان تعـزيز كيان الثورة خلال الاشهر الاولى ، مما فسح المجال لتلك الآمال • هذا مع العلم بانه لم يحدث فى الوقت ذاته أى تباعد بين تركيا والمانيا • وما ان استتب الامر للاتحاديين حتى اتضحت الصداقة المعهودة بين الطرفين[٢٠] •

واستمر التباين بعدئذ بين السياستين الالمانية والبريطانية فى موقفهما من القضايا العثمانية • ففى سنة **١٩٠٨** مثلا أشار خبير بريطانى الى موقف بلاده قائلا : « ان سياستنا فى تركيا ، لو جاز لنا ان ندعوها سياسة ، كانت خلال السنوات القليلة الماضية وستبقى بعض الوقت تطلب المستحيل • فهى ترمى الى انماء مصالحنا التجارية بينما تسلك (فى مقدونيا ، وارمينيا ، والحدود التركية الفارسية ، وغير ذلك) سبيلا يعتبره السلطان بالغ العداوة ميلا ومآلا »[٢١] • ولم تتبدل الحال بعدئذ ، ان لم تزدد سوء على اثر الحرب البلقانية سنة **١٩١٢ – ١٩١٣** • ذلك ان المؤتمر الدولى الذى تعهدته بريطانيا العظمى وانعقد فى لندن قبيل اندلاع هذه الحرب ، كان قد اقر منع أى تبدل اقليمى يحدث بواسطة القوة فى البلقان ، وكانت تركيا قد استبشرت

---

(٢٠) ولقد أيد هذه الفكرة الدكتور أرنست ياك Dr. Ernest Jackh فى اثناء مقابلة اجراها معه مؤلف الكتاب الذى بين ايدينا • والدكتور ياك فى طليعة الالمان الذين عملوا منذ بداية حكم تركيا الفتاة فى سبيل تعزيز الصداقة الالمانية – التركية ، وكانت له مع بعض زعماء ذلك العهد التركى صلة وثيقة • كان فى الثمانين من العمر عندما التقى به المؤلف فى نيويورك سنة ١٩٥٥ ، حيث كان يعمل مستشارا فى دائرة الشرق الادنى والاوسط فى جامعة كولمبيا •

(٢١) رسالة خاصة ، بتاريخ ١٢ نيسان – ابريل سنة ١٩٠٨ من فتزموريس G.H. Fitzmoris المترجم الاول فى السفارة البريطانية فى القسطنطينية الى تايرل W.G. Tyrell سكرتير وزير الخارجية السر أدوارد غراى • راجع النص فيما يلى : *British Documents*, V, p. 247

بهذا القرار المتخذ فى ٧ تشرين الثانى سنة ١٩١٢ • ولكن لم يلبث ان خاب ظنها فيه •

فالدول البلقانية المتحالفة لم تأبه بقرار مؤتمر لندن ، لا بل واسرعت فى القيام بشن هجوم كاسح على تركيا ، وانتصرت عليها فى مختلف الجهات ، واستولت على ما استطاعت الاستيلاء عليه من الاراضى العثمانية • وعندئذ بادرت بريطانيا الى الاعتراف بهذه الانتصارات على اساس الاعتراف بالامر الواقع ، وهى « لم تشأ ان تعترض التبدلات الاقليمية » التى حدثت من جراء الحرب(٢٢) • اما المانيا فقد كان استياؤها شديدا من هذه النتيجة ، وكان خبر اندحار تركيا فى كيرك ـ كليزه (Kirk-Kilisse) قد « اذهل » فى حينه وزير خارجية المانيا كيدرلن ـ فيختر (Kiderlen-Wächter) • فلما اعتزمت تركيا على اثر ذلك ان تستعيد الحرب ، املا فى استرجاع شىء مما خسرته ، تأهبت روسيا للهجوم عليها عبر حدود القفقاس اذا هى فعلت ذلك • وعندئذ نشأت ازمة دولية خطيرة ، لان « المانيا اقدمت حالا على ابلاغ روسيا بان الهجوم على تركيا يعرض السلم الاوربى للخطر » • وهكذا عدلت روسيا عن موقفها ، فزالت الازمة الدولية ، وارتاح الاتحاديون لفسح المجال امام محاولتهم الحربية ـ ولو انها لم تسعفهم باكثر من استرجاع ادرنه من بين المناطق العديدة التى كانوا قد خسروها قبيل ذلك •

وكان لالمانيا ، بطبيعة الحال ، مواقف اخرى فى سبيل تأييد نفوذ تركيا والمحافظة على سلامة بلادها • ففى احد ايام سنة ١٩١٣ اعرب السفير الالمانى فى لندن للسر ادوارد غراى ، وزير خارجية بريطانيا ، عن قلق برلين حول سلامة تركيا الاسيوية ، وأكد رغبة حكومته « فى ان ترى تركيا محتفظة بممتلكاتها »(٢٣) • وبعد ذلك بزمن يسير ذكر القائم بالاعمال البريطانى فى القسطنطينية ، فى برقية بعث بها الى السر ادوارد غراى ، ان السفير الالمانى هناك صرح « على وجه التأكيد بانه سيقاوم أى اقتراح يرمى

---

(٢٢) Gooch, G.P., *History of Modern Europe* (New York, 1924), p. 505; see also chapter 15 on "Balkan wars," especially pp. 504-510.

(٢٣) *British Documents*, X, pt. 1, 444-5.

الى جعل المناطق الارمنية فى مركز ممتاز • ولذا فقد اصر على اتخاذ المشروع التركى للاصلاحات فى جميع الامبراطورية اساسا لمباحثاتنا هنا »[٢٤] • وصفوة القول ان مواقف الدبلوماسية الالمانية من تركيا كانت منسجمة مع مقتضيات الصداقة المعهودة بين الدولتين •

ولقد كان لهذا الانسجام بين السياسة والصداقة شأن كبير • فباعتبارها المنافس الاول لبريطانيا فى الدولة العثمانية ، اصبحت المانيا هى الرابحة بكل وضوح ، ولها اصبح محل الحظوة بين الدول الاجنبية لدى الباب العالى بدلا من بريطانيا • هذا مع العلم بان الحكومة التركية ظلت تعنى بشؤون التمثيل البريطانى فى بلادها وتهتم بقضاياه الدبلوماسية ، كما كانت تفعل منذ زمن بعيد • غير ان الالمان هم الذين حصلوا بالفعل على حصة الاسد • فكان لهم منذ نهاية القرن التاسع عشر « احتكار جميع طلبات العتاد للجيش التركى ، والمركز الممتاز فى جميع الامتيازات الصناعية والتجارية »[٢٥] • واصبح لهم فى تركيا حليف منتظر ، احتفظوا معه بمصالح تهم الطرفين •

والآن يجدر بنا ان نعلم بانه كان للعراق فى ذلك كله نصيب غير قليل • فباعتبار هذه البلاد جزء من الامبراطورية العثمانية ، فانها كانت بطبيعة الحال ضمن سياسة الحكومة المركزية ومشاريعها • وكانت هى جزء من تلك الصورة التى تألفت من شتى العلاقات التركية الالمانية ، بما فى ذلك شعورها بصداقة المانيا للعالم الاسلامى ومشاركتها فى تقديم العون المالى لانشاء سكة حديد الحجاز ، ونصيبها من التجارة الالمانية عن طريق الخليج ، وكذلك نصيبها فى العتاد الالمانى ، واكثر من ذلك فى ميدان المشاريع الالمانية • واخيرا كما نعلم ، دخل ضباط العراق وجنوده الى جانب الالمان فى الحرب العالمية الاولى ضد بريطانيا العظمى وحلفائها •

ان تلك العلاقات التركية ـ الالمانية كانت مما يدعو الى قلق بريطانيا ويستثير ارتيابها ، غير ان القضية الاساسية التى اشتدت حولها المنافسة البريطانية ـ الالمانية تمثلت فيما يعرف بمشروع سكة حديد بغداد •

---

(٢٤) المصدر نفسه ، الجزء العاشر ، ص (٤٨٠) •
(٢٥) المصدر نفسه ، الجزء الخامس ، ص (٤٣) •

٢ ـ مشكلة سكة حديد بغداد

ملاحظة عامة وفكرة خاصة

المشروع الالمانى الذى نحن فى صدده انما هو من المواضيع التاريخية التى عرفت بغزارة موادها الاولية المتنوعة ، وكثرة ما ظهر عنها على صفحات الجرائد والمجلات من مقالات عابرة وبحوث اصيلة • وقد امتاز الموضوع فوق ذلك بما ظهر عنه من دراسات استقصائية جاءت فى اكثر من اطروحة واحدة لشهادة الدكتوراه • فلدينا اطروحة اليج (Ilitch) التى اجيزت سنة ١٩١٣ من جامعة لياج (Liége) فى بلجيكا • واطروحة ايرل (Earle) الممتاز التى ظهرت سنة ١٩٢٣ باشراف جامعة كولمبيا فى الولايات المتحدة • وكان المشروع الالمانى برمته مدار البحث فى كل منهما ، وخاصة فى الثانية التى افادت من وثائق مهمة كانت قد ظهرت حديثا للعيان • ولدينا ايضا اطروحة بترفيلد (Butterfield) التى ظهرت سنة ١٩٣٢ باشراف جامعة جوتنجن (Göttingen) الالمانية ، وكان عنوانها « دبلوماسية سكة حديد بغداد » • واخيرا اشتهرت فى المحافل العلمية اطروحة جابمان (Chapman) التى صدرت سنة ١٩٤٨ باشراف جامعة ييل الامريكية ، وكانت بعنوان « بريطانيا العظمى وسكة حديد بغداد »[٢٦] • وهذه الاخيرة افادت كثيرا من مجموعة الوثائق البريطانية عن منشأ الحرب العالمية الاولى ، وهى المجموعة التى ظهرت للعيان منذ سنة ١٩٣٨ بعد ان كانت محتوياتها الغزيرة سرا مكتوما •

والى جانب هذه وغيرها من البحوث القيمة ، فاننا لم نر مناصا من القيام بشىء من البحث المستقل ، واتخاذ موقف خاص من الموضوع • ولعل نظرة الى فحوى كتاب جابمان تكفى لايضاح ما نقصد فى هذا المجال • فالذى يجلب الانتباه فى الكتاب شهرته العلمية ، ومنزلة جامعة ييل التى اجازته ،

---

(٢٦) راجع العناوين الكاملة أدناه ، فى نهاية الكتاب تحت عنوان « نخبة المصادر » • ويمكن الاطلاع على غيرها من البحوث الاصيلة والمراجع المهمة فى قائمة مصادر جابمان (Chapman) البالغة اسماؤها عشرين صفحة (٢١٥ ـ ٢٣٥) •

وكونه من قبيل مسك الختام فى موضوع بريطانيا وسكة حديد بغداد ، الموضوع الذى هو فى الواقع نظير ما نتصدى لبحثه الآن • ومع ذلك فانه لا يسعنا مثلا ان نستسيغ ما ورد فى مقدمة الكتاب من دعوى اساسية مفادها « ان سكة حديد بغداد لم تكن فى الحقيقة من المشاكل الكبرى لما قبل الحرب » • ولا ان نقر تعليل هذه الدعوى بما حدث من أن السكة « كانت من المواضيع القليلة التى تناولها الوفاق البريطانى ـ الالمانى » • ولا ان نقبل دون تحفظ ما تقول به الفكرة هذه من دحض « الدعوى القديمة التى اعتبرت سكة حديد بغداد سببا مهما من اسباب الحرب العالمية الاولى » •

ان هذا يفتقر الى التعمق فى مفاهيم الصلة ما بين الاسباب والنتائج ، ويغالي فى تقدير معنى المصالحات الدولية • اذ من المعلوم ان الريبة ، لا بل وحتى المماحكة والمناورات تستمر احيانا بين الدول فى القضايا التى يتم الاتفاق عليها حسب الاصول • فالوفاق المقصود ، وهو الذى حصل بين بريطانيا والمانيا عشية اعلان الحرب سنة ١٩١٤ ، اشار بحكم وقته ومضمونه الى ان سكة حديد بغداد كانت « فى الحقيقة من المشاكل الكبرى لما قبل الحرب » • والمشكلة باعتبارها سببا من اسباب الحرب العالمية الاولى لم تتأثر جذريا بتلك الصفقة التى كانت بمثابة وقفة فى ميدان الصراع بين طموح الدولتين وسياستهما العالميتين • ان المرء لا يزال يفيد من كتاب موريس (J. Morris) الذى صدر منذ سنة ١٩١٨ بعنوان « الحرب وسكة حديد بغداد » • يضاف الى ذلك خلافنا مع ما ورد فى مقدمة جابمان نفسها من « ان الرأى العام البريطانى لعب دورا طفيفا فى قضية سكة حديد بغداد باستثناء مرة واحدة » • ولدينا فيما ذكرناه آنفا عن المصالح البريطانية والالمانية الى جانب ما سنذكره من الآن فصاعدا ، ما يكفى لايضاح هذه النقاط وغيرها من جوانب الموضوع[٢٧] •

---

(٢٧) راجع مثلا علاقة الرأى العام البريطانى بقضية سكة حديد بغداد ، أدناه ، ص (٢٤٧ـ٢٤٩) • وعن تسوية المشكلة ظاهريا بين بريطانيا والمانيا ، وتفاقم الارتياب بينهما فى الوقت ذاته ، راجع أدناه ، ص (٢٦٣ ـ ٢٧٢) •

ضياع الفرص البريطانية وأثر ذلك

ومن قبل ان تظهر بوادر المشروع الالمانى بزمن غير يسير ، اظهر البريطانيون رغبة ملحة فى القيام بانشاء سكة حديد تصل ما بين البحر المتوسط والخليج العربى . وفى سبيل تحقيق ذلك ثابروا سنوات عديدة ، كما نعلم ودرسوا طبيعة الارض وتعيين الاتجاهات الملائمة لمرور السكة . وكذلك أشاروا عن ثقة وبشىء من التفصيل الى شتّى الفوائد المتوخاة من مشروعهم الذى لم يقصدوا منه ايجاد طريق مختصر للمواصلات بين الشرق والغرب فحسب ، بل توقعوا منه فوائد عسكرية ، واخرى اقتصادية يشمل نفعها بلاد الرافدين . ولقد كان اصحاب المشروع من وجهاء البريطانيين ، الذين امتازوا بالجد والمهارة في اسناد دعواهم الى دراسات عملية ، وايضاحها بواسطة الكتب والمقالات والمحاضرات . كما وانهم قاموا بعرض آرائهم وتحرياتهم على لجان برلمانية ، فقامت هذه بتدوينها فى تقارير برلمانية ذات اهمية بالغة .

ذلك ما جرى فى صدد مشروع « سكة حديد الفرات » ، الذى تحدثنا عنه فى محل آخر بشىء من التفصيل[٢٨] . فهنالك اوضحنا كيف بدأ السعى لتحقيقه سنة **١٨٥٧** واستمرت الرغبة فى ذلك طوال عقدين مثبطين ، ثم اتخذت الدعوة اليه طورا فعالا سنة **١٨٧٧** ، فكانت النتيجة اندثار المشروع لان الحكومة البريطانية احجمت عن مؤازرته . وهنا يجدر بنا ان نتذكر ما ورد فى رسالة بتاريخ **٣** حزيران **١٨٥٧** ، كان قد بعث بها كبير دعاة المشروع السر و.ب آندرو (Sir W.P. Andrew) الى رئيس الوزراء بالمرستون ، يحذره فيها بقوله : « ان الطريق الفراتى سيذهب حتما الى ايد اخرى اذا احجمت بريطانيا عن اخذ المهمة على عاتقها » . وهذا « الاعتقاد السائد » منذ ذلك الوقت المبكر استقر بمرور الزمن حتى تحققت النبوءة بظهور سكة حديد بغداد .

ان تلك المساعى البريطانية وما يماثلها مما سنذكره الآن كانت ذات

---

(٢٨) أعلاه ، ص (١٦٤) وما بعدها .

علاقة وثيقة بخطورة المشكلة التى نجمت عن مشروع سكة حديد بغداد ـ المشروع الذى نجح حيث اخفقت مساعى البريطانيين .

وعلى اثر فشل تلك المحاولة لانشاء سكة حديد فراتية تقدم القائد كامرون (Commander L. Cameron) سنة ١٨٨٠ بمشروع « سكة حديد الهند ـ البحر المتوسط » التىارادها ان تبدأ من الساحل في طرابلس الشام ، وتمتد فى اتجاه الشمال الشرقى الى مدينة حلب ، ومن بعدها الى اورفه وماردين ، ومن ثم تنحرف فى اتجاه الجنوب الشرقى بمحاذاة ضفة دجلة الغربية الى الموصل ، ومنها الى بغداد حيث تعبر النهر وتمتد بمحاذاة ضفته الشرقية الى الكوت ، ومن هنا تتجه شرقا الى مندلي ، ثم تجتاز الحدود الفارسية في اتجاه الاهواز ، وابوشهر . ولقد توصل كامرون الى اقتراحه هذا بعد دراسات عملية وتحريات عديدة ، قام بجمعها في رسالة حظيت باهتمام بالغ وتعقيبات ذات بال[٢٩] . وكان العقيد شامبين (Colonel B. Champain) من ابرز المشتركين فى تلك المناقشات التى استند فيها الى معلوماته الخاصة عن الطريق . وكانت الرسالة مزودة بخارطة للمقارنة بين الطريق المقترح والمشروع الفراتى السابق ، كما وانها ضمنت فى المتن وفى المناقشات تأكيدات على عظم اهمية الخط الذى يجتاز بلاد الرافدين . غير ان المشروع لم يكن باوفر حظا من سابقه الشهير ، فذهب مثله ادراج الرياح . وكان السبب فى ذلك الاخفاق يعود الى موقف الحكومة البريطانية التى لم تبال بما تم على ايدى مواطنيها من دراسات متقنة ، وما قدموه من اقتراحات وجيهة .

---

(٢٩) كامرون ، Commander L. Cameron ، « أسفاري في بلاد ما بين النهرين ، وخاصة بالنسبة لمشروع مقترح عن انشاء سكة حديد : الهند ـ البحر المتوسط » ، مع مناقشات وتعليقات على هذا البحث فى المجلة التالية :
The Journal of the United Service Institution (1880) XXIV, pp. 187-206 (London, 1880)

راجع أيضا مجلدى كتاب كامرون نفسه ، تحت عنوان طريقنا فى المستقبل الى الهند : *Our Future Highway to India,* 2 vols. (London, 1880)

واستمر الموقف كذلك حتى ظهور المشروع الالمانى الى حيز الوجود عند مطلع القرن العشرين ، فاستيقض المسؤولون وانتبهوا للامر ، ولكن بعد فوات الاوان . وعندئذ كان الندم على ما فات ، واتخاذ العبرة منه فى الوقوف بحزم تجاه سكة حديد بغداد . وفى غمرة المنافسة حول المشروع الالمانى سنة ١٩٠٤ أشار احد خبراء البريطانيين الى فرصهم الضائعة بقوله :

« ان بلادة رجال السياسة عندنا هى التى اوصلتنا الى هذا المأزق الحرج . وتلك هى البلادة التى حاول جسنى عبثا ان يؤثر فيها بكل ما له من عبقرية ، كما اخفق آندرو ان يؤثر فيها : بكل ما فى وسعه من مثابرة »[٣٠] .

ولم ينقطع البريطانيون عن دراسة الطريق حتى بعد ما تقدم الالمان فى انشاء طريقهم المعهود . غير ان هذه الدراسات المتأخرة كانت تتعلق عادة بالمشروع الالمانى نفسه ، باستثناء ماعرضه شارل بلاك (Charles Black) سنة ١٩٠٩ من خطة ترمى الى ربط دلتا النيل بدلتا الرافدين ، مجانفا فيها سكة حديد بغداد ، ومتجنبا الطرق المألوفة عبر الهلال الخصيب . فالسكة حسب اقتراحه الطريف تبدأ اما من بورت سعيد واما من الاسماعيلية وتمتد الى رأس خليج العقبة فى طريقها الى الجوف داخل شبه جزيرة العرب ، ومن ثم تصعد الهضبة فى اتجاه البصرة حيث يمتد فرع منها الى ميناء الكويت . ولقد كان تقديم الخطة فى رسالة محكمة الايضاح والتعليل ، مزودة بخارطة تشير الى امكان مد السكة بعدئذ من البصرة شرقا الى حوض نهر السند[٣١] . غير ان هذا المشروع لم يتحقق ايضا ، على الرغم من اتقانه وحماس صاحبه الذى حذر المسؤولين بقوله : « انه لمن أشد دواعى

---

(٣٠) العقيد بيكوت (Lieut. Col. H. Picot) ، « سكك الحديد فى غربي آسيا » ، كما نجدها في محاضر (Proceedings) جمعية آسيا المركزية الملكية لسنة ١٩٠٤ ، ص ١٤ :
Proceedings of the Royal Central Asian Society (London, 1904), p. 14.

(٣١) بلاك (C.E. Black) ، « سكة حديد من البحر المتوسط الى الهند » ، فى محاضر جمعية آسيا المركزية الملكية ، لسنة ١٩٠٩ ، ص (٢) و (٦) :
Proceedings of the Royal Central Asian Society, (London, 1909), e.g., pp. 2 and 6.

الاسف ان يتأخر العمل فى هذا الاتجاه الى ان تتمكن اقطار اخرى من مد شبكة خطوطها جنوبا وتأسيس مركز لها ونفوذ ، واكتساب حق مقصور عليها فى المنطقة التى لا ينازع احد الآن رجحان مصالحنا فيها » • ومما يجدر بالملاحظة فى هذا الصدد ، هو ان الامة العربية قد تفيد من النظر فى مثل هذا المشروع •

اما الدراسات البريطانية المتعلقة بسكة حديد بغداد ، فانها تناولت الطريق الذى تمر السكة به ، او الذى يجب ان تمر به عند اجتيازها البلاد التى « لم يكن احد ينازع رجحان مصالحهم فيها » • ولقد استندت دراسة كادو (Cadoux) الى رحلته التى قام بها سنة ١٩٠٣ فى جنوبى الفرات ، وتعلقت بالمنطقة المحصورة ما بين المسيب والناصرية ، وهى المنطقة التى أكد اهميتها وقال بضرورة مرور السكة فيها • وفى هذا الجزء من البلاد ، كما يجدر بنا ان تتذكر ، كان بعدئذ مرور الخط الحديدى الذى انشأه البريطانيون بين البصرة وبغداد ابان الحرب العالمية الاولى ، ثم اصبح ملكا للعراق •

ونظرا لاستمرار الاهتمام بالموضوع فقد ظهرت دراسة (كادو) لتلك الناحية الجنوبية في المجلة الجغرافية Geographical Journal سنة ١٩٠٦ • وكان فى السنة التالية ان ظهر بحث السر مارك سايكس (Sir Mark Sykes) فى المجلة نفسها ، وهو البحث الذى سبق وان القاه فى الجمعية الجغرافية الملكية تحت عنوان « اسفار فى شمالى بلاد الرافدين » • وقد ذكر سايكس رأيه في سكة حديد بغداد دون تعصب ، كما يقول ، « فيما لو قدر لهذه السكة أن تمر بأرض الجزيرة » • واعرب عن اعتقاده بان العقبات التى تنجم عن خطر القبائل المتاخمة ، وعن قلة الايدى العاملة ، سوف يمكن التغلب عليها بمرور الزمن عن طريق انشاء السكة نفسها • ثم فى سنة ١٩١٣، في هذا الوقت المتأخر ، نشرت مجلة الشرق الادنى The Near East رسالة وجيزة بقلم السر وليم ويلكوكس الخبير الممتاز فى شؤون رى وادى الرافدين ، اشار فيها الى الطريق الذى يجب ان يمر الخط فيه لكى يأتى بأعظم فوائده لجميع المنتفعين • وأضاف قائلا : « انه لمما يدعو الى الاسف

ان يكون التأسيس فى نهاية الامر حسب التخطيط الالمانى القديم الذى تحاشى كل فدان من الاراضى الزراعية ، والتزم جانب الصحراء »[٣٢] .

ان هذه الامثلة وغيرها من الدلائل تشير الى اهتمام الرأى العــام البريطانى بمشروع سكة حديد بغداد ، واستمرار اهتمامه بالقضية حتى النهاية . ومن الامثلة البارزة على ذلك ، فضلا عما تقدم ، نذكر مقال بــيرز (Pears) الذى ظهر حول الموضوع فى مجلة Contemporary Review سنة ١٩٠٨ ، والبـحث الذى القــاه شرادام (Chéradame) فى جمعية آسيا المركزية الملكية سنة ١٩١١ ، وكذلك مقال لينج (Lynch) الذى نشر فى مجلة Fortnightly Review سنة ١٩١١ ايضا ، وكتاب سارولي (Sarolea) عــن « المشكلة البريطانية الالمانية » الذى صدر سنة ١٩١٢ واعيد طبعه بعدئذ بثلاث سنين[٣٣] . والى جانب ذلك لدينا امثلة اخرى فى اعمال بعــض الجمعيات المهمة مثل الجمعية الجغرافية الملكية وجمعية آسيا المركزيــة الملكية التى استمرت فى تقديم الفرص الملائمة لعرض آراء ذوى الخبرة حول الموضوع . وهنا يجدر بنا ان نعلم بأن الرأى العام البريطانى الذى انتصر منذ ان اتفقت معه سياسة الحكومة سنة ١٩٠٣ ، كما سنلاحظ بعد قليل ، لم يعد بحاجة الى الهياج مرة اخرى للاعراب عما كان يريد . وعلى

---

(٣٢) عن الشواهد الثلاثة المذكورة هنا ، راجع المصادر التالية :
Cadoux, H.W., "Recent changes in the course of the lower Euphrates," *Geographical Journal* (1906), vol. 28, pp. 266-277. Sykes, Sir Mark, "Journeys in north Mesopotamia," *Geographical Journal* (1907), vol. 30, pp. 237-254, and 384-398. Willcacks, Sir W., "The Baghdad Railway," *The Near East,* June 6, 1913, p. 127.

(٣٣) Pears, Edwin, "The Baghdad Railway," *The Contemporary Review* (1908), vol. 94, pp. 570-591. Cheradame, André, "The Bagdad Railway," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1911). Tynch, H.F.B., "The Bagdad Railway," *The Fortnightly Review* (March and May, 1911), vol. 89, pp. 375-386, and 771-780. Fraser, Lovat, "The Baron and his Bagdad Railway," *The National Review* (1912), vol. 59, pp. 606-619. Sarolea, Charles, *The Anglo-German Problem* (London, 1912, and 1915), pp. 247-280.

هذا كان اختلافنا عما ورد فى حينه من اشارة الى « ان الرأى العام البريطانى لعب دورا طفيفا فى قضية سكة حديد بغداد باستثناء مرة واحدة »(٣٤) .

وختاما لما ذهبنا اليه فى صدد هذه الفكرة نذكر رسالة مؤرخة فى ٣ تموز سنة ١٩٠٦ من سفير بريطانيا فى القسطنطينية الى وزير الخارجية السر ادوارد غراى (Sir Edward Grey) ، حيث لم يستبعد السفير « مشاركة اصحاب رؤوس الاموال البريطانية فى سكة حديد بغداد ، لولا الشعور الشديد الذى ساد في انكلترا ضد الالمان خلال السنوات الاخيرة »(٣٥) .

ومع ذلك فان لسنة ١٩٠٣ اهمية فذة فى تاريخ المشكلة المتعلقة بسكة حديد بغداد . ذلك ان المشروع نفسه اتخذ فى تلك السنة حدوده الواسعة، مما اهاج الرأى العام البريطانى وأدى الى تشاؤم حكومته . وعندئذ اخذت الحكومة البريطانية تعتبر بما كان قد ابداه الخبراء البريطانيون مرارا حول اهمية المشروع ، وخطورة مغزاه . ومن ثم دخلت المنافسة البريطانية ـ الالمانية دورها الحاسم الذى ادى الى وفاق على الورق ، وانتهى فى سوح القتال .

بداية المشروع وسهولة الموقف البريطانى

غير ان البداية لم تكن تنم عما آلت اليه القضية من خطورة وتعقيد ، فلقد استند المشروع فى ميدان التأسيس الى مقدمات يرجع عهدها الى سنة ١٨٨٨ حينما انجز الالمان انشاء خط حديدى يصل ما بين برلين والقسطنطينية . وكان فى ٢٧ ايلول وفى ٤ تشرين الاول من السنة ذاتها ان حصلت « شركة سكة حديد الانضول » المؤسسة حديثا على امتياز من تركيا لاستثمار الخط ما بين حيدر باشا وازميت ، والقيام بمده الى انقرة . ثم كان فى سنة ١٨٩٣ أن حصلت الشركة نفسها على امتياز لمد السكة من ازميت الى

---

(٣٤) اعلاه ، ص (٢٤٣) .

(٣٥) رسالة سرية بتاريخ ٣ تموز ـ يوليو سنة ١٩٠٦ من السفير البريطانى فى القسطنطينية الى وزير الخارجية السر أدوارد غراى . راجع النص فيما يلى : *British Documents, op. cit.*, vol. V, p. 174.

قونية (مسافة ٥٣٥ كيلو مترا) ، فتم انشاؤها بعد ثلاث سنين ، واصبحت فى الواقع الجزء الاول من سكة حديد بغداد • وبعدئذ استطاع القيصر فى زيارته لتركيا سنة ١٨٩٨ وما تخللها من تفاهم ودى مع السلطان ، ان يأخذ منه وعدا بمنح الالمان امتياز مد السكة من قونية الى الخليج العربى • وفى السنة التالية جرت مفاوضات بين الطرفين وتم التوقيع على اتفاق (Convention) لهذا الغرض ، استقرت من بعده واستنادا اليه تفاصيل المشروع فى اتفاق سكة حديد بغداد المنعقد بتاريخ ٥ آذار سنة ١٩٠٣[٣٦] •

فبموجب وثيقة ٥ آذار/١٩٠٣ اصبح يحق لشركة سكة حديد الانضول ان تقوم بمد خط ازميت ــ قونيه فى اتجاه الجنوب الشرقى الى بغداد فالبصرة ، وان تنشىء له فروعا يصل احدها الى نقطة ما على الخليج يتعين موقعها فيما بعد • وحصلت الشركة ، فضلا عن ذلك ، على حق استخراج المعادن من الاراضى المحاذية للخط مسافة عشرين كيلومترا من كل جانب ، وعلى حق الملاحة فى مياه الرافدين للاغراض التى تقتضيها شؤون السكة • ولاجل القيام بتنفيذ المشروع واستنادا الى نص الاتفاق الاخير ، قامت شركة الانضول بتأليف شركة مساهمة تعرف باسم « شركة سكة حديد بغداد الامبراطورية العثمانية » وهى التى يشار اليها عادة بمجرد شركة سكة حديد بغداد •

فاذا ما ذكر المؤرخون بان سنة ١٩٠٣ كانت زمن تحول فى موقف بريطانيا تجاه المشروع الالمانى ، فان احدا منهم ، على ما يبدو ، لم يشر الى حقيقة هذا التبدل أو يقارن بين طبيعة الموقف السابق واللاحق • فالمشروع الالمانى بدا مقبولا فى نظر بريطانيا خلال سنواته الاولى لاعتبارها اياه من طراز « عبء الرجل الابيض » في تحمل تبعات الشعوب المتأخرة ، كما اعتاد ان يتبجح المستعمرون • يضاف الى ذلك اعتبارها اياه توسعا

---

(٣٦) Géraud, A., "A new German empire: the Story of the Bagdad Railway," *The Nineteenth Century* (May-June, 1914), vol. 75, pp. 958-972 and 1312-1326.

اقتصاديا يفيدها أن تساهم فيه ، وهذا هو بيت القصيد . ولعل من أبرز ما يوضح عبء الرجل الابيض فى هذا الصدد تصريح ايرل برسي (Earl Percy) فى البرلمان البريطانى سنة ١٩٠٢ بقوله : « ان المانيا تعمل الآن لتركيا مثلما قمنا نحن بعمله لبلاد فارس فى سبيل اصلاح الشعوب المحلية اجتماعيا وتحسين احوالها المادية . وانه فيما اعتقد اذا اصبح كفاح المستقبل بين السياسة السلافية المجبولة على الركود ، والسياسة التيوتونية الرامية الى نشر فضائل النور والمدنية فان النصر سيكون حليف تلك الشعوب التى تناضل عن اخلاص أو انانية ، عن قصد او غير قصد ، فى سبيل الاهداف السامية التى اودع القدر تحقيقها الى العناصر الامبراطورية من العالم المسيحى »[٣٧] .

اما الجانب الاقتصادى فى ذلك الدور الاول (١٨٩٩ - ١٩٠٣) فقد توضح في سياسة وزير الخارجية (المركيز لانسدون Marquess of Lansdowne) الذى اخبر السفير البريطانى فى برلين بأن حكومة صاحب الجلالة « لا تنظر بعين السخط الى المشروع » وانها تأمل ان تساهم فيه بما لا يقل عن حصة اية دولة . واضاف قائلا بأن المقصود بهذه الحصة « يتعلق برأس المال المستعمل فى انشاء الخط ، وفى ادارته عندما يتم ، وفى تجهيز المواد المقتضية لذلك »[٣٨] . فلقد كان اهتمام بريطانيا محصورا من وجهة عملية بالفائدة الاقتصادية من المشروع ، اذ لم تكن بعد قد رأت فى القضية ما ينذر بخطر جسيم .

خطورة الموقف البريطانى وتعقيده

وما ان تقادمت سنة ١٩٠٣ حتى اشتد اهتمام البريطانيين بالمشروع الالمانى ، واتخذ الوضع طورا تهيمن عليه اعتبارات استراتيجية من النوع

---

(٣٧) محاضر البرلمان البريطانى لسنة ١٩١٢ ، المجلد (١٠١) ، ص (٥٩٧) :
Parliamentary Debates, 4th S., vol. 101 (1902), p. 597.

(٣٨) *British Documents on the origins of the war*, II, no. 204, pp. 177-178.

الذى اكد عليه المختصون منذ زمن سكة حديد الفرات التى لم يقدر لها النجاح • فلم تعد روسيا ، بل اصبحت المانيا فى هذه الحال مصدر الخطر الماثل ، وكان امتياز سكة حديد بغداد الذى استقر حينذاك على شاكلته المعلومة هو الحافز لهذا التبدل الخطير • ولقد ساهم الرأى العام البريطانى فى هذا الاتجاه مساهمة فعالة واتفقت معه الحكومة نهائيا من حيث الاساس• ومما يجدر بالملاحظة ان قادة الرأى العام البريطانى كانوا ممن أشرنا اليهم بالمختصين نظرا لاهتمامهم الجدى بالقضية ، ودراساتهم المتعلقة بها • ومن ثم تناول المشروع الالمانى فى نظر بريطانيا مصير نفوذها فى الخليج العربى ، ورجحان كفتها فى وادى الرافدين ، وما لذلك من علاقة وثيقة بمركزها فى ربوع الهند وغيرها من بلاد الشرق •

ذلك كله بدا عرضة للخطر الالمانى المتمثل في سكة حديد بغداد ، وذلك ما اتفق البريطانيون على ضرورة حمايته • اما المجادلات التى اتسع نطاقها حول المشروع فى داخل بريطانيا فانها تعلقت بالسؤال عما اذا كان يجدر برأس المال البريطانى ان يساهم فيه ، او لا يجدر به ان يفعل ذلك • فكان من بينهم من التزم جانبا فى الاجابة على هذا السؤال ، ومنهم التزم الجانب الآخر ، ودارت بين الطرفين مناقشات مسهبة احيانا • ولكنهم جميعا التزموا بهدف واحد هو حماية الامبراطورية ، التى زعم البعض انها تقتضى المساهمة فى المشروع ، بينما ادعى البعض الآخر بانها تقتضى الاحجام • ففى انتفاضة عام ١٩٠٣ مثلا ، نشر العضو البرلمانى بولز (T.G. Bowles) رسالته المعززة بالادلة على صفحات جريدة التايمز اللندنية ، داعيا فيها الى امتناع الرأسمال البريطانى عن المساهمة فى « سكة حديد المانية بحتة من حيث الاساس » ، ومحذرا بقوله : « اعتقد بأنه فى وسعى الادعاء بأن ماجرى منذ ايلول الماضى يؤيد ما جازفت به حينذاك فى اعمدة جريدتكم من تحذير اصحاب رؤوس الاموال البريطانية أن يبتعدوا عن هذا المشروع السياسى الالمانى » • وكان خلال السنة نفسها ان صرح اللورد فتز موريس (Lord E. Fitzmaurice) فى مجلس العموم البريطانى بقوله : « ان الذى

جعل المجلس يبدى اهتماما ملحوظا بالقضية هو الشعور بأن مستقبل السكة قد يكون مرتبطا بمستقبل السيطرة السياسية على مناطق واسعة فى آسيا الصغرى ، وعلى وادى الرافدين ، والخليج العربى » .

ثم فى سنة ١٩٠٨ حـاول السر أدوين بيرز (Sir Edwin Pears) ان يبرهن بكل جدارة على صفحات مجلة Contemporary Review ، بأن المصالح البريطانية تحتم جعل سكة حديد بغداد مشروعا دوليا . ومن المناقشات التى دارت في سنة ١٩١١ حول محاضرات شرادام (André Cheradame) في جمعية آسيا المركزية الملكية ، اتضح رجحان الدعوة الى امتناع الرأسمال البريطانى عن المساهمة فى المشروع ، ولم يشذ عن هذا الاتجاه العام بما يستلفت النظر سوى العضو البرلمانى ، العقيد يات (Col. A.C. Yate) الذى اوضح أن العكس هو الصواب . وفي سنة ١٩١٢ نشر لوفات فريزر (Lovat Fraser) فى مجلة The National Review دفاعه عن ضرورة احجام رؤوس الاموال البريطانية عن المساهمة ، وأردف متسائلا : « لماذا نتعجل فى المشاركة مع المانيا فى مشروع يراد به ، الى جانب مآرب اخرى ، تعزيز المصالح الالمانية فى الامبراطورية التركية ؟[٣٩] » .

ولقد ابدت الحكومة البريطانية اهتماما خاصا بتلك المعانى الامبراطورية البليغة ، دون ان تهمل النظر فيما تعلق آنيا بمصالح مواطنيها الاقتصادية . فاتخذت منذ سنة ١٩٠٣ موقفا حازما ضد اية محاولة ترمى الى اتصال السكة بالخليج العربى ، وضد أى اتجاه لازدياد النفوذ الالمانى الى ما يقارب نفوذها فى بلاد ما بين النهرين . غير ان المانيا كانت أقدر من أن تذعن . ومن ثم نشأت المعضلة التى احيطت بدبلوماسية واسعة النطاق ، ونجم عنها « وفاق » بين مصالح متنافرة الاهداف ، وانتهى أمرها بعدئذ بحرب .

---

(٣٩) عن الشواهد الخمسة المذكورة هنا ، راجع المصادر التالية :
The [London] *Times*, April 20, 1903, p. 7. *Pral. Deb.*, 4th S., vol. 120, pp. 1366-1367. "The Bagdad Railway," in the *Contemporary Review*, vol. 94, 570-591. "The Bagdad Railway," in the *Proceedings of the Royal Asian Society* (London, 1911). "The Baron and his Bagdad Railway," in *The National Review*, vol. 59, pp. 606-19.

٣ ـ الدبلوماسية والحرب

تدابير الدبلوماسية البريطانية

لقد اعتزمت بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر ان تخرج من « العزلة الفاخرة » التى جنبتها التعهدات والتكتلات الاوربية منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ . ويرجع السبب الحاسم فى هذا الاتجاه الجديد الى تعاظم الدولة الالمانية . فالمشاكل السابقة التى جابهتها بريطانيا من جانب كل من فرانسا وروسيا تكللت اخيرا بمنافسة المانية متزايدة القوة والطموح. وعلى هذا فقد ابدت بريطانيا استعدادها للتفاهم مع أى واحد من المعسكرين المتعارضين (الفرنسي والالمانى) تمهيدا للانحياز الى أى منهما تبعا لما تمليه عليها مصالحها الخاصة . ففى سنة ١٩٠١ قامت بمفاتحة المانيا لهذا الغرض فلم تفلح ، وعندئذ اتجهت لمفاتحة فرانسا . ويرجع السبب فى عدم الاتفاق مع المانيا الى اصرار هذه على شروط تصبح معها بريطانيا عضوا فى الحلف الثلاثى المعروف . اما الاتجاه نحو فرانسا فقد نجم عنه التفاهم الثلاثى (Triple Entente) الذى جمع بين هاتين الدولتين وروسيا فى معسكر واحد

غير ان التفاهم الثلاثي لم يكن كافيا فى جميع الحالات للوقوف فى وجه التوسع الالمانى ، وخاصة فيما تعلق بسكة حديد بغداد . وعلى هذا فقد اتخذت بريطانيا لمعالجة هذه القضية سبيلين آخرين : استطاعت اولا عن طريق نفوذها لدى شيخ الكويت ان تسيطر على المدخل البحرى لوادى الرافدين . وثانيا عن طريق اتفاق عقدته مع تركيا ، وآخر مع المانيا ، ضمنت تلك السيطرة على المدخل البحرى كما ضمنت مصالحها القائمة فى وادى الرافدين . والى جانب حماية هذين الهدفين الخطيرين حصلت على نوع من الضمان الدولى بواسطة التفاهم الثلاثي المعهود .

وهنا يجدر بنا ان نتذكر بأن مايعرف بالتفاهم الودى (Entente Cordiale) بين بريطانيا وفرنسا يرجع الى الوفاق الذى وقعا عليه فى لندن بتاريخ ٨ نيسان سنة ١٩٠٤ ، وحسما بموجبه المشاكل المستعصية بينهما ، حول مدغشقر ، وسيام ، ونيو هبريدز (New Hebrides) ، ومناطق نيو فوندلند

لصيد الاسماك • وبذا تنازلت فرانسا مثلا عن حقها فى مناطق صيد الاسماك هذه ، لقاء تعويض مالي وشيء من الاراضى فى غربى القارة الافريقية • واعترفت فرنسا برجحان نفوذ بريطانيا في مصر ، مقابل اعتراف بريطانيا لفرنسا بمثل هذا النفوذ في مراكش • كما ويجدر بنا ان نتذكر فى هذا الصدد بأن حلفا كان قد تم انعقاده بين فرنسا وروسيا منذ سنة ١٨٩٤ ، ولم يبق سوى ان تصل كل من بريطانيا وروسيا الى تسوية المشاكل البارزة بينهما ليظهر التفاهم الثلاثي (Triple Entente) الى حيز الوجود • وهذا ما حدث فى سنة ١٩٠٧ ، عندما اعربت بريطانيا عن استعدادها لتبديـل اتفاقية المضايق (الدردنيل والبوسفور) بما يلائم الجانب الروسى ، واعترفت روسيا فى الوقت ذاته بسيادة النفوذ البريطانى فى كل من الافغان والخليج العربى • وكانت التسوية البارزة بينهما فى تقسيم بلاد فارس الى منطقة شمالية كبرى تحت النفوذ الروسى ، ومنطقة محايدة وسطى وثالثة جنوبية تحت النفوذ البريطانى •

والى نصيب حكومته في هذا التعامل الدولى اشار المؤرخ المعروف كوج (G.P. Gooch) بقوله : « فى سنة ١٩٠٧ ، كما فى سنة ١٩٠٤ ، حصلت الحكومة ومستشاروها الاخصائيون على اكثر ما يمكن بأقل ثمن ممكن فى تلك الظروف • فنحن لم نتخل عن أى شيء لم نكن قد فقدناه قبلا ، على حد تعليل السر ادوارد غراى (Sir Edward Grey) ••• واذا ما جاز انتقاد الوفاق البريطانى ـ الروسى من جهة اقتصادية ، فانه لا مجال للطعن فى نجاحه من الناحية السياسية • فالسبيل الوحيد لاستعادة روسيا منزلتها كدولة عظمى ان تضيف الى حلفها مع فرنسا صداقة بريطانيا • كما وان بريطانيا بعد اتخاذها موقفا حاسما الى جانب فرنسا ، أرادت تأييد روسيا فى وجه الخطر الالمانى المتزايد • وعلى هذا فقد حدث بعد زوال المشاكسات المحلية، كما حدث مع فرنسا ، تآزر دبلوماسى فى شتى الميادين ••• وتصدى التفاهم الثلاثي للحلف الثلاثى على رقعة الشطرنج الاوربية »[٤٠] •

---

(٤٠) Gooch, G.P., *History of Modern Europe*, 1878-1919 (London and New York), 395-396.

ولقد يبدو غريبا ان تتجه بريطانيا فى الوقت ذاته الى المانيا للتوصل معها الى اتفاق من نفس الطراز • فالحكومة البريطانية ، بفضل دبلوماسيتها « الحكيمة » كما يقال ، لم تكن مرتبطة صراحة بتعهد يمنعها عن مثل هذا الاتجاه المضاد • فلم تكد تمض اربعون يوما على عقد اتفاقاتها فى لندن مع فرنسا ، حتى اخذت تتفاوض سرا مع المانيا لعقد صفقة مماثلة • وعندئذ كتب سفيرها فى برلين ، السر لاسال (Sir F. Lascelles) بتاريخ ١٨ أيار سنة ١٩٠٤ « رسالة سرية للغاية » يخبر فيها وزير الخارجية عن محادثة رسمية كان قد اجراها مع القيصر • وفى هذا الصدد يقول السفير : « فالذى يبدو ، على كل حال ، اننا بحاجة الى شىء غير قليل من المباحثات فى سبيل التوصل الى تسوية ، أو كما اضعها فى التعبير المألوف الذى يسمح به جلالته فى التحدث اليه ، اننا نريد صفقة مساومة »[٤١] • فاذا ما خالفت بريطانيا فى هذا روح « المودة » البريطانية ـ الفرنسية ، فان استمرارها من الجهة الاخرى دون ما هوادة فى الارتياب من نوايا روسيا لم يكن يتفق وروح « الصداقة » المعلنة بين الطرفين • وعلى سبيل الايضاح نذكر فيما يلى شيئا من هذا الارتياب كما ورد فى تقرير برلمانى لسنة ١٩٠٨ ، حيث يقول :

> كما ويجدر بحكومة صاحب الجلالة الا تنسى بأن تسوية من هذا القبيل مع روسيا قد تدرأ سيطرة هذه الدولة على اواسط بلاد فارس وجنوبها ، وتحول دون الوصول الى الخليج العربى عن هذا السبيل ، غير ان ذلك لن يؤخر لحظة واحدة ، لا بل وقد يعجل تقدمها الى نفس الهدف بواسطة وادى الرافدين عن طريق بغداد • وهذه مسألة يجدر بأن لا تكون فى نظرنا أقل كرها[٤٢] •

فلو تذكرنا بأن العلاقات الدولية اجمالا لم تكن تسلم عادة من شوائب

---

(٤١) *British Documents on the Origins of the war,* III, p. 1.

(٤٢) *Parliamentary Papers,* 1908, Cd. 3882, p. 10.

الرياء والارتياب ، لألفينا التفاهم الثلاثى سليم الكيان باعتباره سندا لكل واحد من اعضائه • غير انه لم يكن كافيا لصد مشروع سكة حديد بغداد • ومع هذا فان التوصل الى الاتفاق المقصود لم يتم حتى عشية اعلان الحرب العالمية الاولى ، بعد ما تحصنت بريطانيا عند المنفذ البحرى لبلاد ما بين النهرين ، وبعد ما اتضحت من الجهة الاخرى بوادر نجاح السكة فى تقدمها الى مشارف المنفذ البحرى لهذه البلاد • وهذا ما سنلخصه بشىء من التأكيد على اهمية الخليج عامة ، والكويت خاصة ، من حيث علاقة ذلك بوادى الرافدين فى اطار الاستعمار والمنافسة البريطانية ـ الالمانية •

الخليج العربى ـ وخاصة الكويت

لقد ذكر الاميرال ماهان سنة ۱۹۰۲ فى كتابه الموسوم « نظرة الى الماضى والمستقبل » فى العلاقات الدولية « ان أى تنازل من جانب بريطانيا فى الخليج العربى ، سواء أكان ذلك حسب اتفاق رسمى معين ، أم كان عن مجرد اهمال لتجارتها المحلية التى هى عماد السيطرة السياسية والعسكرية ـ ان ذلك من شأنه ان يعرض للخطر مكانة بريطانيا البحرية فى الشرق الاقصى ، ومركزها السياسى فى الهند ، ومصالحها التجارية فى كليهما ، وكذلك الروابط الامبراطورية بينها وبين أوستراليا »[٤٣] • وهذه الفكرة التى جاء بها ناقد امريكى بارع نجدها واضحة فى تصريحات البريطانيين انفسهم ، فى مناسبات كانت احيانا على جانب كبير من الاهمية • فلقدصرح وزير خارجية بريطانية فى مجلس اللوردات بتاريخ ٥ أيار ـ مايو سنة ۱۹۰۳ بقوله : « اننا نعتبر قيام دولة اخرى [غير بريطانيا] بانشاء قاعدة بحرية او ميناء حصين فى الخليج العربى خطرا بليغا جدا على المصالح البريطانية ، واننا سنقاوم ذلك حتما بكل ما لدينا من الوسائل » • ثم اضاف الوزير قائلا فى تأسيس قاعدة بحرية : « انه هو على الاقل لم يسمع باقتراح من هذا القبيل » • فكان بهذا التصريح مطمنا لابناء قومه من جهة ، ومنذرا لسواهم من الجهة الاخرى •

---

(٤٣) Mahan, Admiral A.T., *Retrospect and prospect: studies in international relations* (Boston, 1902), 234-235.

ولقد تأكد الاهتمام بالموضوع ذاته في محاضر الجمعية المعروفة باسم جمعية آسيا المركزية الملكية ٠ فهنالك مثلا القى ارشيبالد دون (Archibald Dunn) بتاريخ ٩ كانون الثانى ـ يناير سنة ١٩٠٧ محاضرة بعنوان « المصالح البريطانية فى الخليج العربى » مؤكدا فيها حق بريطانيا وقوتها الضاربة ٠ وهنالك ايضا القى لوفات فريزر بتاريخ ٨ كانون الثانى سنة ١٩٠٨ بحثا فى « بعض قضايا الخليج العربى » وعرض فى الجمعية نفسها بتاريخ ١٧ أيار سنة ١٩١١ ملاحظات قيمة حول « تهريب الاسلحة فى الخليج العربى » محذرا فيها من قيام البريطانيين وغيرهم بادخال الاسلحة فى المنطقة ٠ ولم يكن هنالك على ما يبدو ، أبلغ تعبيرا عن اهمية الخليج فى نظر بريطانيا من تصريح اللورد كرزن فى مجلس الوردات ـ واشارته الختامية الى اجماع الآراء حول الموضوع :

> ان منزلتنا فى الخليج ٠٠٠ تستند الى حصانتنا التجارية فى ربوعه ، الى خدماتنا هناك منذ مائة عام ، الى المال المصروف ، الى المركز البحرى الذى اقمناه ، الى ما نحتفظ به من سيطرة سياسية ، والى ما هو فوق ذلك كله من ان الخليج جزء من الحدود البحرية للهند ، وان شؤون الخليج السياسية مرتبطة بأمن ، وسلامة ، واستقرار الهند ذاتها ٠ وليس فى هذا من جديد ، فهو من البديهيات المسلّم بها لدى جميع الاحزاب فى كلا الطرفين وفى كل من المجلسين(٤٤) ٠

ونظرا لموقع الكويت على رأس الخليج العربى وقربها من البصرة بما يناهز ثمانين ميلا ، فقد اصبحت هى المركز الرئيس لمناورات بريطانيا ضد العثمانيين والالمان فى تلك الارجاء ٠ والكويت البالغة نفوسها حينذاك ١٥ر٠٠٠ نسمة « تقع على الساحل الجنوبى لخليج صغير طوله ٢٠ ميلا وعرضه ٥ أميال ، تحمى مدخله جزيرتان جلعتا منه مرفأ طبيعيا جيد الرسو ، بعمق يتراوح ما بين ٤ و ٩ قامات [اى ما بين ٢٤ و ٥٦ قدما] من الماء » ٠ وكان القطر من حيث التقسيمات الادارية جزء من لواء البصرة ٠

---

(٤٤) *Parl. Deb.*, House of Lords, 5th S., vol. VII, 1911, p. 587.

والى هذا الجزء القصي من الامبراطورية العثمانية وجه البريطانيون انتباها خاصا منذ ظهور امتياز سكة حديد بغداد ، للحيلولة دون وصولها اليه . وعلى هذا فقد عقد البريطانيون معاهدة سرية بتاريخ ٢٣ كانون الثانى سنة ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك الصباح ، تقضى بعدم تخليه (بأى وجه من الوجوه) عن أية بقعة من أراضيه بدون موافقة بريطانيا[٤٥] .

وفى مستهل القرن العشرين تحولت الكويت سرا وسراعا الى محمية بريطانيا على الرغم من نكران بريطانيا علنا لهذه الحماية الاعتباطية . فلم يكن غريبا والحالة كذلك ان تخفق المانيا فى محاولتها شراء عشرين ميلا مربعا على ساحل الكويت لغرض انشاء المحطة النهائية لسكتها الحديدية . هذا على الرغم من تمتع المانيا بمساندة الحكومة العثمانية آنذاك . وهكذا فقد رفض الشيخ طلب بعثة شتمريخ (Stemrich) التى تقدمت به سنة ١٩٠٠ لشراء القطعة المطلوبة[٤٦] . وكان على اثر ذلك ان ابرق مستشار المانيا الفون بيلو (von Bülow) بتاريخ ١٠ تشرين الاول ـ اكتوبر سنة ١٩٠١ الى سفير المانيا فى لندن يطلب منه ان يذكر الحكومة البريطانية بسيادة السلطان على مناطق الخليج ، بما فيها الكويت ، وأن ينقل اليهم ما ذكره اللورد كرزن في الصفحة ٤٦٢ من كتابه عن « بلاد فارس والمسئلة الفارسية »

---

(٤٥) دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشر) تحت مادة كويت (Kuwait) . وفى أماكن متعددة من كتاب « العراق فى نصف قرن ، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠ » : Longrigg, S.H., *Iraq, 1900-1950* (London, 1950), pp. 16; 45; 68.

أما نص معاهدة ١٨٩٩ فانه موجود فى المجلد الحادى عشر من المجموعة التالية (الخاصة بالوثائق المتعلقة بالهند وما يمت اليها بصلة من الاقطار المجاورة) Aitchison, C.U., *Collection of Treaties, Engagements and Sanals relating to India and Neighbouring countries*, vol. 11 (eleven), the Government of India edition (Delhi, 1933), p. 262.

(٤٦) الهر (شتمريخ) كان حينذاك القنصل العام لالمانيا فى القسطنطينية ، وكان معه المهندسان : فون كاب ، وهابيش (von Kapp and Habich) وكذلك الملحق العسكرى فى القنصلية المقدم مورغن (Major Morgen) ، راجع : Lewin, E., *German Road to the East* (London, 1916), p. 88.

حيث اكد بوضوح « تمتع السلطان بالسيادة دون منازع » على منطقة شاسعة من الخليج ، تشمل الكويت ، وتمتد من شبه جزيرة قطيف الى ميناء (الفاو) عند مصب مياه الرافدين . غير ان بريطانيا انكرت بكل بساطة ان تكون لها أية حماية على الكويت(٤٧) .

ومع ذلك فقد اخذت دلائل حمايتها الفعلية تزداد وضوحا عندما قامت مرارا خلال المدة **١٩٠١ – ١٩٠٢** باحباط محاولات تركيا ممارسة سيادتها على الكويت . فكان من ابرز تلك الحوادث التى قامت بها اعتباطا ، ظهور « ثلاثة بواخر حربية فى المرفأ ، وقوة بريطانية بمدافعها الخفيفة فى حصن جهرة على بعد **١٨** ميلا عن الساحل ، ومرابطة النواتى فى خنادق حفروها على عجل خارج المدينة »(٤٨) . فكان طبيعيا شعور السلطان بالقلق من مكائد بريطانيا فى المنطقة ، وأن يزداد ارتيابه من ماربها لسبب آخر ايضا – كما يبدو فى رسالة سرية بتاريخ **١٧** حزيران – يونيو سنة **١٩٠٢** ، يقول فيها سفير بريطانيا فى القسطنطينية لوزير خارجيتها :

> لي الشرف ان انقل اليكم طيا ترجمة رسالة وصلتنى سرا ، وهى موجهة من امير نجد [عبدالعزيز الرشيد] الى رئيس وزراء تركيا يتهم فيها الانكليز بمحاولة السيطرة ، بمساعدة شيخ الكويت ، على مواقع عربية تهيمن على الممتلكات التركية فى الاحساء والقطيف . ويحذر تركيا من عواقب هذه المكيدة الانكليزية . وللرسالة شيء من الاهمية لانها تكشف عن أحد المصادر التى تغذى ارتياب السلطان من سياسة انكلترا فى البلاد العربية والخليج(٤٩) .

---

(٤٧) *Die Grosse Politik der Europaischen Kabinette,* 1871-1914, XVII, p. 483, and passim 465-516.

(٤٨) Fraser, Lovat, *India under Curzon and after* (London, 1911), p. 100.

(٤٩) رسالة السفير بتاريخ ١٧ حزيران – يونيو سنة ١٩٠٢ ، تحت رقم سرى ٢٨٢ . ومن بعدها مباشرة ترجمة كتاب (أمير نجد) الى اللغة الانكليزية ، وهما فى سجلات وزارة الخارجية البريطانية ، فى المجلد رقم F.O. 78-5252) .

انه ليندران نجد فى تاريخ الدولة العثمانية كله ما نجده فى تلك العلاقة البريطانية ـ الكويتية ، من قيام دولة اجنبية بالحماية الفعلية التامة ، على تابع عثمانى يعترف الجميع بتبعيته شرعا للدولة العثمانية . وهذه العلاقة هى التى نتصدى الآن لتبيان حقيقتها ، كما تبدو فى الوثائق المتعلقـــة بعنفوانها حوالى عام ١٩٠٢ . فبينا تندر الوثائق بعيدا عن هذه الفترة الزمنية ، نجدها خلال هذه الفترة غزيرة وخطيرة ، كما نجدها مجتمعة فى مجلد واحد ضخم بين سجلات وزارة الخارجية البريطانية الخاصة بتركيا ـ على اعتبار الكويت جزء منها (F.O. 78-5252) . ففى تلك الآونة حدثت امور لا تدع مجالا للشك فى طبيعة العلاقة القائمة آنذاك بين الطرفين . من ذلك مثلا ما تعلق بالقاء الحكومة القبض على وكيل الشيخ فى البصرة ، المدعو عبدالعزيز السالم ، ومصادرة بعض الوثائق التى كانت لديه . فلقد استاء شيخ الكويت من ذلك اشد الاستياء ، وبدا اهتمام السلطات البريطانية بالامر فى رسائل عديدة جرت ما بين لندن ، والقسطنطينية ، وكلكتا[٥٠] » . وعندئذ اراد الشيخ عرض القضية على السلطان رأسا ، وطلب من حكومة الهند السماح له بهذا الاتصال ، فكتبت حكومة الهند تستشير وزارة الخارجية البريطانية ، وجاء الرد من وزير الخارجية البريطانية مؤرخا فى ١ تموز ـ يوليو سنة ١٩٠٢ ، ينبيء حاكم الهند بأنه « اذا ما اراد الشيخ التماس السلطان رأسا فلا مانع لدى وزارة الخارجية من ذلك » .

لقد اصبحت الكويت عند مفتتح القرن العشرين تابعة فى شؤونهـا الخارجية لبريطانيا ، كما اتضح فى المثل السابق وفى غيره من الامثلة التى يبرز من بينها طلب الشيخ النجدة من البريطانيين فى حادث اختطاف اغنامه من قبل خصومه الموالين للاتراك . فالقضية هذه قد تكون بحد ذاتها طفيفة ، الا ان ما ورد فى اثنائها من معنى اكسبها اهمية كبيرة . ففى رسالة بتاريخ

(٥٠) سجلات وزارة الخارجية البريطانية ، المجلد رقم (F.O. 78-5252) وفى هذا المجلد ، كما فى غيره ، نجد الوثائق مرتبة حسب تتابع تواريخها ، وانها لا تحمل أرقاما متسلسلة .

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٢٠ (المصادف ١٢ آب - اغسطس ١٩٠٢) طلب النجدة من المقيم السياسى فى الخليج ، العقيد كيمبول (Colonel Kemball) مؤكدا له فيها تبعيته لبريطانيا ، واعتماده على مساعدتها فى وجه خصومه ومن بينهم الاتراك[٥١] . ولا يهمنا فى هذا المجال تعريب بعض ما ورد فى الرسالة ، مما يدل (نصه فى الطبعة الانكليزية من هذا الكتاب) على ان تلك المشيخة البحرية الصغيرة لم تكن فى موقف خيار بين تركيا الضعيفة وبريطانيا المهيمنة فعلا على الخليج .

فذلك هو ما جرى سرا فى حينه ، وما شعر باثره واستاء منه كل من العثمانيين والالمان منذ سنة ١٩٠٢ . فلما لم يستطيعوا زعزعة النفوذ البريطانى ، اضطروا اخيرا الى التسليم بالامر الواقع ، ولكن بعد عشر سنين ترعرع خلالها ذلك النفوذ . ففى رسالة بتاريخ ١٧ كانون الثانى - يناير سنة ١٩١١ ، من القائم باعمال بريطانيا فى القسطنطينية المستر مارلنج (Mr. Marling) الى وزير الخارجية السر ادوارد غراى (Sir Edward Grey) نجد الاشارة الى ان السلطة العثمانية « اذا هى اخفقت بمرور الزمن فى اقامة حكومة مستقرة واصبحت الامبراطورية فى حالة من الفوضى ، كما فى بلاد فارس ، فقد يكون لزاما علينا ان ننظر فى صواب الاعلان عن حمايتنا الكويت وتوابعها . غير ان أى همس بهذا المعنى فى الوقت الحاضر يثير عاصفة هوجاء هنا [في القسطنطينية] وكذلك في اوربا الوسطى »[٥٢] . ولكن الامر لم يعد بحاجة الى شيء من هذا القبيل ، بعدما حدث فى سنة

---

(٥١) فالذين خطفوا اغنام الشيخ ، حسب منطوق الرسالة نفسها ، هم شيخ الزبير (فى لواء البصرة) المدعو بن عان بمساعدة رجال زميله المدعو يوسف الابراهيم : راجع المحتوى رقم ٢ (Inclosure no. 2) فى مجموعة مؤلفه من ٢٥ محتوى ، تقع فى تسع صفحات مطبوعة تحت عنوان واحد هو « الكويت ، سرى رقم ١ ، فى ١٩ تشرين الثانى - نوفمبر ١٩٠٢ » . وهذه الوثيقة بالاضافة الى المراسلات السابقة بين حاكم الهند ووزير خارجية بريطانيا ، موجودة فى المجلد (الضخم) المذكور آنفا : F.O. 78-5252 .

(٥٢) *British Documents on the origins of the war*, vol. X, p. 621.

١٩١٢ من اتفاق بريطانى – عثمانى (تأيد باتفاق آخر أعم منه في السنة التالية)، وكان بموجب الاول منهما ان جرى الاعتراف بالامر الواقع ، على الوجه التالى حسب تلخيص احد المطلعين :

> لقد اعترفت بريطانيا بسيادة الباب العالى الاسمية على الكويت التى تضم الاراضى والجزر المجاورة حسب دعــوى الشيخ وتؤلف قضاء [أى وحدة ادارية] متمتعة بالاستقلال الذاتى ضمن الامبراطورية العثمانية . وتعهدت تركيا بان لا تتدخل فى شؤون الشيخ الداخلية او فى شؤون تابعيه . وان تعترف بالاتفاقات التى عقدها هو مع الحكومة البريطانية مما يعطي البريطانيين ، الى جانب اشياء اخرى ، حق السيطرة على شؤونه الخارجية ، ويمنعه من التخلي عن أى جزء من أراضيه(٥٣) .

« الوفاق » البريطانى – الالمانى ، والبريطانى – العثمانى

فالنجاح الذى احرزه البريطانيون فى الكويت وسيطرتهم على المنفذ البحرى لبلاد ما بين النهرين وتعزيز نفوذهم فى هذه البلاد ، قابله الالمان بتعزيز صداقتهم مع الحكومة العثمانية والسير قدما فى انشاء سكة حديد بغداد . والى هــذا التقدم فى انشـاء السكة أشار الدكتور فون كفينر (Dr. von Gwinner) ، رئيس المصرف المركزى الالمانى ، بما ينم عن ارتياحه من سير العمل فى المسافة البالغة (٢٨٩٣) كيلومترا من القسطنطينية الى البصرة . فلقد ذكر فى سنة ١٩٠٩ أنه قد تم حينذاك فتح (٩٤٦) كيلومترا لحركة النقل ، وان المسافة البالغة (٨٤٠) كيلومترا عبر جبال طوروس وأمانوس كانت فى الوقت ذاته تحت الانشاء ، وأنه لم يبق سوى ما يناهز (١٠٠ر١) كيلومترا « وهى الاسهل انشاء »(٥٤) . وما أن حل عام ١٩١٤

---

(٥٣) Parker, Sir Alwin, "The Baghdad Railway negotiations," in the *Quarterly Review*, vol. 228, October 1917, p. 520.

(٥٤) مقال الفون كفينر (A. von Gwinner) عن « سكة حديد بغداد ومسئلة التعاون البريطانى » ، فى المجلة التالية : *The Nineteeth Century*, June 1909, p. 1094

حتى اخذت السكة تتغلغل فى ربوع الرافدين بانجاز القسم الممتد من بغداد الى سامراء ، وابتدأ العمل فى المسافة بين سامراء وتكريت من جهة ، وبين بغداد والحلة من جهة أخرى(٥٥) .

فلا غرو والحالة هذه ، أن يستعيد البريطانيو والالمان فى سنة ١٩٠٩ مفاوضاتهم بشأن السكة ، يحدوهما أمل أقوى من أى أمل سابق فى التوصل الى تسوية . فالالمان كانوا دائما راغبين فى التفاهم حول المشروع ، كما وأن البريطانيين أدركوا الآن بمزيد من الوضوح عدم جدوى الاحجام . وعندئذ بدأت المفاوضات فى تشرين الاول من السنة ذاتها ، بين وزير الخارجية السر ادوارد غراى (Sir Edward Grey) وسفير المانيا فى لندن الفون مترنيخ (von Metternich) ، بشيء غير قليل من التحفظ الدبلوماسى المعتاد . فذكر السفير أنه ليس ثمة اعتراض على مساهمة بريطانيا ماليا ، واضاف قائلا بأنه فيما يخص ادارة مجلس الشركة تحتفظ المانيا باكثرية الاعضاء . ثم استفسر عما اذا كانت مساهمة بريطانيا فى السيطرة على القسم الجنوبى من الخط ستؤدى الى تسوية نهائية . غير ان الوزير البريطانى لم يكن مستعدا ، على حد قوله ، لاعطاء جواب نهائى ، ولو انه اعترف بان القسم الجنوبى من الخط هو الاهم فى نظر الحكومة البريطانية . وعندئذ سأل الفون مترنيخ عن المقصود بالقسم الجنوبى « لانه افتكر بأن ذلك الجزء من الخط الذى يجتاز وادى الرافدين قد يكون اثمن اجزاء السكة » . فكان جواب الوزير « أن هذه مسألة تعود لذوى الاختصاص ، فى مرحلة متأخرة من المباحثات »(٥٦) .

والى جانب المباحثات التى اجراها البريطانيون مع الالمان بشأن مسألة وادى الرافدين ، قاموا باجراء مباحثات مستقلة بشأن المسألة نفسها مع

---

(٥٥) كان عرض الخط مماثلا للعرض المعتاد فى خطوط السكك الاوروبية ، البالغ ٤ أقدام و ٨½ بوصة :
Commerce Report, No. 50 (Washington, D.C., 1919), p. 950.

(٥٦) *British Documents, op. cit.*, vol. VI, p. 379.

العثمانيين • فدارت هنالك مفاوضات مسهبة ومساومات ، نجم عنها بعد طول الامد « وفاق » بريطانى ـ عثمانى ، وآخر بريطانى ـ المانى ، تناولتهما بمرور الزمن اقلام مختلف الكتاب[٥٧] • ولسوف نكتفى هنا بالاشارة الى خلاصة الموضوع والتنويه بمغزاه •

فالوفاق البريطانى ـ العثمانى استند الى البيان الذى وقعا عليه فى لندن بتاريخ ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ ، واقرا بموجبه امتياز شركة دجلة والفرات للملاحة البخارية ، ذلك الامتياز الذى كان يجرى اعتباطا ، كما نعلم ، منذ زمن بعيد • ونصت الوثيقة على السماح بتأسيس شركة الملاحة النهرية العثمانية برئاسة اللورد انجكاب (Lord Inchcape) الذى كان فى الوقت ذاته رئيس شركة الملاحة البخارية للهند البريطانية • ومنحته امتياز تأليف الشركة الجديدة حسب القانون العثمانى لمدة ستين سنة مبدئيا ، واعطته حق ترشيح نصف اعضاء مجلس الادارة ، على ان ترشح الحكومة العثمانية النصف الآخر • واشترطت المساواة كذلك فى تقسيم الاسهم بين الجانبين ، البريطانى والعثمانى • ونصت ايضا على منح الشركة حق الملاحة والقيام باعمال الصيانة فى الانهار والروافد والقنوات ضمن بلاد الرافدين ، ما بين الخليج العربى جنوبا وكل من الموصل ومسكنة على دجلة والفرات شمالا • وفوضتها استملاك بواخر ومنشآت الحميدية الخاصة بالحكومة العثمانية •

ولقد وجه امتياز اللورد انجكاب عناية خاصة بشؤون شركة بيت

---

(٥٧) لعل أقدم ما ظهر عن الموضوع هو ذلك المقال القيم الذى نشره السر ألوين باركر عن « مفاوضات سكة حديد بغداد » فى عدد تشرين الاول ـ اكتوبر سنة ١٩١٧ ، فيما يناهز الاربعين صفحة (٤٨٧ ـ ٥٢٨) من مجلة *The Quarterly Review* • ولقد أشرنا آنفا ، اعلاه ، ص (٢٤٢) الى عدد من الانتاج البارز فى هذا الصدد ، ومنه كتاب جابمان (Chapman) عن « بريطانيا العظمى وسكة حديد بغداد » ، هذا الذى يمثل مرحلة جديدة فى البحث والاحاطة بمصادر الموضوع ، على الرغم من انتقاصنا اياه فى بعض ما توصل اليه • راجع ايضا قسم المجلات PERIODICALS من « نخبة المصادر » فى نهاية كتابنا هذا •

اللنج المعروفة رسميا بشركة دجلة والفـــرات للملاحة البخارية[٥٨] •
فبالاضافة الى الشرط القاضى بزوال المنافسة العثمانية (المتمثلة فى الشركة
الحميدية) ، أقر الامتياز حقوق بيت اللنج في تشغيل باخرتين تحت العلم
البريطانى ، ومع كل منهما شاحنتان (two barges) ، فى مياه دجـــلة
والفرات وشط العرب • والاحتفاظ بباخرة احتياطية تحت العلم البريطانى
للاستعمال عند توقف احدى الباخرتين • وتشغيل باخرة ثالثة تحت العلم
العثمانى ومعها شاحنتان •

وعلى وجه الاجمال فقد كان الوفاق البريطانى ـ العثمانى فى صالح
بريطانيا الى حد بعيد ، اذ انه اقر لها مصالح قديمة ، وضمن لها مصالح
جديدة ، وازال عنها المنافسة العثمانية فى ملاحة الرافدين • كما وانه اقر
نفوذها فى الكويت حسبما اتفقا عليه فى السنة الماضية (١٩١٢) • ومهد ،
بالاضافة الى ذلك ، سبيل الوفاق البريطانى ـ الالمانى المنشود ، كما نستشف
من تصريح السر ادوارد غراى بتاريخ ٢٩ أيار سنة ١٩١٣ حيث قال :
« ان اتفاقنا سيكون مع تركيا ، وسوف لا تكون المانيا طرفا فيه • غير انه
من الضرورى ان تقتنع المانيا بأن هذا الاتفاق لا ينطوى على أى شىء
يناقض مالها من حقوق حسب اتفاقها مع تركيا »[٥٩] •

واخيرا توصلت بريطانيا والمانيا الى عقد الوفاق المنشود ، فكان التوقيع
عليه بالاحرف الاولى فى لندن بتاريخ ١٥ حزيران سنة ١٩١٤[٦٠] • وبذا
تعهدت بريطانيا بتأييد زيادة الرسوم الكمركية العثمانية من ١١ الى ١٥
بالمائة ، ووافقت على تخصيص هذه الرسوم لشركة سكة حديد بغداد •
وتعهدت بريطانية ايضا بان لا تعارض حصول المانيا على (٤٠) بالمائة من

---

(٥٨) خلاصة امتياز انجكاب فى المصدر التالى : *Mesopotamia, Handbook no.* 63 (H.M. Stationery Office, 1920), pp. 96-98.

(٥٩) محاضر مجلس العموم البريطانى لعام ١٩١٣ : *Parliamentary Debates,* House of Commons, vol. LIII, 5th S., 1913, p. 394.

(٦٠) راجع النص فيما يلى : *Political Science Quarterly,* March 1923, vol. 38, pp. 29-44.

حصة تركيا فى شركة انجكاب ـ أى ان يكون لألمانيا (٢٠) فى المائة من مجموع الاسهم[٦١] • واتفق الطرفان على المساواة بينهما فى تسهيل حركة المرور وفى اجور النقل بواسطة سكك وانهار آسيا العثمانية • ونصت المواد الاخرى على ان يكون فى مجلس الادارة لشركة سكة حديد بغداد عضوان بريطانيان توافق عليهما حكومتهما • وان تكون نهاية السكة فى البصرة ، والا تمتد الى الخليج العربى الا بموافقة بريطانيا • ونصت ايضا على امتناع المانيا عن انشاء ميناء او محطة قطار على الخليج العربى بدون موافقة بريطانيا • توافق عليهما حكومتهما • وان تكون نهاية السكة في البصرة ، العثمانية ، بانشاء الموانىء النهرية فى بغداد والبصرة والافادة منها (حسب امتياز عام ١٩٠٣) ، وان يكون لبريطانيا فيها مالا يزيد على (٤٠) في المائة من مجموع الاسهم •

ولقد كان يؤمل من تسوية الخلافات بين الطرفين ، كما اشار هرمان اونكن فى حينه « ادخال القناعة فى نفوس الالمان بأن انكلترا مستعدة باخلاص لفتح السبل التى كانت حتى ذلك الحين موصدة امامهم بانتظام »[٦٢] • وفيما يتعلق بمشروع سكة حديد بغداد خاصة فان آراء ذوى الخبرة من الالمان ، وفى مقدمتهم الفون سيمنز (Georg von Siemens) والفون كفينر (von Gwinner) كانت تدعو دائما الى « سياسة الحكمة والروية ، ولا سيما تلك التى تحتفظ بالسلم » لانه الوسيلة الوحيدة التى تضمن نجاح المشروع • وكذلك شعر البريطانيون ، بعد لأى وطول أمد ، بان مصالحهم الخاصة تقتضي التوصل الى اتفاق حول المشروع • وعلى هذا تم الاتفاق المنشود بمختلف مراحله على ايدى محترفي السياسة

---

(٦١) وهذه كانت من قبيل الخاتمة بالنسبة للاتفاق المفصل الذى تم عقده بين شركة سكة حديد بغداد واللورد انجكاب فى ٢٣ شباط ـ فبراير سنة ١٩١٤ • راجع نص الاتفاق فيما يلي :
British Documents, op. cit., vol. X, pt. II, pp. 329-333.

(٦٢) مقال هرمان أونكن (Hermann Onken) عن « المانيا تحت حكم وليم الثانى ، ١٨٨٨ ـ ١٩١٣ » فى مجلة :
Quarterly Review, vol. 219, year 1913, p. 581

الذين خدموا بذلك قضية السلم على ما يبدو ، بدبلوماسيتهم الحكيمة كما يقال • ولكن الواقع لم يلبث ان سخر من ذلك الوفاق وغيره من نتاج الانانية المطلقة فى التعامل الدولى ، فكانت الحرب هى فصل الخطاب • والى مثل هذه النتيجة اشار احد كبار ساسة الالمان حيث قال :

لقد احتاجت آراء سيمنز Siemens ستة عشر عاما من المفاوضات حتى اشرفت على التحقيق • وعندئذ تسلم سفيرنا فى لندن ، الامير ليخنوسكي Prince Lichnowsky تصديق المعاهدة الانكليزية ـ الالمانية مكتوبة بخط ممتاز ومجهزة بختم رائع في نفس اليوم الذى اعلنت فيه انكلترا الحرب علينا عقب غزونا بلاد البلجيك[٦٣] •

النهاية فى سبيل الحرب

وليس بدعا ان تنوب الحرب فى حسم القضية مناب تلك المفاوضات المديدة والوفاق المرموق • فالدبلوماسية لم تكن تعالج جذور الخصومات والمنافسات ، على الرغم مما يضفيه بعض الكتّاب ، من امثال جابمان ، على امثال تلك المفاوضات والتسويات من ثقة وتقدير[٦٤] • وان ننس لا ننس ما تتصف به الدبلوماسية من وحدة الهدف والتنسيق ، وما تستند اليه من دوافع وغايات عريقة فى الانانية ـ كما اشرنا سلفا فى مقدمة الكتاب •

فالى جانب ما اتينا الآن على خلاصته من تقارب بين بريطانيا من جهة ، وكل من المانيا وتركيا من الجهة الاخرى ، نشبت هنالك بين الطرفين أزمة حادة ، وتكشفت نوايا مريبة ، من جراء بعثة عسكرية المانية ، هى بعثة القائد ليمان فون ساندرس (Liman von Sanders) التى جاءت الى تركيا

---

(٦٣) « مذكرات الامير فون بيلو ١٨٩٧ ـ ١٩٠٣ » ، الترجمة الى الانكليزية من قبل فويخت (F.A. Voigt) ، ص ٢٤٨ • ومن هذه الصفحة ايضا نقلت العبارة السابقة :
Bülow, Prince von, *Memoirs*, 1897-1903 (London and N.Y., 1931), p. 348.

(٦٤) راجع ما ورد أعلاه ، ص (٢٤٢ ـ ٢٤٣) •

بناء على طلب الحكومة التركية • فلدينا عن القضية من الوثائق ما يكفى لتبيان حقيقة الموقف ، وخاصة ما يتعلق منه بالسياسة البريطانية التى ينبغى لها ان تظهر عارية على مسرح التاريخ(٦٥) •

فالبعثة العسكرية هذه كانت ، كما نعلم ، باتفاق الطرفين حسب العرف والتعامل الدولى • ومع هذا فقد حاولت كل من تركيا والمانيا ازالة مخاوف دول التفاهم الثلاثي من الامر • فوضحتا ، ولكن دون جدوى ، بأن البعثة لم تكن تختلف عن بعثة الفون دير جولتز (von der Goltz) التى كان الغرض منها تنظيم الجيش التركى ورفع مستواه • وما أن وصل القائد ساندرس الى القسطنطينية بتاريخ ١٤ كانون الاول سنة **١٩١٣** حتى كان سفراء كل من بريطانيا وفرانسا وروسيا لدى الباب العالى فى انتظار الجواب على استفساراتهم من الحكومة التركية عن جلية الامر • وفى اليوم التالى ، المصادف **١٥** كانون الاول ، تقدمت الحكومة التركية بجوابها الرسمى الذى اعلنت فيه : « ان القائد هو رئيس البعثة ، وعضو المجلس الحربى ، ومفتش المدارس العسكرية ، وقائد الفرقة الاولى ، غير ان قيادته فنية بحتة • وان المضائق ، والحصون ، وحفظ الامن فى القسطنطينية ، لا تدخل ضمن دائرة عمله »(٦٦) • والى جانب هذا قام ساندرس نفسه بما يلائم سياسة حكومته فى سبيل التفاهم ، اذ تخلى عن قيادة الفرقة الاولى مكتفيا بمنصب المفتش العام للجيش التركى ، المنصب الذى كان يبدو أقل اثارة لخواطر المنافسين •

هذا مع العلم بان بريطانيا لم تكن فى موقف يسمح لها منطقيا بمعارضة البعثة الالمانية • ذلك لان الاميرال البريطانى ليمباس (Admiral Limpus)

---

(٦٥) معلومات أصيلة ومفصله عن هذه الازمة موجودة فى مجموعة السجلات البريطانية ، وفى مجموعة السجلات الالمانية ، كما يلى :
British Documents, op. cit., vol. X, pt. 1, pp. 338-423; and in *Die Groose Politik*, vol. XXXVIII, pp. 193-318.

(٦٦) Quoted by G.P. Gooch, *History of Modern Europe, 1878-1919*, p. 519.

كان فى الوقت ذاته يحتل فى البحرية التركية مركزا لا يقل اهمية عن مركز القائد الالمانى فى الجيش التركى • فلأجل ان ترفع مستوى قواتها البحرية ، كانت الحكومة التركية قد منحت الاميرال البريطانى سلطة عليا ، مما ادرك الالمان مغزاه وذكّروا به مناوئيهم على سبيل المقارنة والايضاح • ولقد شعر البريطانيون بحراجة موقفهم منذ البداية ، واعترفوا به لانفسهم من وراء الستار ، كما يبدو فى برقية سرية بتاريخ ١١ كانون الاول سنة ١٩١٣ ، من سفير بريطانيا فى القسطنطينية السر ماليت (Sir L. Mallet) الى وزير الخارجية السر ادوارد غراى • ففى هذه الرسالة اعترف السفير بطبيعة بعثتهم البحرية حيث قال : « انها تؤدى حالا الى اثارة مشكلة كبيرة جدا ، من الاحسن الا تثار •. وان مسألة القيادة الالمانية هى التى وجهت اليها الانتباه • فلو تقدمنا نحن بالاحتجاج لوجب علينا ان نكون مستعدين لبحث مركز الاميرال • ولقد سألت الاميرال سرا ••• عما اذا كان فى وسعه ، عند اعادة تعيينه فى نيسان ، ان يتخلى عن لقب قائد الاسطول ويحتفظ بالسلطة الحقيقية »(٦٧) •

ومهما يكن من امر فقد سارت البعثة الالمانية قدما في طريقها ، وعلى اثرها انتعشت الريب والشبهات • فلقد خشي البريطانيون ، على ما يبدو ، من ان تؤدى بعثة ساندرس الى مؤازرة الجيش التركى للجيش الالمانى فى حالة نشوب حرب بريطانية ـ المانية • كما وان مثل هذا الاحتمال الخطير لم يكن بطبيعة الحال بعيدا عن تفكير الالمان •

وما ان نشبت الحرب بين بريطانيا والمانيا في ٤ آب سنة ١٩١٤ حتى اخذت العلاقات البريطانية ـ التركية تسير من سىء الى اسوء • وكان لسياسة عدم الثقة التى انتهجتها بريطانيا تجاه تركيا ابلغ الاثر فى تردى العلاقات بين الطرفين ، كما اتضح منذ البداية فى قيام بريطانيا بمصادرة البارجتين (رشادى وسلطان عثمان) اللتين كانت تقوم بانشائهما لحساب تركيا لقاء مبلغ مدفوع سلفا • وعندئذ اغتنمت المانيا الفرصة ، فباعت لتركيا

---

(٦٧) *British Documents, op. cit.*, vol. X, pt. I, p. 370.

البارجتين غوبن (Goeben) وبرسلاو (Breslau) ، مما ادى الى امتعاض بريطانيا واتخاذها موقفا حدده وزير البحرية ونستون شرشل بقوله : « ان الشرط الاساسى الذى نصر عليه يقضى بعودة جميع ضباط وبحارة كلتا البارجتين ، دون استثناء ، الى المانيا وتعهدهم بعدم الرجوع الى الخدمة فى اثناء الحرب »(٦٨) . غير ان تركيا لم تستجب ، فسحبت بريطانيا بعثة الاميرال لمباس ، وازدادت العلاقات سوء بين الطرفين .

ولم يعد السلم المضطرب بينهما مستساغا لدى الحكومة البريطانية ، كما اشار وزير البحرية فى رسالة الى السر ادوارد غراى بتاريخ ٢٣ ايلول حيث قال : « اننا نقاسى وضعا بالغ الخطورة من جراء العداء التركى . فجميع اسطولنا الخاص بالبحر المتوسط مقيد الآن فى الدردنيل . وفى كل يوم نحاول شراء الحياد التركى بالاذعان والوعود . ولكننا ... فى محاولة تهدئة تركيا عرقلنا سياستنا فى البلقان »(٦٩) . غير ان وجهة النظر البريطانية هذه اختلفت عما كان يراه الطرف المقابل . ولعل تركيا كانت لا تزال ترغب فى الاحتفاظ بالسلم مع بريطانيا ، كما يبدو فى مقال السر أدوين بيرز (Sir Edwin Pears) عن « تركيا والحرب » بتاريخ ٦ تشرين الاول ، أى قبل نشوب الحرب بينهما بشهر واحد . وفى هذا المقال القيم اشارة الى مبلغ استياء تركيا من مصادرة البارجتين ، اذ « لم يحدث ان قامت انكلترا منذ خمسين عاما بما ازعج الاتراك الى حد يقرب من ذلك »(٧٠) .

ولقد كانت بلاد الرافدين فى طليعة المناطق العثمانية التى انطوت على ما يجعل الحياد التركى امرا غير مستساغ فى نظر الحكومة البريطانية . ذلك لان صفة الحياد كانت تلزم الحكومة التركية بأن تسمح لالمانيا

---

(٦٨) Churchill, W.S., *The World Crisis, 1911-1915* (New York, 1923), pp. 525-526.

(٦٩) *Ibid*, pp. 536-537.

(٧٠) Pears, Sir Edwin, "Turkey and the war" in the *Contemporary Review*, Nov. 1914, vol. 106, pp. 589, 584-597. Article dated Oct. 6.

بالاستمرار فى انشاء سكة حديد بغداد الى نهايتها فى مدينة البصرة • وكان انشاء السكة يجرى دون توقف ، وبنجاح مرموق[٧١] • فكان عامل الزمن ضدها فى هذه الجبهة الخطيرة ، وكان عليها ان تقوم بعمل حاسم قبل فوات الاوان • وما ان حل خريف تلك السنة حتى كانت بريطانيا قد استعدت لغزو جنوبى وادى الرافدين فى اية لحظة • هذا بينما لم تقم تركيا باى استعداد لصد مثل هذا الغزو الذى لم تكن ترى ما يبرره أو ينذر بقرب وقوعه • وكان جل اهتمامها موجها الى الجبهةالروسية التى شنت(تركيا) على موانئها فى البحر الاسود هجوما بحريا بتاريخ ٢٩ تشرين الاول ، فاعلنت روسيا الحرب عليها بعد ذلك باربعة ايام • ولم تلبث بريطانيا أن اعلنت الحرب عليها ايضا فى ٥ تشرين الثانى ، فاحرزت نصرا مبينا فى غضون ايام • ففى السادس من الشهر استولت على الفاو ، الميناء البحرى الوحيد لبلاد الرافدين ، وكان استيلاؤها عليه دون مقاومة تذكر • وفى الثانى والعشرين منه احتلت مدينة البصرة وهيمنت على جنوبى البلاد • غير ان الحرب استمرت بعدئذ سجالا وتمادت سنين ، حتى كان احتلال بغداد فى آذار سنة ١٩١٧ ، والموصل فى تشرين الثانى من السنة التالية •

وعندئذ كانت نهاية قصة طال امدها وتشعبت فصولها • فكانت الحرب العالمية الاولى بداية مرحلة جديدة فى تاريخ البلاد التى اصبحت تدعى بالمملكة العراقية بدلا من بلاد الرافدين العثمانية واستمرت العلاقات البريطانية ـ العراقية تجرى بواسطة اجهزة واساليب جديدة ، وفى ظروف تختلف جوهريا عن كل ما سبق • غير ان طبيعة الدبلوماسية بقيت على حالها : من حيث الباعث ، والهدف ، وعنف المصير •

---

(٧١) راجع اعلاه ، ص (٢٦٣ ـ ٢٦٤) •

نخبة المصادر

وهذه المصادر مقسمة فيما يلى الى أربعة أقسام : (١) مصادر أولية رسمية • (٢) مصادر أولية غير رسمية ، من قبيل المذكرات والتآلف المعاصرة • (٣) كتب مختارة ذات اختصاص • (٤) مجلات تحوى مقالات قيمة ذات اختصاص • وقد ضربنا صفحا عن الكثير من التصانيف والمؤلفات التى هى أقل شأنا علميا من ذلك •

ولا غرابة ان تكون « نخبة المصادر » فى موضوعنا جميعها فى اللغات الاجنبية (وفى الانكليزية بالدرجة الاولى) ، ذلك لان الانكليز كانوا أدرى بما يريدونه فى العراق وفى الدولة العثمانية اجمالا ، من اهل العراق والحكومة العثمانية نفسها راجع مثلا ما ورد اعلاه (ص ١٦١ ــ ١٦٣) • كما وان هؤلاء الاجانب وجهوا انتباها كبيرا لمصالحهم فى العراق ، وقاموا بتدوين ذلك على أوسع واتم ما يكون ، بما فى ذلك من محاضر (مناقشات) برلمانية مسهبة ، وتقارير تقدمت بها لجان برلمانية استنادا الى معلومات مستقاة من منابعها الاصلية •

ولقد يفيد ان نذكر بان مناقشات البرلمان البريطانى ظهرت فى خمس سلاسل (Series) متتالية • اجتمعت فى أربع منها محاضر مجلسي اللوردات والنواب ، وانفصلت فى السلسلة الخامسة ، على الوجه التالى : السلسلة الاولى (من سنة ١٨٠٣ الى ١٨٢٠) تألفت من واحد واربعين مجلدا • والثانية (١٨٢٠ ــ ١٨٣٠) من خمسة وعشرين مجلدا • والثالثة (١٨٣٠ ــ ١٨٩١) من مئتين وستة وخمسين مجلدا • والرابعة (١٨٩٢ ــ ١٩٠٨) من مئة وتسعة وتسعين مجلدا • أما السلسلة الخامسة (5th S.) فتبدأ لكل من مجلس العموم ومجلس اللوردات على انفراد ، منذ سنة ١٩٠٩ •

أما التقارير البرلمانية (Parliamentary Papers) المتعلقة بشتى الشؤون الداخلية والخارجية فيكفي هنا مجرد التنويه بذكرها • فهى تعد بالآلاف ، ومرتبة ترتيبا متقنا ، يجعل من السهل الرجوع الى شتى مواضيعها

ما بين عام ١٨٣٣ حتى اليوم ٠ وقد تطرقنا الى هذا الترتيب فى (نخبة المصادر) من كتابنا فى طبعته الانكليزية الاولى والثانية ٠

ولا ننسى بان موضوعنا متعلق بمصالح دولة أجنبية واحدة (هى بريطانيا) ، وبجزء قصي من اجزاء الامبراطورية العثمانية (هو العراق) ٠ ولعل ابرز ما هنالك فى اللغة التركية من المصادر الاولية عن العلاقات الخارجية اجمالا ، انما هو « معاهدات مجموعه‌سي » المتألفة من خمسة مجلدات ، طبعت فى حقيقة مطبعه‌سي ، وجريدة عسكرية مطبعه‌سي ، خلال السنوات (١٢٩٤ ـ ١٢٩٨هـ) ٠ غير ان هذه المجموعة لا تكاد تحوى شيئا يذكر في موضوع بحثنا ، خلافا لما نجده فيما يلى بغزارة واتقان : فى القسم الاول ، الخاص بالمصادر الاولية الرسمية ٠

وعرضا نذكر بان المادة الواحدة من هذا (القسم الاول) وحده قد تتألف من عشرة مجلدات ضخمة ، لابل وقد تبلغ الاربعين مجلدا ، كما فى Die Grosse Politik الخاصة بالشؤون الدولية ٠ وثلاثة عشر مجلدا ، كما فى المعاهدات التجارية لجامعها (Hertslet, Lewis) ٠ أو أحد عشر مجلدا لجامعها (Aitchison, C.U.) ، وهذه تحوى من **الوثائق** عن علاقة بريطانيا بالدولة العثمانية ما لا تحويه أية مجموعة أخرى رسمية كانت أم غير رسمية ٠

أما الاقسام الثلاثة الاخرى من مصادرنا التالية ، فانها تضارع القسم الاول من حيث الاهمية التاريخية ، بما فى ذلك قسم المجلات (وهو الرابع) الذى يحوى مقالات مسهبة أصيلة ، معظمها من الطراز الممتاز ٠

ولما كنا قد ضربنا صفحا فيما يلى عن ذكر دوائر المعارف (Encyclopedias) ، والقواميس (Dictionaries) ، والكتب المرشدة الى المصادر (Guide Books) ، فلا أقل من أن نذكر مثلا واحدا على كل منها مما له علاقة مباشرة بموضوعنا :

١ ـ دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة) المتألفة من ٢٨ مجلدا ٠ وهذه خلافا لما بعدها من طبعات ، موجهة لذوى الاختصاص اكثر من توجيهها لعامة المثقفين ٠ ومثلا على ذلك نذكر مقال ويلكنسون المشار اليه اعلاه (ص ١٩٩ ، هامش ٢) ٠

٢ ـ قاموس الاعلام البريطانيين (Dictionary of National Biography) الذى صدر منذ (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩) باثنين وعشرين مجلدا ، وظهرت له باستمرار تتمات قيّمة منذ ذلك الحين ٠ وله مكانة ممتازة فى معرفة شؤون بريطانيا الداخلية والخارجية ٠ ولقد ورد ذكره عندنا مثلا (ص ٤٥

هامش ٢٦) في موضوع الرحالة العديدين الذين مروا بالعراق ودرسوه أحيانا ٠

٣ ـ ومن بين الكتب المرشدة العديدة (Guide Books) ، نذكر واحدا ، جامعا « نخبة » المؤلفات عن الشرق الادني والاوسط ، الصادرة فى مختلف اللغات الغربية ، لجامعه R. Ettinghausen ، وناشره (The Middle East Institute, Washington D.C. 1952) ٠ وعرضا نذكر ان كتابنا هذا ، عندما كان لا يزال فى بدايته ، مجرد أطروحة لشهادة الدكتوراه (راجع اعلاه ، ص ١٧) ، تناولته هذه المجموعة القيمة ، فكان من بين القليل الذى أشارت اليه بتقدير ممتاز (ص ٦٦ ، رقم ١١٦٨) ٠

والآن بعد هذه التوطئة ، نتقدم الى ذكر مصادر بحثنا ، آملين أن تحاول أمهات دور الكتب العربية اقتناء معظمها ، ان لم يكن جميعها ٠ وهذا أمل يجاري ما ابديناه فى مقدمة الكتاب (ص ٢٦ ـ ٢٩) من أمل فى قيام معاهدنا العلمية العليا بدراسة وتدريس ناحية خطيرة فى التاريخ الحديث ـ والتقدم فى انجازها على الوجه الامثل ٠

SELECT BIBLIOGRAPHY

1. OFFICIAL DOCUMENTS

Aitchison, C.U., *Collection of Treaties, Engagements and Sanals relating to India and Neighbouring Countries,* I-XI (Calcutta, 1898), XII-XIII (Calcutta, 1909).

Authentic Official documents relative to the negotiation with France (Chapple, London, 1803.

Bernhardt, Gaston de (ed.), *Handbook of treaties etc, relating to commerce and navigation, between Great Britain and foreign powers, wholly or partially in force on July 1, 1907* (London 1908).

British and Foreign State Papers 1812-1828, I-XV.

British documents on the origins of the war, 1898-1914, I-XI.

Colonial Administration, 1800-1900 (U.S. Bureau of Statistics, Treasury Department, 1901).

Consular reports on Baghdad and on Basra, 1904-1914: twenty annual reports.

Die Grosse Politik der Europäischen Kabinette, 1871-1914, I-XL.

Foreign Office records [British],F.O., 78 (1873-1914). About sixty volumes under "Turkey," that are of import to Mesopotamia.

Great Britain, Parliamentary Papers, Miscellaneous (22nd December, 1806).

Hertslet, Edward, *Treaties and tariffs regulating the trade between Great Britain and foreign powers, containing most-favoured nation clauses applicable to Great Britain in force on the 1st January, 1875* (London, 1875).

———, *Treaties, etc., concluded between Great Britain and Persia, and between Persia and other powers, wholly or partially in force on the 1st April 1891* (London 1891).

Hertslet, Lewis (comp.), *Commercial Treaties,* I-XIII (London, 1827-1877).

Noradounghiam, Gabriel, *Recueil d'actes Internationaux de l'Empire Ottoman*, 4 vols., (Paris, 1887-1903).

Owen, S.J., (ed.), *A Selection from Wellesley's Despatches* (Oxford, 1877).

Parliamentary Debate, 1st S., X: Anglo-Ottoman relations, roughly throughout 1800-1808.

———, 3rd S., 1834, XXIV: The Euphrates and Egyptian routes to India.

———, 3rd S., 1857, CXLVII: The Euphrates railway project.

———, 4th S., 1902, CI: British attitude at the time towards the Bagdad Railway enterprise.

———, 4th S., 1903 CXX: British attiture at the time towards the Bagdad Railway, especially in regard to Mesopotamia and the Persian Gulf.

———, 4th S., 1903 CXXI: Great Britain, lower Mesopotamia and the Persian Gulf.

———, House of Lords, 5th S., 1911, VII: British concern regarding that section of the Bagdad Railway which was to run through lower Mesopotamia to the Persian Gulf.

———, House of Lords, 5th S., 1913, LIII: Anglo-Turkish agreement of July 1913 concerning the Bagdad Railway.

———, House of Commons, 5th S., 1913, LV: Regarding control of the Lynch Co. over navigation in Mesopotamian waters.

Parliamentary History, XXVI.

Parliamentary Papers, 1834, No. 478: Earliest comparative study of Egyptian and Euphrates proposed British routes to India.

———, 1837, No. 540: F.R. Chesney's Euphrates expedition, with references to what subsequently came to be known as the Euphrates and Tigris Steam Navigation Compony.

———, 1873-38, No. 356: Account of proceedings and results of F.R. Chesney's Euphrates expedition.

———, 1871, No. C 386; 1872, No. C 322; 1872, No. C 534: These three papers deal with the Euphrates Railway project; the second being the best single document on the subject, while the third is a collection of Consular reports relative to the same.

———, 1908, No. Cd 3882: Statement of what the British regarded as their interests in Persia during the decade preceding the

Anglo-Russian agreement of 1907; with important references to Mesopotamia.
————, 1914-1916, No. Cd 7628: "Events leading to the rupture of relations with Turkey," as revealed in 184 telegraphic despatches.
————, 1914-1916, No. Cd 7716: Summary of events which led up to war with Turkey, submitted by the British Ambassador at Constantinople.
————, 1917, No. Cd 8610: Concerning the "Origin of the Mesopotamia Expedition," of the first world war.
————, 1920, Cmd 1061: Pre-1914 British interests in Mesopotamia, as revealed in a far reaching [though short-lived] system of occupation of the land, 1917-1920.

2. CONTEMPORARY MEMOIRS, NARRATIVES, ETC.

Ainsworth, W.F., *A Personal Narrative of the Euphrates Expedition,* 2 vols. (London, 1888).
Bülow, Prince B. von, *Memoirs of Prince von Bülow*: translated from German by F.A. Voigt (Boston, 1931-32).
Chesney, F.R., *The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris, carried on by order of the British Government, in the years 1835, 1836, and 1837,* 2 vols. (London, 1850).
————, *The Russo-Turkish Campaigns of 1828-1829: with a view of the present state of affairs in the East* (second ed., London, 1854).
Hakluyt, Richard, *The Principal Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation,* 12 vols. (Glasgow, 1903-05).
Hedges, William, *Diary, 1681-1687* (Hakluyt Society ed., London, 1887).
Kaye, J.W., *The life and correspondence of Major-General Sir John Malcolm,* 2 vols. (London, 1856).
Lardner, Dionysius, (ed.), *The History of Martitime and Inland Dis-*covery, 3 vols. (London, 1830-31).
Moltke, Count Helmuth von, *Essays, speeches, and memoirs,* 2 vols. (New York, 1893): "The essays translated by C.F. McClum-

pha; the speeches by C. Barter; and the memoirs by Mary Herms''.

New letters of Napoleon I omitted from the edition published under the auspices of Napoleon III — English translation by Lady Mary Loyd (London, 1898).

Olivier, G.A., *Travels in the Ottoman Empire, Egypt and Persia,* ''translated from the French'' (London, 1801).

Oppenheim, M. von, *Vom Mittelmeer Zum Persischen Golf* (Berlin, 1899-1900).

Pinkerton, John, *General collection of the best and most interesting voyages, and travels in all parts of the world; many of which are now first translated into English,* 17 vols. (London, 1808-1814).

Purchas, Samuel, *His Pilgrimes,* 4 vols. (London, 1625).

Sachau, E., *Reise in Syrien und Mesopotamien* (Leipzig, 1883).

The Times History of the [first world] *war,* I-XXII.

Treloar, Sir W.P., *With the Kaiser in the East*: ''Notes of the imperial tour in Palestine and Syria, first published in October and November, 1898, by Sir William Treloar, with a preface by Frederic Wile ...,'' (London, 1915).

William II, Emperor, *The Kaiser's speeches*: translated by Wolf von Schierbrand (N. Y., and London, 1903).

3. BOOKS AND MONOGRAPHS

Albertini, Luigi, *The origins of the war of 1914,* 3 vols. (London and N.Y., 1953): translated and edited by Issbella M. Massey.

Andrew, W.P., *India and her Neighbours* (London, 1978).

————, *Euphrates Route to India, in connection with the Central Asian and Egyptian Questions* (London, 1882).

Auzout, A., *La France et Muscate eux XVIII* eme *et XIX* eme *Siècles,* Revue d'Histoire diplomatique, XXIII (Paris, 1909).

Banse, E., *Die Türkei: eine Moderne Geographie* (Berlin, 1916 and 1919).

Barker, J.E., *The Foundations of Germany* (London, 1918).

Becker, C.H., *Deutschland und der Islam* (Stuttgart, 1914).

Birdwood, G.C.M., *Report on miscellaneous old records at the India Office* (London, 1891).

Boulger, D.C., *England and Russia in Central Asia,* 2 vols. (London, 1879).

Brandenburg, E., *From Bismark to the World War: a history of German foreign policy, 1870-1914* (London, 1927): English translation by Elizabeth Adams.

Bruce, John, *Annals of the Honourable East India Company,* 3 vols., (London, 1810).

Buckley, A.B., *Mesopotamia as a country for future development* (Ministry of Public Works, Cairo, 1919).

Bülow, Prince B. von, *Imperial Germany:* translated from the German by Marie Lewenz (New York, 1915).

Butterfield, P.K., *The diplomacy of the Bagdad Railway* (Gottingen, 1932): Doctoral dissertation.

Cameron, V.L., *Our future highway to India,* 2 vols. (London, 1880).

Chapman, Maybelle R., *Great Britain and the Bagdad Railway* (Massachusetts, 1948): Doctoral disseration.

Chirol, Sir V., *The Middle Eastern Question* (London, 1903).

Churchill, W.S., *The world crisis, 1911-1915* (New York, 1923).

Coke, R., *The heart of the Middle East* (London, 1925).

Colquhoun, Archibald R., *Russia Against India : The struggle for Asia* (New York and London, 1900).

Coquelle, P., *Napoleon and England, 1803-1813* (English translation by Gordon Knox, London, 1904).

Cotton growing in Mesopotamia (The Bulletin of the Imperial Institute, vol. 18, 1920).

Coupland, R., *East Africa and its Invaders: from the Earliest times to the death of Seyyid Saïd in 1856* (Oxford, 1938).

Cramb, J.A., *Germany and England* (New York, 1914).

Curzon, G.N., *Russia in Central Asia, in 1889, and the Anglo-Russian Question* (London, 1889).

——— *Persia and the Persian Question,* 2 vols. (London, 1892).

Deutsch, H.C., *The Genesis of Napoleonic Imperialism* (Harvard University press; Combridge, 1938).

Deutschlands Ansprüche an das Türkische Erbe : Herausgegeben vom All-Deutschen Verbande (München, 1896).

Dodwell, H.H. (ed.), *The Cambridge History of the British Empire,* Vol. IV: British India 1497-1858 (Cambridge, 1929).

Earle, E.M., *Turkey, the Great Powers and the Bagdad Railway* (New York, 1923): Doctoral dissertation.

Epstein, M., *The Early History of the Levant Company* (London, 1908).

Farley, J., *Turkey* (London, 1866).

————, *The resources of Turkey* (London, 1862).

Fay, S.B., *The origins of the world war,* 2 vols. (New York, 1928).

Foster, William, *England's Quest of Eastern Trade* (London, 1933).

Fournier, A., *Napoleon I* (London, 1914).

Fraser, David, *The Short Cut Route to India; the record of a journey along the route of the Bagdad Railway* (London, 1909).

Fraser, Lovat, *India under Curzon and after* (London, 1911).

Crothe, H., *Deutschland, die Türkei, und der Islam* — Zwischen Krieg und Frieden (Leipzig, 1914).

————, *Die Baghdad Bahn und das Schwäbische Bauernelement in Transkaukasien und Palästina : gedanken Zur Kolonisation Mesopotamiens* (München, 1902).

Hall, W.H., *Reconstruction in Turkey* (New York, 1918).

Hammer, S.C., *William II [Emperor] as seen in contemporary documents and judged on evidence of his own speeches* (London, 1917).

Handbook of Mesopotamia (Admiralty-Intelligence Division, vol. 1, 1918): Official.

Hassert, E.K., *Das Türkische Reich, geographisch und wirtschaftlich* (Tübingen, 1918).

Hewett, Sir J.P., *Report for the Army Council on Mesopotamia* (London, 1919).

Hilprecht, H.V., *The excavations in Assyria and Babylonia* (Philadelphia, 1904).

Hoepli, H.U., *England im Nahen Osten : Das Königreich Iraq und die Mossulfrage* (Erlangen, 1931): Doctoral dissertation.

Hoskins, H.L., *British Routes to India* (Philadelphia, 1928).

Huart, Clement, *Histoire de Bagdad dans les temps modernes* (Paris, 1901).

Ilitch, A., *Le Chemin de fer de Magdad: au point de vue Politique, Economic et Financier, ou l'Expansion de l'Allemagne en Orient* (Bruxells and Leipzig, 1913): Doctoral dissertation.

Jastrow, M., *The war and the Bagdad Railway* (Philadelphia, 1918).

Jeudwine, J.W., *Studies in empire and trade* (New York, Toronto, 1923).

Jorga, Nicolae, *Geschichte der Europäischen Staaten :* vol. 4, Geschichte des Osmanischen Reiches, 1774-1907 (Gotha, 1911).

Kayser, Mathilde, *Die Verkehrsstellung des Persischen Golfes* (Münster, Westphalia, 1936): Doctoral dissertation.

Keller, A.G., *Colonization* (Boston, 1908).

Langer, W.L., *The diplomacy of imperialism,* 1890-1902, 2nd ed. (New York, 1951).

Lewin, E., *The German Road to the East* (London, 1916).

Loftus, W.K., *Travels and Researches in Chaldea and Susiana* (London, 1857).

Longrigg, S.H., *Four Centuries of Modern Iraq* (London, 1925).

Low, C.R., *History of the Indian Navy,* 2 vols. (London, 1877).

McCoan, J.C., *Our new protectorate : Turkey in Asia, its geography, races, resources, and government,* 2 vols. (London, 1879).

Mahan, Admiral A.T., *Retrospect and Prospect : studies in international relations* (Boston, 1902).

Mesopotamia, (Handbook No. 63, London, 1920): Official.

Miles, S.B., *The Countries and Tribes of the Persian Gulf,* 2 vols. (London, 1919).

Miller, William, *The Ottoman Empire and its Successors, 1801-1922* (London, 1936).

Moberly, F.J. (comp.), *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918,* 4 vols. (London, 1923-1927): Official.

Moltke, H.K.B., *Field-Marshal von Moltke as a correspondent* (New York, 1893): translated by Mary Herms.

Moon, P.T., *Imperialism and world politics,* (New York, 1947).

Morris, J., *The War and the Bagdad Railway* (Philadeljhia, 1918).

Mowat, R.B., *The Diplomacy of Napoleon* (London, 1924).

Parfit, J.T., *Twenty years in Bagdad and Syria, showing Germany's bid for the mastery of the East* (London, 1916).

————, *Mesopotamia : The key to the future* (London, 1917).

————, *Marvellous Mesopotamia : The world's wonderland* (London, 1920).

Pears, Sir. E., *Forty years in Constantinople : the recollections of Sir Edwin Pears, 1873-1915* (London, 1915).

Pelissie du Rausas, G., *Le Régime des capitulations dans l'Empire Ottoman,* 2 vols. (Paris, 1902-1905).
Persian Gulf (Handbook, London, 1920): Official.
Prentout, H., *L'Ile de France sous Decaen* (Paris, 1901).
Puryear, V.J., *International economics and diplomacy in the Near East; a study of British commercial policy in the Levant, 1834-1853* (London, 1935).
Rawlinson, H.C., *England and Russia in the East* (London, 1875).
Ritter, A. [pseudonym: Winterstetten, R. von], *Berlin-Bagdad : Neue Ziele mittel-europäischer Politik* (München, 1915).
Roberts, P.E., *History of British India* (oxford, 1938).
Rohrbach, P., *Die Bagdad Bahn* (Berlin, 1911).
————, *Die wirtschaftliche Bedeutung West-asiens* (Halle, 1902).
————, *German world policies*: translated by Edmond von March (New York, 1915).
———— *Um Bagdad und Babylon, vom Schauplatz deutscher Arbeit und Zukunft in Orient* (Berlin, 1909).
Rose, J.H., *The origins of the War* (Cambridge, 1914).
Sarolea, C., *The Anglo-German Problem* (London, 1912 and 1915).
Schäfer, C.A., *Die Entwicklung der Bagdad Bahn politik* (Weimar, 1916).
————, *Deutsch-Türkische Freundschaft* (Stuttgart, 1914).
————, *Die Mesopotamisch-Persiche Petroleumfrage : Archiv für Wirtschaftsforschung im Orient, Heft I* (Weimar, 1916).
Schlagintweit, M., *Deutsche Kolonisations-bestrebungen in Kleinasien* (München, 1900).
Schuyler, Eugene, *Peter the Great,* 2 vols. (New York, 1884).
Shupp, F.P., *The European Powers and the Near Eastern Question, 1806-1807* (New York, 1931).
Sprenger, A., *Babylonien, das reichste Land in der Vorzeit und das lohnendste Kolonisationsfeld für die Gegenwart* (Heidelberg, 1886).
Strandes, Justus, *Die Portugiesenzeit von Deutsch —und English— Ostafrika* (Berlin, 1899).
Susa, Nasim, *The Capitulatory regime of Turkey; its history, origin, and nature* (Baltimore, 1933): Doctoral dissertation.
Sykes, Percy, *A History of Persia,* 2 vols, (2nd ed., London, 1921).
Sykes, Sir M., *The commercial future of Mesopotamia* (London, 1917).

Townsend, Mary E., *Origins of modern German colonialism, 1871-1885* (New York 1921): Doctoral dissertation.

Transportation and irrigation in Mesopotamia (Commerce Reports, No. 50, Washington, 1919): Official.

Usher, R.G., *Pan-Germanism* (Boston and N.Y., 1913).

Vambery, Arminius, *The Coming Struggle for India* (London, 1885).

Ward, Sir A.W., and Gooch, G.P., *The Cambridge Herlad* of March 30, April 4, 11, and 18, 1919, 2 vols. (New York, 1922-23).

Warren, Comte E. de, *European interests in railways in the valley of the Euphrates :* a pamphlet reproduced from the Morning Herland of March 30, April 4, 11, and 18 (1857?).

Watson, R.A., *A history of Persia, from the beginning of the nineteenth century to the year 1858* (London, 1866).

Wertheimer, M.S., *The Pan-German League,* (New York and London, 1924).

Willcocks, Sir W., *Restoration of the ancient irrigation works on the Tigris, or the recreation of Chaldea* (Cairo, 1903).

Wilson, A.T., *The Persian Gulf* (Oxford, 1928).

4. PERIODICALS

Anonymous, "Review of Lord Valentina's, G.V., Voyages and Travels, 1802-1806, 3 vols. (London, 1809), *The Quarterly Review,* (1809), vol. II.

Anonymous, "The story of the Euphrates Company", *The Near East and India,* November 24, 1932: Prepared under the auspices of the Euphrates Comapny.

Black, Charles E.D., "A railway from the Mediterranean to India," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1909).

Cadoux, H.W., "Recent changes in the lower course of the Euphrates," *The Geographical Journal,* vol. 28 (1906), 266-277.

Cameron, V.L., "My travel in Mesopotamia especially with refernce to a proposed indo-Mediterranean railway," *The Journal of the Royal United Service Institution,* vol. XXIV (1880), 187-206.

Champain, J.M. Bateman, "On the various means of communication between Central Persia and the sea," *Proceedings of the Royal Geographical Society*, vol. V, 121-138.

Cheradame, André, "The Bagdad railway," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1911).

Dillon, E.J., "The downfall of Turkey," *Contemporary Review*, vol. 106 (Dec., 1914), 713-32.

Dunn, A.J., "British interests in the Persian Gulf," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1907).

Fraser, Lovat, "The Baron and his Bagdad Railway," *The National Review*, vol. 59 (1912), 606-19.

———, "Gun-Running in the Persian Gulf," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1911).

———, "Problems of the Persian Gulf," *Procedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1908).

Geere, H.V., "Lower Mesopotamia," *United Empire* [The Royal Colonial Institute Journal], vol. VII (1916), 16-26.

Géraud, A., "A new German Empire: the story of the Bagdad Railway," *The Nineteenth Century*, vol. 75 (May, 1914), 958-972 and (June, 1914), 1312-26.

Gwinner, A. von, "The Bagdad Railway and the question of British cooperation," *The Nineteenth Century*, vol. 65 (June, 1909), 1083-1094.

Hosein, Syud, "Turkey and German capitalists," *Contemporary Review*, vol. 107 (April, 1915), 487-494.

Hutton, James, "The Shirley brothers," *The Asiatic Quarterly Review* (1887), vol. IV.

Jackson, Sir J., "Engineering problems of Mesopotamia and the Euphrates valley," *The Empire Review*, vol. 29 (June, 1915), 193-199.

Johnston, Sir H.H., "The Legitimate expansion of Germany," *Fortnightly Review*, vol. 78 (1905), 427-432.

Landon, Perceval, "Basra and the Shatt-ul-Arab," *Journal of the Royal Society of Arts*, vol. 63 (April, 1915), 505-519.

Lynch, H.F.B., *"The Bagdad Railway," Fortnightly Review*, vol. 89 (March, 1911), 375-386 and (May, 1911), 771-780.

Margoliouth, D.S., "Pan-Islamism," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1912).

Maunsell, F., "The Mesopotamian petroleum field," *The Geographical Journal,* Vol. IX (1897), 528-532.

Molesworth, F.C., "Mesopotamia," *Royal Engineers Jouranl,* vol. 24 (1906), 233-42.

Moritz, B., "Verkehrsverhältnisse in Mesopotamien," *Mitt. d. Geogr.* vol. II Hamburg, 1889-90).

Oncken, Hermann, "Germany under William II, 1888-1913," *Quarterly Review,* vol. 219 (1913), 556-581.

Parker, Sir Alwin, "The Bagdad Railway negotiations," *The Quarterly Review,* vol. 228 (Oct., 1917), 487-528: Published anonymously.

Pears, Edwin, "The Bagdad Railway," *Contemporary Review,* vol. 94 (Nov., 1908), 570-91.

————, "Turkey and the war," *Contemporary Review,* vol. 106 (Nov., 1914), 584-97.

————, "Turkey, Germany and the war," *Contemporary Review,* vol. 107 (March, 1915), 284-293.

Picot, Lieut. Col. H., "Railways in Western Asia," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1904).

Political Science Quarterly, vol. 38 (March, 1923), 29-44: Text of the Anglo-German Convention regarding the Bagdad Railway, 1914.

Rialle, Girard de, "An attempted French embassy to Persia under the auspices of Cardinal Richelieu, including an unpublished instruction by Louis XIII for a French embassy to Persia," *Asiatic Quarterly Review* (January, 1891), 2nd sr., vols. 1-2.

Shepstone, H.J., and Lee, J.A., "Future of Mesopotamia: how Bible land may be restored to their former greatness as a result of the World War," *Westminster (Toronto),* vol. 27 (1915), 213-20.

Sykes, Sir Mark, "Journeys in North Mesopotamia," *The Geographical Journal,* vol. 30 (1907), 237-54 and 384-98.

————, "Asiatic Turkey and the new régime," *Proceedings of the Royal Central Asian Society* (London, 1909).

Tholens, Rudolf, "Wasserwirtschaft in Babylonien (Iraq Arabi) in Vergangenheit, Gegenwart und Zukunft," *Ztschr. d. Ges. f. Erdkunde* (Berlin, 1913), 329-47.

————, "Die Häfen von Alexandretta und Basra und ihre Bedeutung

für Bagdad,'' *Ztschr. f. Weltwerk. u. Weltwirtsch.*, vol. 4 (1914-1915), 51 ff.

The [London] *Times,* Nov. 23, 1898, [regarding the Kaiser's visit to Turkey]; *ibid,* April 20, 1903, [regarding the Bagdad Railway].

Willcocks, Sir William, ''Mesopotamia, past, present and future,'' *The Geographical Journal,* vol. 35 (Jan., 1910), 1-18.

———, ''The Bagdad Railway,'' *The Near East* (June 6, 1913).

———, ''From the Garden of Eden to the passage of the Jordan,'' *Blackwood* (1914), vol. 196, 425-46.

———, ''Two and a half years in Mesopotamia,'' *Blackwood* (1916), vol. 199, 304-23.

الكشـــاف

(Index)

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ق

ك

ل

م

ن

و

هـ



هـذا الكتاب

« ان البحث اسهام مرموق في التاريخ الدبلوماسي ، وانه دراسة في سياسة بريطانيا الخارجية ، وليس هو تاريخ لبلاد ما بين النهرين ٠ وان سعة اطلاع المؤلف ، وضبطه الممتاز لشتّى انواع المصادر ، الى جانب ما تحلى به من قوة المحاكمة طيلة البحث جعلت الكتاب **رائداً ممتازاً** في موضوع مهم » ٠

كلمة الاستاذ (و ٠ ن مدليكوت) : رئيس قسم التاريخ الدولي في جامعة لندن ٠ (راجع صفحة ٣١ من هـذا الـكتاب) ٠

ثمن النسخة (٧٥٠ فلس)

